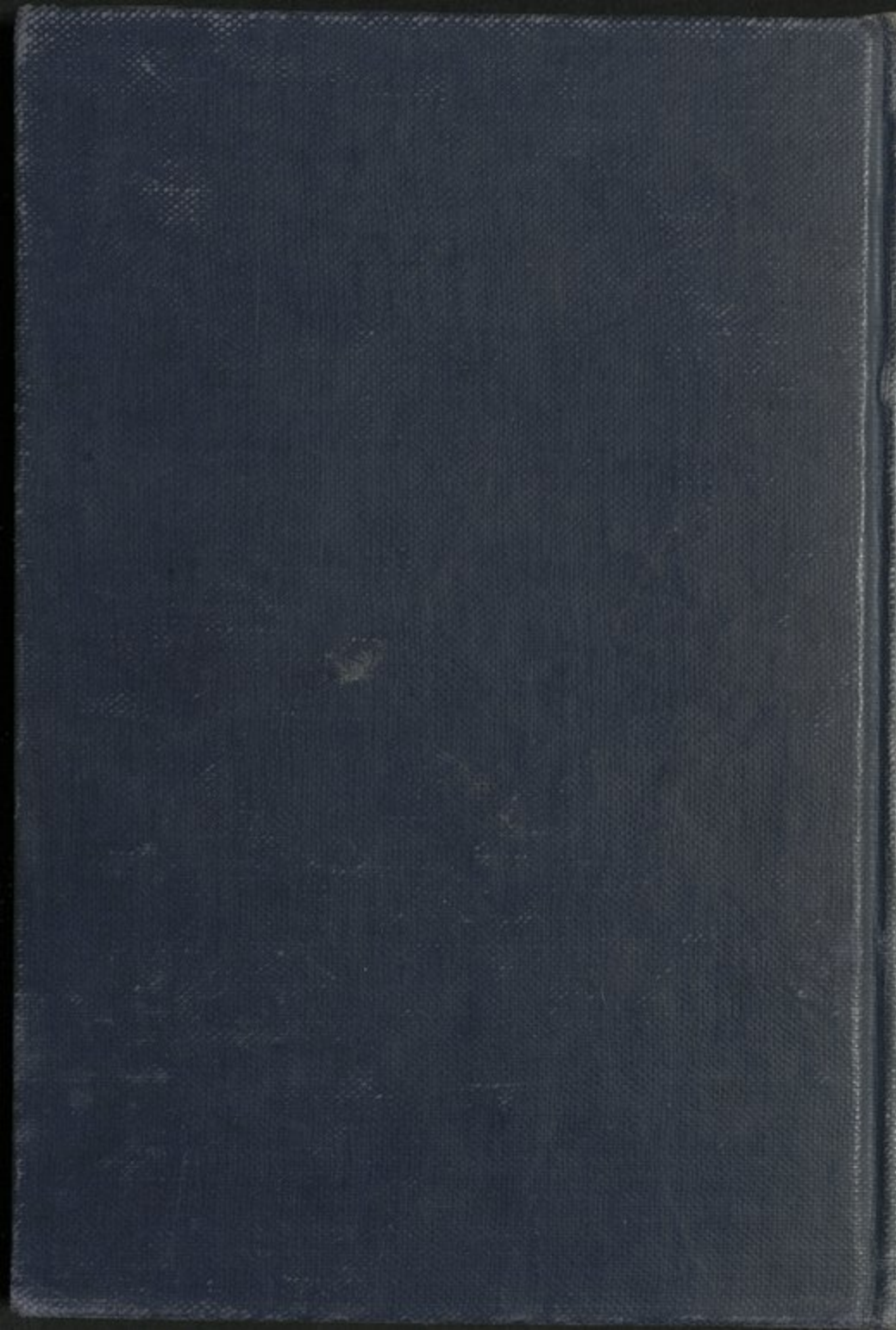
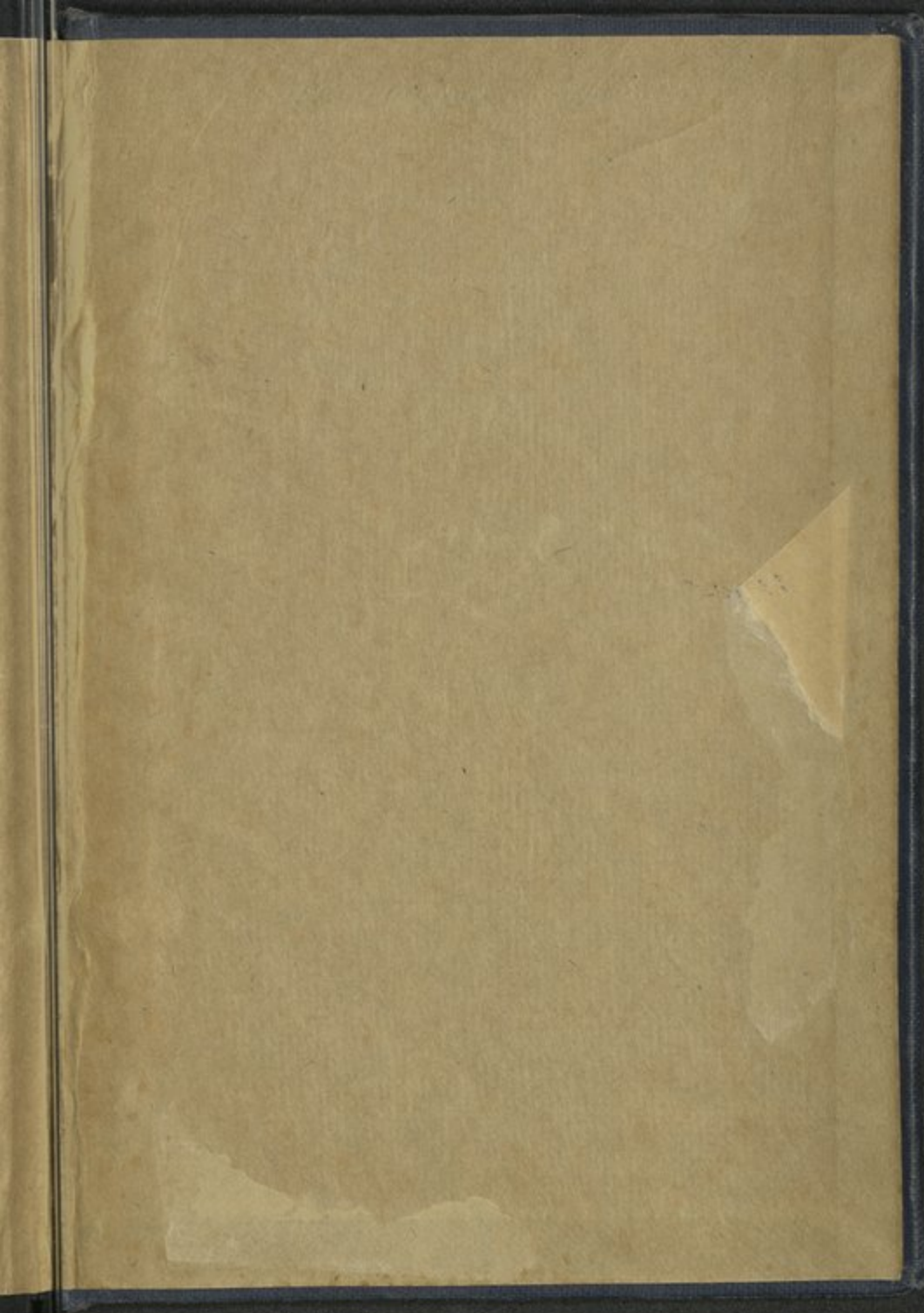






312
M95sA

~~MR 4 54~~

~~MR 19 54~~



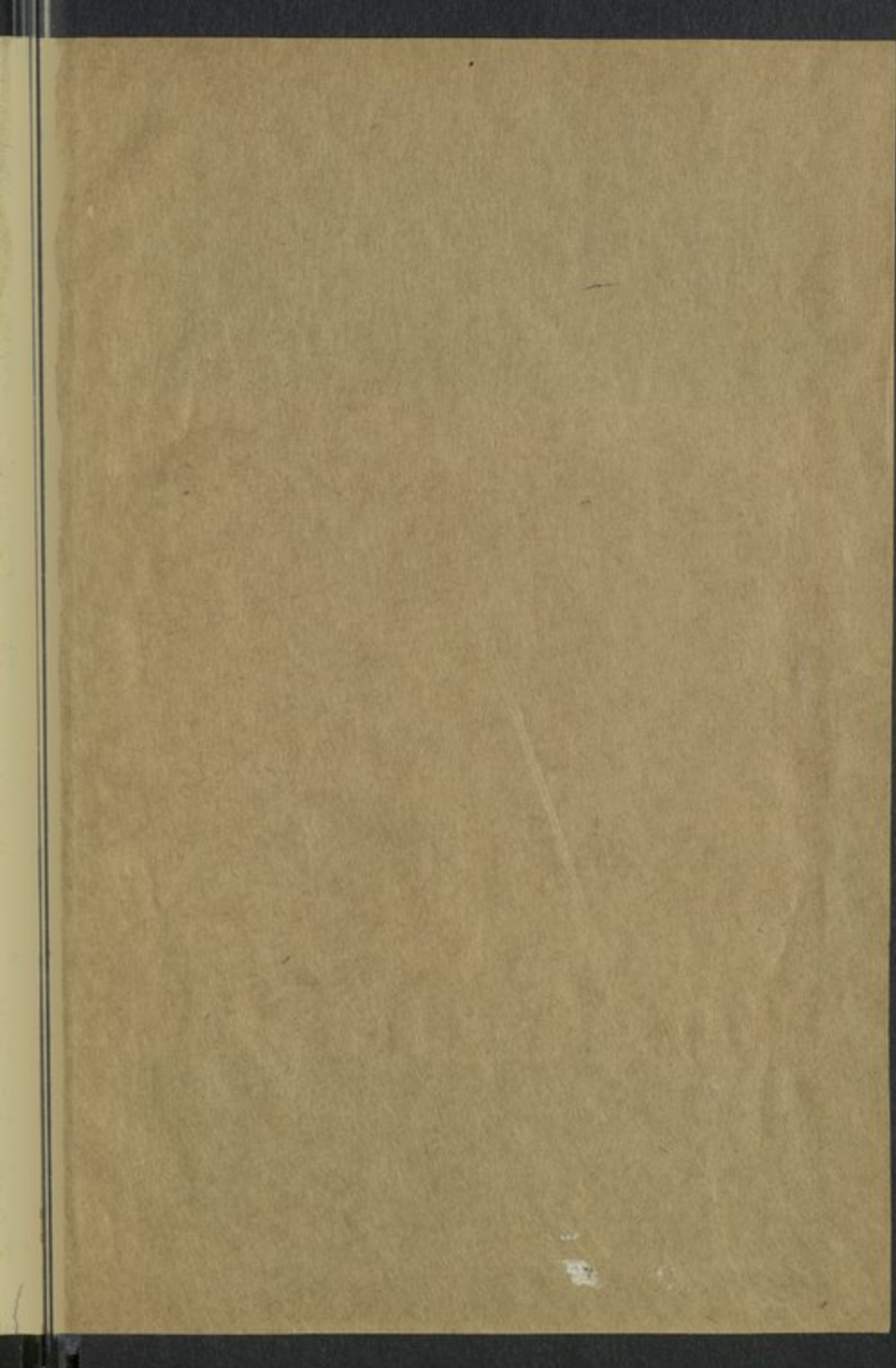
MAR 11 1991

~~2 65~~

~~1 8 65~~

JAFET LIB.

21 MAR 1990



بجته التأليف والترجمة والنشر

312

M954A

C.1

سُكَّانُ هَذَا الْكَوْكَبِ

للدكتور

محمد عوض محمد

الأستاذ المساعد بكلية الآداب

59576

سلسلة المعارف العامة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤

Cat. Dec. 1945



تمهيد

الاهتمام بأمر السكان في بلد ما هو بالطبع أول الواجبات التي يجب أن يضطلع بها أولو الأمر فيه . ومن أقدس الواجبات عليهم أن يعنوا بصحة السكان وبتقافتهم ورخائهم وأخلاقهم . فليس هنالك عاراً كبيراً على حكومة من أن يكون الجهل والمرض والفقر والإجرام منتشرين بين رعاياها . لهذا لم تكن أرقى الدول هي أكثرها عدداً ولا أوسعها ملكاً ولا أكبرها في ميدان الاستعمار والشهرة الدولية . وإنما أرقى الدول هي التي برئ سكانها من الفاقة والأسقام والجهل والآثام . والدول التي جعت عنوان عظمتها التطلع إلى ما وراء حدودها والطمع فيما هو في أيدي سواها ، دون أن تصلح شئونها وتعنى بسكانها ، تسير في بيداء من الضلال لا تفضي إلى خير ولا تحمد لها غاية

وموضوع السكان متشعب النواحي متعدد الجوانب موزع بين علوم كثيرة ، ودراسات مختلفة . ففي مؤتمر السكان الذي عقد بروما في خريف عام ١٩٣١ كانت الأبحاث التي عرضت والخطب التي أقيمت تدور حول الأبواب الآتية :

الباب الأول : يتناول الناحية التاريخية للسكان في مختلف الأقطار ، وحالتهم في العصور القديمة والحديثة ، ونموهم على مدى القرون

الباب الثاني : يتناول الأبحاث البيولوجية والأوجنية ، التي تشير إلى وسائل تحسين النوع البشرى من الناحية الحيوية ، وإصلاح النسل وتحسينه ، وجميع ما يتصل بهذا من الأبحاث

الباب الثالث : يبحث المواضيع الجغرافية والأنثروپولوجية ؛ كدراسة الأجناس والشعوب واختلاط الأجناس وما يترتب عليه من النتائج ، وتوزيع الأجناس والسكان

الباب الرابع : يتناول النواحي الصحية والطبية وعلى الأخص الأمور التي تتصل بالبلاد كلها كالأمراض المتوطنة ووفيات الأطفال وحالة المواليد والوفيات من الناحية الطبية

الباب الخامس : يبحث الناحية الديمغرافية أى وصف أحوال السكان ، من حيث الحجم والنمو ، ودرجة النمو في الوقت الحاضر ، وما قد تؤول إليه في المستقبل وما قد يعوق النمو من العوامل المختلفة وهنا بالطبع يكون بحث الموضوعات الخاصة بتحديد النسل أو الإكثار منه : أى الناحية العددية البهتة للسكان

الباب السادس : يتناول الناحية الاجتماعية كمسألة الأسرة ،
وحالة الطبقات المختلفة التى تتألف منها الأمة . واختلاف المذاهب
والعقائد وأثره فى حالة السكان . وأثر القوانين فى تطور
السكان . وما شاكل ذلك من الموضوعات

الباب السابع : يدرس الجانب الاقتصادى . كالعلاقة بين
السكان وموارد الثروة ، ومستوى الحياة . ونظرية مالتوس ومن
يذهب مذهبه والمهاجرة من قطر إلى قطر . أو فى داخل القطر
الواحد . والمجاعات والكوارث الأخرى التى تنتاب جهة
من الجهات

الباب الثامن : فى بحث الطريقة التى تتبع فى الدراسات
المختلفة الخاصة بالسكان



والقارئ يرى بالطبع أن كثيرا من هذه الأبواب متصل
بعضها ببعض . ولهذا وجد الباب الثامن لربط هذه الدراسات
جميعاً وتوحيد الاتجاه فيها . فالذين يشتغلون بأمر السكان إذن
موزعون متفرقون فى أقسام علمية منفصلة ، ويخشى إذا تركت
الأمر لتجرى فى مجراها العادى أن تظل الدراسات النظرية

العقيمة قاصرة على المعهد العلمى والمعمل التجريبي لا تبرحه إلى

ميدان الحياة والتطبيق العلمى

لهذه الأسباب وجلال الموضوع وخطره قد تألفت فى جميع
الأقطار المتقدمة جمعيات ولجان قومية تحت إشراف ورعاية
الحكومات لبحث موضوع السكان من جميع نواحيه والإشارة
بما يجب عمله لإيجاد سياسة قوية فيه تمشى مع حاجة البلاد .
وهذه اللجان والجمعيات هى التى جعلت من الممكن عقد مثل
هذه المؤتمرات النافعة لتبادل الرأى فى هذا الأمر الخطير

ومصر إن اشتركت حكومتها فى هذه المؤتمرات ، فإنها
للأسف ليس بها هيئة رسمية أو غير رسمية تعنى بدراسة موضوع
السكان كله . مع أن مشكلة السكان فى مصر متعددة الجوانب
وهى من أعقد المشكلات ، وأحقها بأن توجه إليها جميع الجهود .
والبلاد التى بها مثل هذه الهيئات أقل احتياجاً منا إلى مثلها .
ولكنها مع ذلك قد أحست الحاجة إلى إنشائها ولم نستطع نحن
بعد أن نحس الضرورة للجنة قومية لبحث موضوع السكان

صحیح أن فى مصر مصلحة للصحة ، ومعهداً للتعداد
والإحصاء ، وأستاذاً مساعداً لعلم الاجتماع بالجامعة المصرية ،
ووزارة للمعارف ، وأخرى للتشريع والعدل ، وأخرى للزراعة
والتجارة . ولكن هنالك حاجة إلى صلة تربط هذه الجهود

جميعاً وتوجد لها سياسة تعاونية وثيقة العرى ، موجهة إلى تحسين حالة السكان . وإلى فقد هذه الصلة يجب أن نعزو ما نراه من تدهور الحالة الصحية وانتشار الإجرام ، والأمية ، والفقر ، وعدم ظهور أى تحسن محسوس فى كل هذه النواحي برغم الجهود التى تبذل والأموال الكثيرة التى تنفق فى سبيل الإصلاح

هذا وليس فى وسع هذا الكتاب ولا فى وسع مؤلفه أن يلم بجميع هذه الفروع المتشعبة لموضوع السكان . ولكنه سيحاول أن يلم ببعض نواحيه الأكثر خطراً ، دون أن يبتعد كثيراً عن الميدان الجغرافى ، الذى هو نقطة الارتكاز للفصول المختلفة التى اشتمل عليها الكتاب . وأكبر أمنية تجول فى النفس هى أن يكون فى هذه الصفحات ما يبعث الرغبة فى نفوس المصلحين أن يعنوا بدراسة هذا الموضوع الخطير ، وأن يجعلوا من هذه الدراسة أساساً لسياسة عملية يتوسلون بها إلى إنقاذ هذه البلاد من الويلات العديدة التى أحاطت بها

فهرست الكتاب

صفحة	الباب الأول
	في نشأة النوع البشري وتكوين الأجناس
٥	الفصل الأول : الوطن الأول للنوع البشري ...
٣٧	الفصل الثاني : الوطن الثاني ونشوء الأجناس ...
٥٥	الفصل الثالث : انتشار السكان ونموهم
	—————
	الباب الثاني
	في قواعد توزيع السكان
	الفصل الرابع : الإنسان والبيئة : المظاهر الطبيعية
٧٥	الهامة وعلاقتها بتوزيع السكان ..
٩٧	الفصل الخامس : الأقاليم الطبيعية والسكان
	الفصل السادس : الحرف المختلفة وأثرها في كثرة
١٠٥	السكان وقلتهم
	—————
	الباب الثالث
	في النواحي الاجتماعية لنمو السكان
	الفصل السابع : كثافة السكان : عوامل النقص
١٢٥	وعوامل الزيادة

صفحة	
١٤٠	الفصل الثامن : السكان في حالة الكمال
	الفصل التاسع : المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية
١٦٧	للسكان
١٧٦	الفصل العاشر : مalthus قديماً وحديثاً
	الباب الرابع
	حالة السكان في بعض الأقاليم
١٩٧	الفصل الحادى عشر : سكان أوروبا
	الفصل الثانى عشر : ازدحام السكان في الشرق
٢٢٨	الأقصى
	الفصل الثالث عشر : مشكلة السكان في القطر
٢٦٨	المصرى

فهرست الرسوم والخريطة

صفحة	شكل
٣٥	١ الوطن الأول وانتشار الإنسان
٤٧	٢ زنجى قزم من أواسط افريقية
٤٨	٣ صينى وولده من الجنس المغولى
٤٩	٤ بدوى من أهل مصر
٥٠	٥ مقارنة بين جمجمة استرالى وجمجمة نياندرتال
٥١	٦ رجل من شمال استراليا
٧١	٧ خريطة توضح كثافة السكان فى مقابل صفحة
٨٣	٨ مقارنة بين توزيع السكان وتوزيع المطر
	٩ خريطة توضح أن كثافة السكان لا تتشى مع
٨٥	توزيع المطر فى الجزر البريطانية
٨٧	١٠ خريطة توزيع النباتات الطبيعية
	١١ خريطة للاقليم الطبيعية بطريقة هيربرتسن
١٠٢	فى مقابل صفحة
١٠٩	١٢ خريطة توضح توزيع الحرف
	١٣ للمقارنة بين توزيع السكان وتوزيع الفحم فى
٢٠٩	الجزر البريطانية

شكل	صفحة
١٤	توزيع السكان في فرنسا ٢١٧
١٥	توزيع السكان في ألمانيا ٢٢٣
١٦	للمقارنة بين توزيع السكان والمطر في الهند ٢٣١
١٧	توزيع السكان في الصين ومقارنته بالتضاريس ٢٤٣
١٨	» » اليابان » » ٢٦١
١٩	توزيع السكان في القطر المصري مقابل صفحة ٢٨٤

تنبيه :

قام برسم الخرائط المدرجة في هذا الكتاب محمود افندى
كامل مدرس الخرائط وأمين مكتبة قسم الجغرافيا بكلية الآداب
بالجامعة المصرية

استدراك :

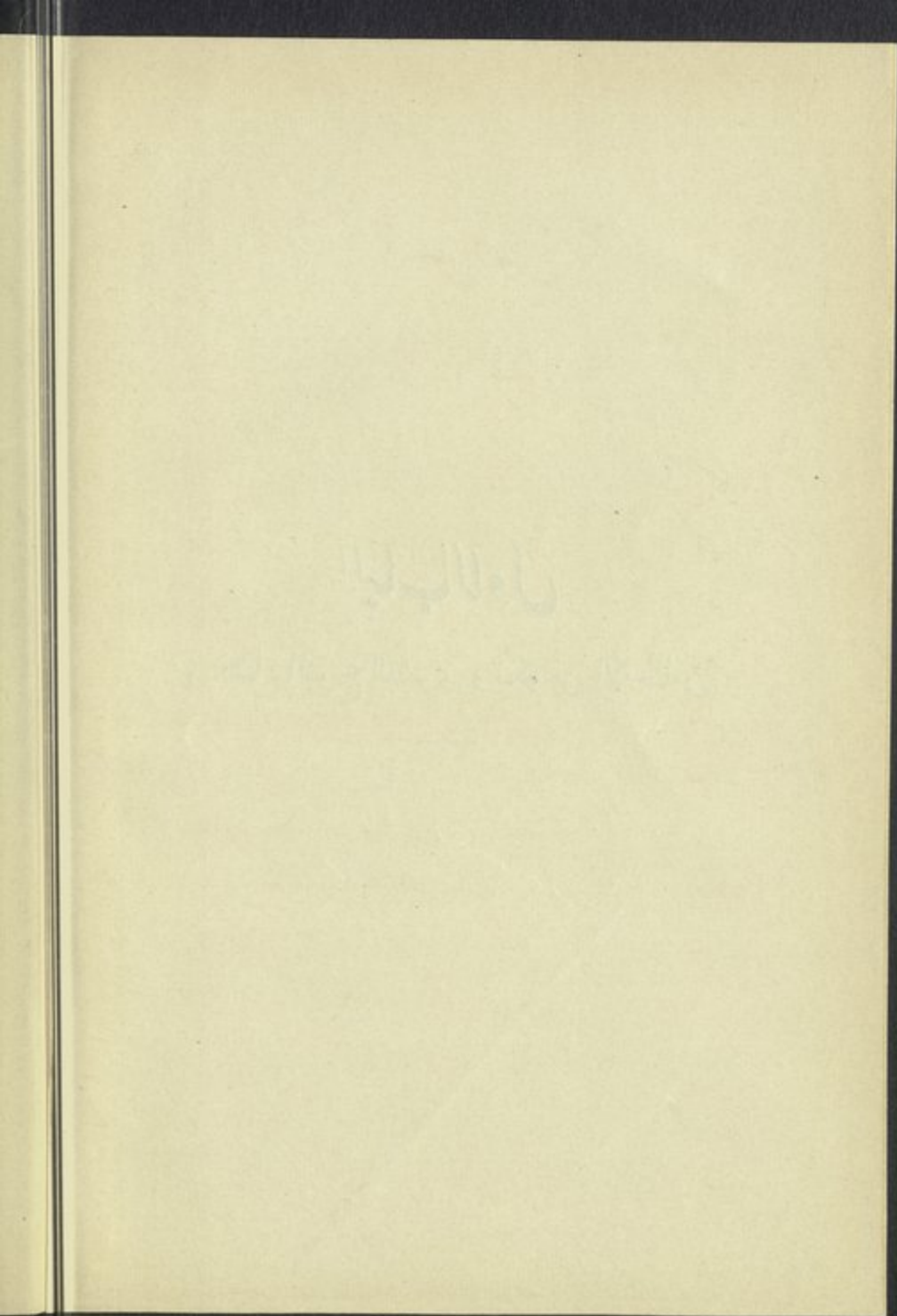
جاء في صفحة ١٠٩ في عنوان الخريطة كلمة ضبعة وصوابها خريطة ،
وكذلك في صفحة ١٢٨ سطر ١٥ كلمة خارق وصوابها خارقاً

سكان هذا الكوكب

Edw. M. Deane

الباب الاول

في نشأة النوع البشرى وتكوين الأجناس



الفصل الأول

الوطنه الأول للنوع البشرى

أصبح الانسان وقد اتخذ من الأرض كلها داراً . ومن كل إقليم وطناً . ويوشك ألا يكون فى الكائنات جميعاً : حيوانها أو نباتها ما هو أوسع انتشاراً ، وأكثر ضرباً فى مناكب الأرض من الإنسان . سكن الجبال على وعورتها وشدتها . واستوطن الصحراء على قلة نبتها ومائها . واستطاع أن يعيش وسط الغابات الكثيفة وتحت الشمس المحرقة ، وأن يتخذ حتى من المستنقعات وطناً يعيش فيه ، ولم يرتد حتى عن الأقطار القطبية ذات الزمهرير القارص والظلام الدامس والشتاء الذى يبعث الرعب فى القلوب . لم ينثن الإنسان أمام هذا كله . بل استطاع أن يتخذ لنفسه فى كل إقليم داراً ، وأن يجعل من كل بيئة وطناً

ولكن أى هذه الأوطان هو الوطن الأول ؟ أين الوطن الأول لهذا الكائن الذى يملأ اليوم هذا الكوكب ، والذى أصبح له اليوم ألف وطن ؟ إنه من غير شك لم ينشأ فى كل هذه

الأوطان مرة واحدة ، ولم تكن له نشأت مستقلة متعددة في جهات متفرقة . إنه لا يمكن أن يخالف الأنواع جميعاً بحيث تنشأ منه في آسيا سلالة ، وفي إفريقية سلالة أخرى ، وفي أوربا سلالة ثالثة . لقد وجد بين علماء الأثرولوجيا من قال بأن للانسان نشأتين مستقلتين ، محاولاً بهذا أن يعلل اختلاف الأجناس في الوقت الحاضر وخصوصاً اختلافها في شكل الرأس . ولكن هذا الرأي إذا استطاع أن يوصلنا إلى حل مشكلة واحدة ، فإنه يثير أمامنا مشاكل أشد منها وأكثر تعقيداً ، ولهذا لم يلبث أن نبذه الباحثون نبذاً تاماً . ويكاد ألا يكون بين الكتاب اليوم كاتب واحد دوشأن يقول بهذا الرأي ^(١) . وفي وسعنا أن نقرر في أول بحثنا هذا أن نشأة الإنسان واحدة ، وأن سكان الأرض جميعاً —

(١) لعل المؤلف الألماني كلاتش Klaatsch هو أكبر وآخر أصحاب هذا الرأي ، وقد حاول أن يثبت أن الانسان نشأ نشأة مستقلة في الشرق فنتج عن هذا الجنس المغولي ذو الرأس المستدير والبشرة المائلة إلى الاصفرار ، ونشأ نشأة أخرى مستقلة في الغرب (في إفريقية مثلاً) فنشأ عن هذا الجنس الزنجي المستطيل الرأس ، والجنس الفوقازي الأبيض أيضاً وشكل الرأس يقاس عادة بمقارنة عرض الرأس بالطول ، ويفترض فيه دائماً أن الطول مائة ، ويكتفى بذكر نسبة العرض الى هذا الرقم . فيقال أن النسبة الرأسية ٧٠ أو ٨٠ أو ٩٠ دلالة على نسبة عرض الرأس الى الطول المعروف دائماً أنه مائة ، والأجناس تختلف كثيراً في شكل الرأس ، فالسلالات المغولية عادة عريضة الرأس وتصل النسبة فيها الى ٨٠ أو ٩٠ أو أكثر وفي الزنوج تبلغ النسبة ٧٠ أو ٧٥ وتختلف كثيراً في الجنس الفوقازي فقد يكون الرأس طويلاً أو عريضاً

مهما اختلفوا فيما بينهم ، في صورهم وأشكالهم ، وفي مذاهبهم وثقافتهم ، وأياً كان وطنهم اليوم ، أو مساكنهم بالأمس ، أو مأواهم في الغد — فانهم جميعاً ينتمون إلى نوع واحد ، وأن هذا النوع نشأ وتكون في ناحية واحدة من سطح الأرض ، ودرج ونمّا في وطن واحد ، ثم انتشر من هذا الوطن إلى سائر الأنحاء والبقاع ؛ ولهذا جاز لنا أن تسأل : أين كان الوطن الأول ؟

ولابد لنا قبل أن نجيب عن هذا السؤال أن نقرر الخطوة التي نسلكها في بحثنا . فان الأمر بطبيعته ليس بالشىء الهين ، وآثار الإنسان التي خلفها من بعده تقل تدريجياً كلما رجعنا إلى العصور القديمة ، حتى تكاد تصبح عدماً أو قريبة من العدم إذا رجعنا إلى العصر الذي نستطيع أن نفترض أن الإنسان قد نشأ فيه ذلك أن الإنسان لابد أن قد نشأ ودرج على سطح الأرض ، وقضى فيها أزمنة وعصوراً ، يجد ويدأب ، ويتعلم بالتدريج جميع تلك الأشياء التي ميزته فيما بعد على سائر الكائنات . إنه لابد قد تعلم بالتدريج كيف يتفاهم ويتحدث إلى بنى نوعه . وتعلم بالتدريج كيف يصنع الآلات من الحجر ليقنص بها الصيد الذي يقتات به هو وعياله ، وبالتدريج جعل يتفهم ما حوله من ظاهرات الطبيعة : من حرارة وبرودة ، ورياح وعواصف ، ومطر وجفاف ، ثم اهتدى — بعد لأى — إلى النار وكيف ينتفع بها ،

وإلى الكهوف وكيف يأوى إليها هو وأسرته ؛ وترك لنا فى منازل هذه آثاراً ترينا ، فى كثير من الغموض والإبهام ، كيف كان يقضى حياته ، وكيف كان يدفن بعد مماته ، وكيف أخذ يبتكر على مر السنين عُدداً وآلات من الصوان ومن العظام ومن قرون الوعول متنوعة متعددة . خلف لنا هذه الآثار جميعاً . لكن وجود هذه الآثار ليس وحده دليلاً على أن الجهات التى وجدت بها هى الوطن الأول للإنسان . فإن هذا الكائن لا بد أن قضى دهرأ طويلاً يجاهد ويناضل دون أن يكون لديه من الآلات ما قد يبقى أثراً من بعده ، ولا بد أن قاسى فى ذلك الزمن البعيد أشد العذاب ، إذ كان فى الغالب أعزل إلا من غصن شجرة أو قطعة من حجر يدرأ بهما عن نفسه ضواري وسباعاً أشد منه ساعداً وأحد منه ناباً وظفراً . فى ذلك العهد القصى البعيد لم يكن الإنسان قد اهتمدى بعد إلى ابتكار تلك الآلات التى قد تبقى أثراً من بعده . ولئن كان لديه ما قد يدل على وجوده فإن فى قدم العهد وحوادث الدهر ما يكفى لضياغ الكثير من هذه الآثار ، وللعيبث بما قد يتبقى منها عبثاً شديداً يجعل من العسير جداً أن نتبين وجه الصواب فى أمرها حقيقة هنالك آثار قد يتركها الإنسان الأول ، وتدل عليه دلالة صريحة مهما تقادم العهد ، وتلك هى بقايا الإنسان نفسه :

من عظام الرأس والأطراف والأسنان . ولا شك أن هذه — إن وجدت — كان فيها غنية للباحث ، وضياء قوى ينير لنا تلك العهود المظلمة . غير أن ما وجد إلى اليوم من بقايا الإنسان نفسه شئ قليل جداً لا يكاد يطفى الغلة . فليس لدى الباحث اليوم من البقايا البشرية القديمة سوى بضعة آثار مبعثرة لن ترشدنا إلى الوصول إلى نتيجة حاسمة في بحثنا هذا . وقد لا يكون من الممكن اليوم أن تقطع في هذا الموضوع برأى فاصل ، ولكن هذا لا يمنعنا من أن نستعرض الأدلة المختلفة ، لعلمنا نصل إلى رأى يمكن التمسك به . ولعل السبب في قلة ما لدينا اليوم من بقايا الإنسان القديم يرجع إلى أن الباحثين عن آثاره لم يقوموا ببحوثهم بالنشاط الكافى والمثابرة اللازمة إلا فى ناحية واحدة وهى قارة أوروبا ، وهى من غير شك ليست الوطن الأول للإنسان . وعلى مضى الزمن ستزول الموانع التى حالت دون القيام بالتحرى عن آثار الإنسان فى سائر القارات . وهنالك نستطيع أن ندلى برأى أدنى إلى أن يكون قاطعاً مما نستطيع أن نقول به اليوم

ومهما يكن من شئ ، فإن الذى لدينا من معلومات عن بقايا الإنسان القديم ، وعن مخلفاته المادية كالآلات والعددوما إليها مما قد وجد فى الكهوف التى سكنها أو فى رواسب الأنهار مقبوراً فى أعماق بعيدة عن سطح الأرض ، ومعه بقايا الحيوانات التى

كانت تعيش في عصره ، والتي اتخذ منها مادة لغذائه ، هذه البقايا كلها ستفيدنا في بحثنا كثيراً وإن لم توصلنا إلى قول حاسم ودراسة بقايا الإنسان وآثاره تستلزم حتماً دراسة التربة التي وجدت فيها تلك البقايا . ومقارنتها بالتربة التي فوقها والتي تحتها ، لكي تبين من هذا البحث العصر الذي ترجع إليه تلك التربة ، ولنفهم من هذا مبلغ قديمها وقدم الآثار المقبورة فيها بما في ذلك بقايا الإنسان نفسه ، لعلنا أن نهتدى بهذا إلى درجة قدم الإنسان وهل الإنسان قديم ؟

لعله ليس من الفضول أن نسأل هذا السؤال ونحن نبحث عن الوطن الأول للإنسان ، فإن المسألتين مرتبطتان أشد الارتباط وبينهما علاقة متينة ، ولا بد من معرفة الزمن الذي يرجع إليه نشوء الإنسان الأول حتى نعرف أين كان وطنه الأول ، لهذا يحق لنا أن نتساءل : هل الإنسان قديم ؟

واعتبار الإنسان قديماً أو غير قديم أمر يرجع إلى المعنى الذي نقصد إليه بكلمة القدم ، فبالقياس إلى سائر الكائنات من وحش وطيور ، وحشرات ونبات ، يعد الإنسان من غير شك كائناً حديثاً مفرطاً في الحداثة . فإن تاريخ الحياة على سطح كوكبنا هذا تاريخ قديم جداً تدرجت فيه الحياة من أصغر الكائنات حجماً ، وأبسطها شكلاً ، إلى ما نراه اليوم من كائنات راقية جسيمة . وفي بحر

الحياة القديم ، في ذلك اليم الخضم ليست حياة النوع البشرى
سوى جدول صغير . وبهذا الاعتبار ليس الإنسان سوى كائن
حديث جداً ، وبقاياه لا تكاد يعرف عنها شئ إلا في أحدث
الأزمئة الجيولوجية

ولكن الإنسان — مع هذا — قديم على سطح الارض
إذا نظرنا إلى قدمه من ناحية أخرى غير الناحية الجيولوجية .
ذلك أن الرأي الشائع فيما مضى هو أن الإنسان قد ظهر على سطح
الأرض منذ بضعة آلاف من السنين ، وغلا بعض الناس حتى
حدد تاريخ ذلك الحادث الخطير بأنه قد تم حوالى سنة أربعة
آلاف قبل ميلاد السيد المسيح . ولعلّ أظهر نتيجة للبحث عن
آثار الإنسان ، هي أن هذه الآثار ترجع إلى زمن بعيد جداً
لا يجوز أن نحصيه بعشرات الآلاف من السنين

فإن تاريخ الإنسان المكتوب — ومدته حقيقة تقدّر ببضعة
آلاف من السنين — قد سبقه التاريخ غير المكتوب ، وهو
ما يسميه الناس عهد ما قبل التاريخ ؛ وهو عصر يصعب جداً أن
تقدّر له زمناً ، ولا يمكن أن تقلّ مدته عن بضعة مئات الآلاف
من السنين ، أى مدة تصبح فيها كلمة سنة لفظاً قليل المعنى .
وبهذا الاعتبار يصبح الإنسان قديماً جداً على سطح الأرض
وإذا افتقينا أثر الإنسان من زماننا هذا إلى العصور القديمة

متقلبن بالتدريج من ضياء التاريخ الساطع إلى ظلمات ما قبل التاريخ : من هذا العصر الذى نعيش فيه وندعوه عصر البخار والكهرباء ، إلى عصور أخرى ننتعها بعصور الحديد والبرنز والنحاس ، ثم مضينا إلى ما وراء ذلك : إلى العصر الذى نسميه العصر الحجرى الحديث والمتوسط والقديم — إذا نحن اقتفينا أثر الإنسان فى هذه العصور كلها ، نراه مائلاً أمام أعيننا فى جميع تلك الأزمنة . ونكاد أن نتخيله فى غدوه ورواحه ، وفى جده ولعبه ، وفى حياته ومماته . ونجد بقاياها فى غير واحدة من القارات ، لأنه ترك آثاره فى نواح شتى من سطح الأرض ، مما يدلنا على أنه — حتى فى ذلك العهد البعيد ، فى أول العصر الحجرى القديم ، الذى يقدره المعتدلون غير المسرفين من الكتاب بمائتى ألف من السنين — كان الإنسان قد انتشر فى مناكب الأرض ، ورحل عن وطنه الأول الذى نشأ فيه ودرج ، ولعله قد غادره منذ زمن بعيد إذن لا بد لنا أن نمضى فى بحثنا عن الإنسان حتى إلى ما وراء العصر الحجرى القديم ؛ وهنالك نجد أنفسنا فى ظلمات وغياهب يوشك ألا يتخللها قبس واحد من النور . لأن الإنسان قبل العصر الحجرى لم يكن قد اتخذ بعد آلات من الصوان ذات صور وأشكال تدل دلالة قاطعة على أنها من صنع الإنسان ، فكيف نهتدى إليه فى تلك العصور السحيقة المظلمة ؟

لم يبق إلا أن نبحث عن الإنسان نفسه ، في طبقات سطح الأرض الحديثة التكوين : هاهنا رواسب نهر ، فلنحفر فيها إلى أبعاد عمق نستطيع الوصول إليه ، وهناك بقايا خلفتها الثلوج المتراكمة في زمن كانت فيه تلك الجهات من أوروبا مغطاة بالثلوج . لنبحث هذه المخلفات الجيولوجية الحديثة . ولنحفر ما وسعنا الحفر ، علنا أن نعثر على بقايا الإنسان القديم نفسه

وهكذا يصبح البحث عن الإنسان القديم ، وعن ظهور الإنسان على سطح الأرض بحثاً جيولوجياً بحثاً . ومسألة قدم الإنسان على سطح الأرض تغدو مسألة جيولوجية يجب أن تعالج بالطرق الجيولوجية ، أى يبحث التربة التى توجد فيها بقايا الإنسان وبمقارنتها بما تحتها من الطبقات وما فوقها ، ثم بوضعها في الزمن الجيولوجي الذى يهديننا إليه البحث

في العصر الجيولوجي الحديث ، الذى يدعونه العصر الرابع أو البليستوسين ، وهو عصر حديث العهد جداً ^(١) ، نجد الإنسان قد انتشر في غرب أوروبا ونجد بقاياها في روديسيا ، وفي بعض

(١) مدة العصر الرابع قصيرة جداً بالمعنى الجيولوجي ؛ وقد لا تتجاوز مليوناً من السنين . وقد سبقه العصر الثالث الذى يقسمونه إلى أربعة أقسام : أولها وأقدمها الأيوسين eocene ثم الأوليغوسين oligocene ثم الميوسين Miocene وآخرها هو البليوسين pliocene . وفي هذه الأزمنة أخذت تظهر بالتدريج الأنواع الموجودة في وقتنا هذا

نواح أخرى فى مختلف القارات . فى هذا العصر اثبتت بعض الأقاليم — وعلى الأخص شمال أوربا وأمريكا — تغيرات مناخية عنيفة ، وانخفاضات شديدة فى درجة الحرارة ، كان من نتائجها أن تكونت على سطح الأرض طبقة من الجليد تغطى تلك النواحي ، على نحو ما هو مشاهد اليوم فى جزيرة جرينلندة . وكانت فترات الجليد هذه تتخللها فترات دفء وحرارة تعود فيها الأحوال المناخية إلى نحو ما هى عليه الآن — بل لقد يذهب بعض الكتاب إلى أن حالة الدفء السائدة فى أوربا فى وقتنا هذا ما هى إلا إحدى تلك الفترات ، ومهما يكن من شئ فإن هذه الظاهرة الطبيعية الهامة ، التى كانت سبباً فى نعت هذا العهد بالعصر الجليدى هى من أهم مميزات هذا العصر الرابع الذى دامت مدته زمناً اختلف فى تقديره العلماء بحيث تتراوح بين نصف مليون ومليون من السنين

فى أثناء هذا العصر — فى معظمه إن لم يكن فى جميعه — نجد آثار الإنسان وبقاياه فى نواح مختلفة فى أوربا ، مختلطة ببقايا حيوانات غريبة منقرضة ، كانت تعاصره وكان يصيدها ويتغذى بلحومها

إن الإنسان دخل أوربا من غير شك فى فترة من فترات الحرارة والدفء ، لا فى أوان البرودة والجليد . فأقام بها زمناً

يحجوب أقطارها ، ويتنقل بين أرجائها ، وهو يعيش في العراء وعلى منحدرات الكشبان الخالية من الغابات ، إلى أن أدركته فترة الجليد ، واشتد عليه البرد ، فاضطر لأن يبحث لنفسه عن مأوى ، فسكن الكهوف ، وتعلم كيف ينتفع بالنيران ، وإن لم يكن بعد قادراً على إحداها ؛ وكيف يكتسى بالفراء والجلود اتقاء لأذى البرد . وهكذا أخذ يتقدم ويرتقى في ظل هذه البيئة القاسية ، التي علمته أن يبتكر ويخترع وسائل شتى من عدد وآلات ولباس ، لكي يجاهد بهذا كله بيئته الشديدة ومناخها القارص العنيف

خلاصة هذا الحديث أننا عرفنا وجود الإنسان علم اليقين بآثاره ومخلفاته في أوروبا في أوائل عصر الجليد ، وسنرى فيما بعد أن أوروبا لم تسكن وطنه الأول ، وأنه لابد قد جاءها من مكان آخر في عصر جيولوجي سابق للپليستوسين . إذن فبحثنا عن قدم الإنسان يسوقنا حتماً إلى أن نفقش عنه في أواخر العصر الثالث ، أى في الزمن الذي يدعوه الجيولوجيون بالپليوسين . فإذا فرض أن الإنسان الأول عاش في ذلك العصر ، فمن الممكن أن نجد بقاياه مدفونة في وسط الطبقات التي تكونت في هذا الزمن ، فلئن كان الإنسان الأول عاجزاً عن صنع آلات تبقى بعده دليلاً عليه ؛ فمن الجائز على الأقل أن يترك عظامه وجماجمه وأضراسه

مدفونة في طبقات الأرض ، فتدل الباحثين عليه
وهنا نجد أنفسنا — ويا للأسف — أمام استكشاف واحد
لاثنائي له من نوعه . ونحن مضطرون لأن نعلق أهمية عظيمة على
هذا الكشف الوحيد ، ذلك أن جراحاً هولندياً اسمه الدكتور
دبوا (Dubois) أخذ يبحث في جزيرة جاوة في الرواسب
المتراكمة على ضفاف بعض أنهار هذه الجزيرة ، فبعد لأم عثر
على كنز علمي ثمين ، يشتمل هذا الكنز المدفون على جزء من
جمجمة إنسان وبعض عظام الفخذ وعدد من الأسنان .
والمفروض أن هذه الأشياء كلها لشخص واحد . والرواسب التي
وجدت بها هذه البقايا ترجع إلى أواخر عصر البليوسين على
أرجح الأقوال

وهذه العظام على قلتها كافية لأن تساعدنا على أن نمثل
لأنفسنا صورة الشخص الذي تركها ؛ فلقد كان إنساناً في مرتبة
غاية في التأخر ، لا يمثلاً جمجمته سوى مخ صغير (حجمه نحو
١٠٠٠ سم^٣) ، أى أنه يقل عن أحط الأجناس التي تعيش
اليوم في حجم المخ ، أو على أكبر تقدير يشبهها ؛ وكان ذا فك
بارز نائى ، وأنف أفطس غليظ ، وجهته مائلة منحدره ، وله
حواجب مشرفة من فوق عظم بارز . هذه الصفات — التي يصفها
بعض الكتاب بأنها من الناحية البشرية صفات منحلة ، جعلت

بعض المتحذلقين من الكتاب ينفقونه باسم *Pithecanthropus* أى الإنسان القرد . لكن هذه الحذقة ليس لها داع مطلقاً ؛ فهذه بقايا إنسان من غير شك ، ولها من الصفات البشرية ما يضطرنا لأن ندخله فى عداد البشر ، وأن نطلق عليه اسم (إنسان جاوه) ؛ والذين دعوه بالإنسان القرد هم تلك الفئة التى كانت تتصايح بنظرية التطور التى لم يحسنوا فهمها ، والتى ظنت أنها قد أصابت فى إنسان جاوه الشئ الذى سموه الحلقة المفقودة . والحقيقة أن إنسان جاوه لم يكن لا حلقة ولا مفقودة ، بل إنساناً يدب على أديم الأرض فى حالة هى غاية فى البساطة ، ولكنها تتناسب مع ذلك العهد البعيد الذى كان يعيش فيه ؛ وأكبر الظن أن ذلك الجنس لم يستطع مغالبة الحوادث ، واحتمل تكاليف الحياة زمناً طويلاً ؛ ولهذا قد انقرض من الأرض ولم يبق من نسله إلى زمننا هذا شئ .

فبقايا إنسان جاوه هى كل ما عثر عليه من بقايا الإنسان البليوسينى ؛ وهى للأسف بقايا قليلة ، ولا نستطيع أن نغلو فبنى عليها نظريات كثيرة . وكل ما نستطيع تقريره هو أن بقايا الإنسان قد وجدت فعلاً فى عصر البليوسين ، ونظراً لأن تلك البقايا لا تبدل على نوع بشرى راق ، فى الغالب أن إنسان البليوسين هو أول إنسان وجد على سطح الأرض . فلا يجوز لنا أن نذهب (٢ — ك)

إلى أبعد من هذا العصر — إلى الميوسين مثلاً كما يفعل بعض الغلاة من الكتاب — بل الذى يمكننا تقريره أن الإنسان قد نشأ وتكون فى عصر البليوسين فى بقعة فسيحة من الأرض هى وطنه الأول الذى درج فيه وعاش فيه دهرًا ، ثم أخذ ينتشر منه إلى سائر الأنحاء

حقيقة إن استكشاف بقايا إنسان جاوه لا ترشدنا إلى الوطن الأول ، ولكنها تهدينا بشىء من التأكيد إلى العصر الذى عاش فيه الإنسان فى وطنه الأول ، وهو أمر له أهميته ، ونستطيع أن نجعل منه نقطة ابتداء لمبحثنا عن ذلك الوطن

إن الإنسان قد تكوّن بلا شك فى إقليم يلائمه ، فان طبيعة جسم الإنسان ونشاطه وسعيه تتطلب هواء خاصاً وبيئة خاصة ؛ ولا يجوز عقلاً أن يكون الإنسان قد تكون فى أى موضع كائناً ما كان ، فليفكر الذين يريدون أن يقترحوا للإنسان الأول وطناً ما أن هذا الوطن لا بد أن يكون ملائماً له ولوظائف أعضائه وجوارحه . حقيقة إن الإنسان يعيش اليوم فى كل مكان وفى كل إقليم ؛ لكن مجرد الحياة شىء ، والنشأة والتكوين شىء آخر فالبيئة التى نشأ فيها الإنسان يجب أن تكون ذات هواء معتدل بين الحرارة والبرودة ، وأن يكون مطرها وافياً وافراً ، وشجرها كثيراً ولسكنه ليس متكاثراً ، لئلى يتوافر بها الصيد

الذى يعيش منه الإنسان الأول . ويجب أن تكون الحياة فيها على العموم سهلة ، ولكن يعتورها بعض الشدائد ، لكي يعمل الإنسان فكره في التغلب عليها ، فينمو عقله ويتسع إدراكه ؛ ويجب أن تكون تلك البيئة فسيحة الأرجاء ، متباعدة الأطراف ، غير وعرة المسالك ، لأن الإنسان في طوره الأول كان محباً للحركة ، كثير الاضطراب والانتقال ، كما هي حالة الشعوب التي تعيش اليوم عيش البساطة ، أو كما هي حالة الأطفال حين يدرجون على الأرض . وحقيقة أن هذه الصفات قد تنطبق على غير واحد من الأقاليم ، ولكننا مع ذلك سنرى كيف تضيق مجال الاحتمالات بحيث نقصرها على اعتبارات قلائل ترجح غيرها وقبل أن نشرع في تحقيق أمر هذه الجهات التي تلائم الإنسان يجب أن نذكر شيئاً عما نعرفه عن حالة سطح الأرض في عصر البليوسين فإن حالته كانت تختلف قليلاً عن الحالة السائدة في زماننا هذا سواء من حيث تضاريس الأرض ، أو من حيث توزيع الماء واليابس ، ومن حيث مجرى الأنهار والمناخ وغير ذلك كان البليوسين عصر اضطرابات جيولوجية : ارتفاع تدريجي وهبوط تدريجي في قشرة الأرض . كان النصف الشرقي للبحر الأبيض المتوسط منفصلاً عن النصف الغربي ، وكانت أوروبا متصلة بإفريقية عند إيطاليا ، وكذلك عند جبل طارق ؛ وكانت

هنالك اضطرابات بركانية كثيرة ؛ وجبال الألب وإف تم
تكوينها ، غير أنها لم تكن قد وصلت إلى حالة استقرار ؛ وكانت
مصببات كثير من الأنهار مغمورة بمياه البحر إلى مسافات بعيدة ؛
وهذا صحيح بوجه خاص في حالة النيل والرون واليو ؛ وقد تكون
البحر الأحمر على شكل بحيرة مستطيلة ، لأن إفريقية كانت
متصلة بآسيا حيث يوجد اليوم بوزاب باب المندب

وهناك أدلة واضحة تشير إلى أن الهواء أخذ يبرد والجليد
أخذ يتكون في شمال أوربا الغربي في أواخر الپليوسين — أى
في الوقت الذى افترضنا أنه عصر نشأة الإنسان ؛ فأصبح الهواء
قارصاً في معظم أوربا ، وأخذ الجليد يتراكم . أما في شمال إفريقية
وما يوازيه من الأقطار في آسيا فهناك كان الهواء معتدلاً — حيث
تغلب عليه صفة الحرارة اليوم — وكان المطر كثيراً حيث يسود
الجفاف اليوم في صحراء آسيا الغربية وإفريقية الشمالية ؛ وفي أواخر
عصر الپليوسين وأوائل الپليستوسين كانت هنالك تغيرات كثيرة
في توزيع الماء واليابس ، بحيث أن جزءاً عظيماً مما يغمره المحيط
الهندي اليوم — مثل خليج العجم — كان أرضاً يابساً ؛ وكانت
استراليا وجزر الهند الشرقية متصلة بآسيا — ولو إلى زمن وجيز
هذه خلاصة الحالة الجغرافية لسطح الأرض في ذلك الزمن ،
لم يكن لنا مندوحة عن ذكرها ، لكن نستطيع أن نستبعد الجهات

التي لا يحتمل أن تكون الوطن الأول للنوع البشرى
وهناك أمر آخر يجب أن نجعله نصب أعيننا ، ونحن نفكر
في أمر ذلك الوطن الأول : وهو ملائمة هذا الوطن للهجرات
المختلفة التي قام بها الإنسان منه ، وهي التي أدت إلى انتشاره في
جهات وأقطار أخرى ؛ وإلى تكوين أجناس مختلف بعضها عن
بعض ، مع أن أصلها جميعاً واحد . فالإنسان الأول في وطنه
الأول لم تكن أفرادُه أجناساً وشعوباً مختلفة الأشكال والصور ،
بل الأدنى إلى العقل أن الأفراد في الوطن الأول كانوا جميعاً
متقاربين في شكولهم وصورهم ، ولا يكادون أن يتميز بعضهم من
بعض إلا قليلاً ، أما الاختلافات الجنسية ، فقد نشأت حينما نزلت
الجماعات عن الوطن الأول وأقامت في أوطان ثانية وثالثة ،
شكلتها بشكول جديدة ، وصور مخالفة — قليلاً أو كثيراً —
للصورة الأولى ، وهكذا تكونت أجناس مثل الجنس الزنجي
والأسترالي والمغولي والقوقازي ، بعد أن رحلت عن الوطن الأول
وعاشت دهرًا طويلاً في وطن جديد

إذن لا يكفي أن يكون الوطن الأول للنوع البشرى ملائماً
للإنسان كما نعرفه اليوم ، بل يجب أن يكون موضع ذلك الوطن
من سطح الأرض بحيث نستطيع أن نفهم كيف انتشر منه
الإنسان في شتى الجهات بحيث أمكن تكوين الأجناس المختلفة
في مواطنها المختلفة

فإذا ذكرنا هذا كله استطعنا الآن أن نتناول كل قطر على حدة ، لنرى مبلغ صلاحه لأن يكون الوطن الأول للنوع البشرى فأما أمريكا — شماليها وجنوبيها — فيجب أن نستبعدا تماما ، ومما لا يعقل مطلقا أن تكون أمريكا هي مهد الإنسان ، فانها لم تكن وطنًا إلا لجنس واحد ذى صفات خاصة ، وهو جنس هنود أمريكا . ومن المستحيل — مهما كان بها من اعتدال في الهواء — أن نتصور كيف نزرع منها الجنس الزنجى حتى وصل إلى إفريقية ، وخصوصا أن نقطة التقاء أمريكا ببقية سطح الأرض هي حيث تقترب ألاسكا وسيبيريا في المحيط المنجمد الشمالى ، وهو طريق جليدى وعرا لا يطيب للانسان فى حاله الأولى أن يسلكه . ونحن عدا هذا نعلم أن الجنس الأمريكى الأصلى مشتق من الجنس المغولى ، بل هو فرع تفرع منه وهاجر فى زمن ليس ببعيد عن طريق سيبريا وألاسكا حتى وصل إلى أمريكا وانتشر فيها

فلنستبعد إذن أمريكا ؛ فانها لا يمكن أن تكون الوطن الأول ، حتى ولا الوطن الثانى . وكذلك أوروبا لا يمكن أن تكون هذا الوطن ، لأن مناخها القارس وزلازلها وجبالها ووعورة مسالكها ، والتلج المتراكم فى كثير من أرجائها ، كل هذا لا يتفق وما تتطلبه نشأة الإنسان من الأحوال الملائمة . ونحن

نرى الإنسان الذى ترك مخلفاته فى عصر البليستوسين بأوربا ،
نراه داخلا إليها من ناحية إفريقية ، فى فترات الدفء والحرارة ،
ونستطيع أن نتقن أثره إلى ألمانيا (حيث بقايا إنسان هيدلبرج)
و إلى انكاتره (حيث بقايا إنسان پلتدون) . ومن بعد ذلك
نرى بقايا إنسان نياندرتال Neanderthal منتشرا فى جهات
كثيرة ، وقد دخل أوربا من الجنوب ذاهبا إلى الشمال . وكان
المدخل إلى أوربا هو من قارة إفريقية . وقد ظل الإنسان زمنا
طويلا يدخل أوربا من هذا الباب وحده ، ثم أخذ بعد ذلك
يدخل من ناحية آسيا أيضا بعد أن زالت من أمامه العقبات التى
تعترضه وأهمها تراكم الجليد . وفى الحق أنه قل أن يوجد بين
العلماء من يقول بأن نشأة الإنسان كانت فى أوربا

بقيت لدينا قارتان إفريقية وآسيا (إذ ليست أستراليا فى
هذا البحث سوى ملحق أو امتداد لقارة آسيا) . وقد وجد بين
الباحثين من ينتصر لواحدة من هاتين القارتين ، فيجعل منها
الوطن الأول للنوع البشرى ، كما وجد فيهم من يجعل الوطن
الأول إقليما وسطا يتناول جزءا من إفريقية وجزءا من آسيا

أما إفريقية وصلاحتها لأن تكون مهدا للإنسان فقد قال
بهذا رأى كثير من العلماء فى الجيل السالف ، منهم كين العالم
الانثروپولوجى المعروف . ولقد كانت إفريقية فى عهد جيولوجى

حديث — وبلا شك في آخر البليوسين — متصلة بآسيا عند
 بوغاز باب المندب ، وبأور باعند جبل طارق . وهكذا يصبح في
 وسع الإنسان الأول أن يمضى إلى هاتين القارتين من غير حاجة
 لأن يتعلم السباحة أو الملاحة ، إذ كان البحر الأحمر بعد عبارة
 عن بحيرة مستطيلة لا تتصل بالحيط ، وكذلك البحر الأبيض
 المتوسط . . .

وقبل أن نبت برأى في صلاح قارة إفريقية للإنسان يجب
 أن نستعرض أقاليمها الرئيسية لكي نتعرف صفاتها . أما أواسط
 إفريقية فإقليم استوائى ، وكان في عصر نشأة الإنسان أغزر
 مطرا وأشد رطوبة ، وغاباته الكثيفة كانت أشد كثافة مما هو
 معروف اليوم ، وحتى على فرض أنها كانت في ذلك الوقت كما
 هى اليوم ، فان الأقاليم الاستوائية الإفريقية — بحارها
 ورطوبتها ، وحشراتهما ، وأمراضها — ليست من الأقاليم التى
 يرتاح للعيش فيها النوع البشرى ، ولا تحفره بيئتها إلى الجد ،
 ولا تساعده على التفكير . ولئن كانت هذه البيئة قاسية شاقة على
 الإنسان اليوم ، بعد أن تم تكوينه ، واشتد ساعده ، فإنها بعيدة
 عن أن تكون صالحة له وهو بعد في مهده وطفولته

هذه الغابات الاستوائية تحتل الربع الأوسط من القارة ،
 أما الجزء الجنوبي من إفريقية فشديد الوعورة ، كثير المرتفعات

والهضاب ، منقطع عن العالم . إذا وجد فيه الإنسان فعلا فانه ان
يستطيع أن ينتشر منه إلى بقاع أخرى . ولا يزال جنوب
إفريقية إلى يومنا هذا مأوى لأجناس قديمة جدا نزلت إليه منذ
زمن بعيد ، ثم ظلت به لا تستطيع التحول عنه

بقيت لدينا الأقطار الواقعة شمال المنطقة الاستوائية . وهاهنا
نجد القارة عبارة عن أرض ممتدة واسعة مترامية الأطراف ،
ليس في مسالكها وعورة أو صعوبة إلا ما قد يسببه اليوم انتشار
الصحراء المقفرة التي تملأ الشطر الأعظم من إفريقية شمال خط
الاستواء . ووجود هذه الصحراء الممتدة من المحيط الأطلسي إلى
البحر الأحمر قد يحملنا على الظن لأول وهلة أنها لن تكون
صالحة بحال من الأحوال لنشأة النوع البشري . إذ لا تتوفر فيها
حاجاته من طعام وشراب

لكن هذا القول إن صح اليوم ، فانه ليس صحيحا بالنسبة
لما كانت عليه القارة في العصور القديمة . فان في كثير من
الكهوف التي بالصحراء رسوم وصور لحيوانات ، لم يصبح لها
وجود في يومنا هذا ، كان يعيش سكان تلك الكهوف بصيدها
. والتغذى بلحمها . وهنالك أودية كثيرة هي بقايا أنهار كانت
تجري في أواخر البليوسين وفي أوائل البليستوسين
فلماذا لا تكون هذه الصحراء الكبرى هي المهدي الأول

للإنسان ، مادامت فسيحة الأرجاء طيبة الهواء ، كثيرة الماء والنبت والصيد ؟ إن الصحراء الكبرى لا تزال ، للأسف ، محتفظة بالكثير من أسرارها ، وقد أخذت ترفع النقاب — بفضل مايقوم به الباحثون — عن وجهها وعن دفائها قليلا قليلا . غير أنها إلى الآن لم تخرج لنا من باطنها دليلا ملموسا — مثل إنسان جاوه — على وجود الإنسان بها في ذلك العهد البعيد . وليس من الحزم أن نجعل لهذه الأدلة السالبة أهمية كبرى . خصوصا أن البحث في الصحراء كان دائما — ولعله سيبقى أبدا — من الأمور التي لا تسير إلا ببطء شديد . وليس بمستحيل أن يكشف البحث عن آثار بشرية قديمة تقنعنا بنشأة الإنسان في هذه المنطقة . ولكننا — مع اعترافنا باحتمال أن تكون إفريقية الشمالية الوطن الأول أو جزءا من الوطن الأول ، فإننا — لاعتبارات أخرى — نفضل الآن على الأقل أن نرفض التسليم بهذا الرأي

والسبب الأكبر الذي يدعونا لأن نبحت عن وطن الإنسان في غير إفريقية ، هو الصعوبة التي لانستطيع التغلب عليها ، إذا أردنا أن نتصور كيف استطاع الإنسان أن ينتشر من شمال إفريقية حتى وصل إلى استراليا وجاوه في زمن قديم جدا ، وحتى انتشر بعد ذلك في سائر أنحاء المعمورة ليكون

سلالات وأجناسا جديدة . إن إفريقية ليس لها ذلك المكان المركزي بالنسبة لساثر القارات ، الذى يستطيع أن يكون مبعثا لانتشار الأجناس : وكذلك ليس لها تلك البيئات المتعددة المتباينة التى ساعدت على تكوين سلالات مختلفة فى أشكالها وصورها

لهذا نحن مضطرون لأن ننظر إلى آسيا بأن فيها الوطن الأول للإنسان ، وبالرغم من أن بقايا الإنسان القديم لم يوجد منها بآسيا سوى بقايا إنسان جاوه ، فإننا هنا أيضا يجب ألا نعبأ بالأدلة السلبية ، التى لا تدل على شئ سوى أن البحث فى هذه القارة لم يتسع مداه بعد ، أو لم يتناول سوى نقط منفردة من القارة ، ومع ذلك فبقايا العصر الحجري كثيرة منتشرة فى جهات كثيرة من آسيا

ونحن إن قبلنا رأى القائل بنشأة الإنسان فى آسيا ، استطعنا من غير مشقة أن نؤلف صورة قريبة من أن تكون كاملة لنشأته وانتشاره واختلاف سلالاته ؛ على أننا لا نريد أن نقبل هذا الرأى لمجرد أنه أكثر ملاءمة وأسهل تصورا ، فليس كل شئ سهل التصور هو الحقيقة بعينها . ولكننا قد وصلنا إلى افتراض أن آسيا الوطن الأول ، بأن استبعدنا كل قارة أخرى ، إذ وجدنا من المستحيل أو من الصعب جدا أن

يكون الوطن الأول للانسان في إحدى القارات الأخرى
والآن وقد أوصلنا البحث إلى قارة آسيا ، يحسن بنا أن
نتأمل في هذه القارة العظيمة — وهي القارة الوحيدة التي لا يزال
بها اليوم جماعات تمثل جميع الأجناس البشرية — لننظر إلى
هذه القارة ، ونستعرض أقاليمها ونواحيها ، لعلنا نستطيع أن نحدد
الوطن الأول ، ونحصره في دائرة أضيق من مجرد قولنا قارة
آسيا . وحسبنا هنا أن نسلك نفس الطريقة التي سلكناها
وأوصلنا إلى آسيا : طريقة الاستعراض لكل إقليم ، واستبعاد
مازاه غير صالح

أقل جهات آسيا صلاحا لأن يكون وطننا للانسان الأول
هو سهولها الشمالية ، التي تخط القارة من الشرق إلى الغرب ،
والتي تمثل اليوم في مساحة سيبريا الهائلة ، تلك الأقاليم التي
يشهد زمهريرها شتاء وتغيب شمسها طويلا ، والتي تكسوها
غابات من شجر الصنوبر كثيفة ملتفة ، هي بعيدة كل البعد
عن أن تكون الوطن الأول . فلنستبعدا إذن اعتمادا على هذه
الاعتبارات وحدها بقطع النظر عن كل اعتبار آخر

ولا بد لنا هنا أن نذكر القاري مرة أخرى إن الإنسان
بتركيبه الجثامي كائن يألف الدفء والمناخ الدافئ . والنوع
البشري قد تكون من غير شك في إقليم دافئ ، بعيد عن

التطرف في الحرارة والبرودة . والمشاهد اليوم أن الإنسان يصيب راحته ورفاهيته في حالة الاعتدال والدفء . ولا عبرة بما ذهب إليه بعض الكتاب مثل (إلزورث هنتنجتن) ومن يسير تحت رايته من أن أصلح الأقاليم لتقدم الإنسان هو ما كان أدنى إلى البرودة ، قياسا على ما قد يبدو من تقدم سكان الجهات الباردة في وقتنا هذا ، فلئن كانت الحضارة منتشرة اليوم في جهات هواؤها أدنى إلى البرودة ، فإن الحضارة لم تنشأ في هذه الجهات بل نشأت في جهات دافئة ، ونحن الآن نعى بأمر النشأة . والوطن الأول للإنسان كالوطن الأول للحضارة البشرية ، لا يمكن إلا أن يكون في أقاليم معتدلة الهواء . وهكذا نستطيع أن نستبعد شمال آسيا

أما بقية نواحي آسيا ، فليس استبعادها بهذا القدر من السهولة ؛ فأما شرق آسيا الذي نسميه اليوم الشرق الأقصى — وكفى بهذه التسمية دليلا على بعده — فإنه كذلك بعيد أن يكون الوطن الأول للإنسان ، فإن هذا الاقليم لم يوصف بالبعد لأن بينه وبين بقية العالم مسافات كبيرة بل لأنه يحول بينه وبينها جبال ومسالك غاية في الوعورة ، بحيث لا يكون من السهل أن ينتشر الإنسان منها إلى مختلف الأنحاء . وعدا هذا فإن الشرق الأقصى يتألف أكثره من هضاب عالية تتخللها

أودية عميقة وسهول قليلة ضيقة ، فالحركة التي لا بد منها
للإنسان الأول في تجواله ليست متيسرة

وعدا هذا فإن الشرق الأقصى هو اليوم الوطن الأكبر
للسلالات المغولية ، وبقية الأجناس البشرية بعيدة جدا عن
هذا الوطن

أما جنوب آسيا فإن به أقطارا ، أو على الأقل قطرا واحدا
عظيما ، قد لقي من بعض الباحثين عناية والتفاتا ، وقد جعله
بعضهم الوطن الأول ، وهذا الاقليم هو بلاد الهند ، تلك المساحة
العظيمة التي تتألف من سهول فسيحة وهضاب وأنهار وجبال ،
وكان هوائها في ذلك الزمن أدنى إلى الاعتدال مما هو اليوم في
نظر كثير من الكتاب . ولكي يسهل على القارئ أن يتصور
قوة هذا الرأي ، يجب أن نذكر أن الهند كانت أوسع مساحة
مما هي اليوم ، لأن البحار التي تحيط بها كانت أقل اتساعا ،
وكانت على اتصال بجزيرة العرب بطريق برى سهل ، لأن
خليج العجم كان أرضا يابسة . كما أنها على اتصال بجزر الهند
الشرقية وأستراليا ، التي كانت كلها متصلة بآسيا

ثم ، أليست الهند قريبة جدا من المكان الذي وجدت به
بقايا إنسان جاوه : أقدم البقايا البشرية التي عثر عليها إلى الآن ؟
فماذا نتردد في اعتبارها الوطن الأول ؟ من السهل أن نتصور

انتشار الإنسان من الهند إلى الجهات التي تكونت فيها الأجناس — جلاها إن لم يكن كلها — فمن الممكن أن تتصور طائفة من الناس نزحوا من الهند إلى جزيرة العرب ، ثم إلى إفريقية عن طريق باب المندب ، وهناك تكون الجنس الزنجي الأفريقي . وآخرين نزحوا إلى الجنوب الشرقي ، وكان منهم الجنس الأسترالي والأقزام والزوج الذين يعيشون في أطراف آسيا الجنوبية . ومن الممكن أيضا أن تتصور الجنس القوقازي وقد نزح إلى غرب آسيا وانتشر منها إلى أوربا وإفريقية الشمالية . كل هذا ممكن وجائز ، ولكن من الصعب جدا أن نرى كيف نزح الإنسان الأول من الهند إلى بلاد المغول ، لكي يتكون من نسله ذلك الجنس العظيم الذي يسكن شمال وشرق آسيا . ليس هنالك من طريق يوصل ، والهند معزولة عزلة تامة عن آسيا الشرقية والشمالية بواسطة حاجز هائل من الجبال ليس له في قوته ومنعته نظير في بقية أنحاء العالم . حقيقة أن هنالك ممرات ، أو بالأحرى ممر واحد وسط هذه الجبال وهو ممر خيبر ، الذي دخل منه الاسكندر بجنوده والإسلام بعساكره ، ولسكن هذا المدخل إلى الهند قلما كان مخرجا من الهند . ومن الصعب أن نمثل لأعيننا آباء الجنس المغولي وقد اتخذوا هذا الطريق الوعر سبيلا إلى أوطانهم الحالية ، وحسب القارىء نظرة يلقيا على خريطة توضح

تضاريس آسيا لكي يدرك وعورة هذا الطريق ، ويرى كثرة ما يلاقيه السالك من جبال وهضاب كانت في العصر الذي نتحدث عنه مغطاة بالثلوج ، لأننا إذا افترضنا أن هواء الهند كان معتدلاً في ذلك الوقت ، فلا بد أن نذكر مع هذا أن المنحدرات الشمالية كانت قارصة مغطاة بالجليد ، وآثاره واضحة إلى اليوم : وطريق خيبر لم يكن في الواقع صالحاً لأن يسلكه الإنسان الأول

وهكذا لا يبقى أمامنا سوى غرب آسيا إقليماً لنشوء الإنسان الأول ، وهو وحده الذي تتوفر فيه الصفات التي تتطلبها في الوطن الأول للإنسان ، فهو سهل الاتصال بالأقاليم المغولية ، وبالأقاليم الزنجية ، وبالجهات التي تعيش فيها السلالات السمراء والبيضاء من الجنس القوقازي ؛ وليس من الصعب أن نتصور خطوط الهجرة التي سلكها الإنسان من هنا إلى مختلف النواحي ، وقبل أن نكمل هذه الصورة وصفاً وإيضاحاً ، يجمل بنا أن نشير إلى أن هذا الوطن الأول في غرب آسيا لم يكن قطعة صغيرة محدودة من الأرض ، بل كان يمتد شمالاً من سهول تركستان إلى هضبة إيران إلى سهول دجلة والفرات وخليج العجم الذي كان أرضاً يابسة ، وإلى شمال جزيرة العرب وبادية الشام (التي لم تكن بادية بل سهلاً فسيحاً ذا مطر ونبات) . فالوطن الذي نحن في

ذكره يحده شمالاً سهول سيبيريا القارصة وبحر قزوين وجبال القوقاز ، وغرباً تحده جبال أرمينية ولبنان ، وشرقاً تحده هضبة الپامير وجبال سليمان ، ولكنه يمتد في الجنوب الشرقى حتى يبلغ بلاد السند إن لم يدخل فيها ، ومن الجنوب يستحيل تحديد هذا الوطن لأن معظم جزيرة العرب أو على الأقل نصفها الشمالى صالح لأن يكون جزءاً منه ، وهكذا نستطيع أن نضيق المدى ونحصر نشأة النوع البشرى في هذا الجزء من غرب آسيا ، ولا نستطيع أن نفلو فزید في تحديده وتضييقه وحصره في مساحة أصغر ، ولا يمكننا أن نختار جهة بالذات من جهات هذا الأقليم الواسع الفسيح الأرجاء ، فنخصها بأنها هي وحدها من دون النواحي جميعاً ، الوطن الذى نشأ فيه الإنسان فعلاً ، ولا بد لنا على الأقل أن نزداد علماً بآثار الإنسان الأول وبقاياه المختلفة في هذه الأقطار ، قبل أن نستطيع تضييق الدائرة وحصر الوطن الأول في مساحة أضيق وأدق مما وصفنا

في هذه المساحة إذن تطور النوع البشرى ، وتكون الإنسان الأول

ومن الممكن أن نقتفى أثر كل فرع من فروع النوع البشرى ، وأن تتبعه من موطنه الأول إلى الموطن الثانى والثالث وهلم جراً لنرى كيف انتشر الإنسان وعمر الأرض — على فرض أن

انتشاره فيها كان تعميراً لها — وكيف تكونت الأجناس المختلفة
في مواطنها الجديدة

وسنعود إلى الإشارة إلى هذا الموضوع في الفصل الآتي
بشيء من التفصيل . فلنكتف الآن بتلخيص ما ذكرناه في هذا
البحث من أن الوطن الأول لا بد أن يكون في قارة آسيا
للأسباب الآتية :

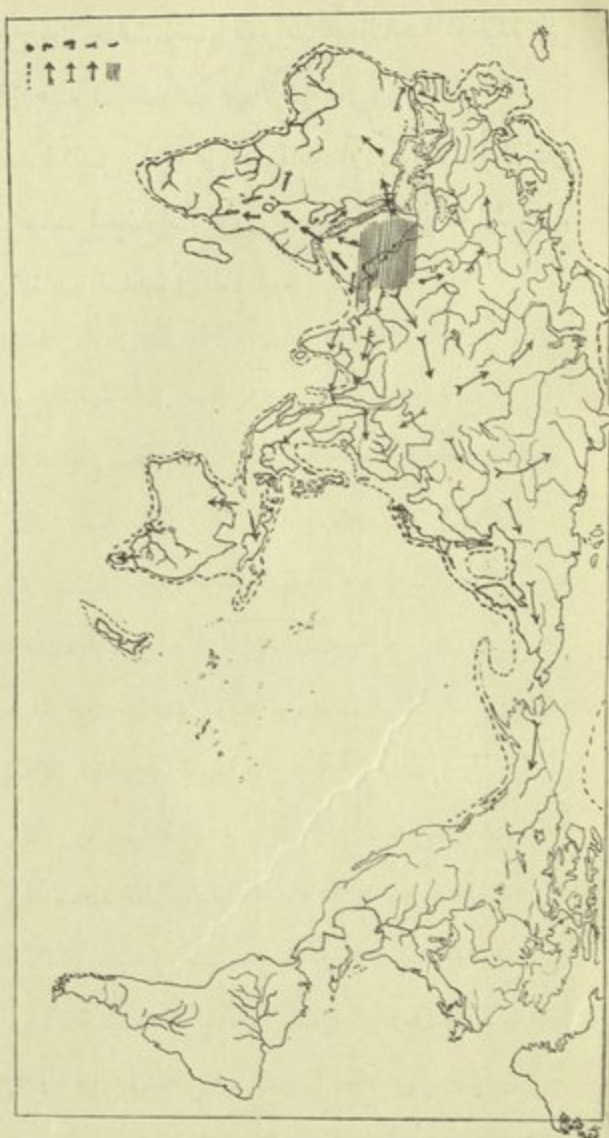
١ — لأننا لم نجد بين القارات الأخرى ما يصلح أن يكون
مهبطاً للنوع البشرى ، مستوفياً جميع الشروط التي ذكرناها

٢ — لأن آسيا هي القارة الوحيدة التي تمثل فيها اليوم جميع
السلالات البشرية المعروفة ، ومنها بعض سلالات ليس لها وجود
في أية قارة أخرى

٣ — لأنه لا يمكن أن يكون محض مصادفة أن أقدم بقايا
بشرية قد وجدت في جاوه أى في أطراف قارة آسيا

٤ — لأن آسيا هي القارة الوحيدة التي تمس جميع القارات
وتتصل بها جميعاً . فيسهل تصورها مركزاً تنبعث منه الحركات
البشرية

٥ — لأن حركة الجماعات البشرية في عصور التاريخ
وقبل التاريخ هي عادة من قارة آسيا إلى الجهات المجاورة
وليس بالعكس



- (شكل ١) — خريطة لبيان الوطن الأول وانتشار الانسان منه
- ١ — الوطن الأول — طريق الجنس الزنجي ٢ — طريق الجنس القوقازي
- ٣ — طريق الجنس الغربي ٤ — طريق الجنس القوقازي
- ٥ — حدود اليايس في زمان نشأة الانسان

ومن بين جهات آسيا قد رأينا أن الناحية الوحيدة التي
ترضينا في جميع الاعتبارات هي الأقليم الغربي
وبعد ! أليس كثيراً على إقليم واحد أن يكون منشأ الإنسان
الأول ، ومهد الحضارات الأولى ، ومنبع الديانات الشهيرة ،
ومصدر اللغات السائدة في العالم اليوم ؟

الفصل الثاني

الوطء التالى ، ونشوء الجنس

الأسئلة الكثيرة التى تنهت على المرء حين يفكر فى الإنسان : أى حين يفكر فى أمر نفسه ، أسئلة عديدة عويصة عميقة قد أحاطت بها ظلمات لا يشوبها قبس واحد من النور الإنسان . . . متى نشأ؟ . . . وكيف نشأ . . .؟ وهل وجد فجأة ما بين يوم وليلة بحيث غربت الشمس وليس على الأرض إنسان ، ثم طلعت وإذا الأرض فيها هذا الكائن العجيب ؟ أم كان نشوءه تدريجياً متسلسلاً حلقة بعد حلقة على مدى آلاف السنين ؟ ثم فى أية صورة كان هذا الإنسان الذى أخذ يدرج على سطح الأرض ؟ وهل له اليوم بين الناس شبيه ؟ أم كانت له صورة مختلفة وتقاطع مباينة لما عهدناه فى الناس ؟ هذه الأسئلة وغيرها مما يخطر لكل مفكر أسئلة عويصة ، وقد أشارت الديانات أيضاً إلى بعض هذه الأسئلة ، ولم يكن بد من أن تشير إليها ، أما البحث العلمى فقد تهيبها طويلاً ، حتى نشأ علم الأثروبولوجيا الحديث ، فجعل يخوض فيها ؛ ويدلى بآراء

واقتراضات . وجاءت جماعات من المرجفين الذين ليسوا من العلم ولا من الدين في شيء كثير ، فأثاروا الفتن بين الاثنين ، وهم أحياناً ممن ينتمون إلى الدين ، وطوراً ممن ينتمون إلى العلم ، وجعلت النظريات العلمية تبدو ثم تحفى ، وتنشأ اليوم لكي تقبر وتنسى في الغد . وليس من المبالغة في شيء أن يقال إن العلم لم ينته في هذه المسائل إلى أمور قاطعة ، بل ولا احتمالات راجحة يسهل السكون إليها ؛ ولعل أكبر خدمة أداها العلم إلى الآن هي أن أظهر هذه المسائل وأبرزها ، بحيث أصبحنا نعرف ما الذي نبحث عنه لعلنا نجده

وقد رأى القارىء كيف حاولنا في الفصل الماضى أن نجيب عن سؤال واحد من تلك الأسئلة ، فجعلنا نلتمس الطريق إلى الحقيقة وسط الظلام الدامس ، فرحين إذا ما صادفنا قبساً ضئيلاً ، أو شرارة حقيرة نسترشد بلمعائها القصير ، وضوءها الضئيل ، ومع هذا فما نستطيع أن نزعم أننا قد اهتدينا إلى الغاية التى نشدها ، وإنما وصلنا إلى المدى الذى أمكننا أن ننتهى إليه . ووقفنا فى الواقع بعيداً عن الغاية ، لانجروء على أن نزداد دنوا منها

ولسنا نريد فى هذه الفصول أن نتابع البحث فى الإجابة عن تلك الأسئلة العديدة واحداً واحداً ، فان غرض هذا الكتاب هو بحث الإنسان فى مختلف الأقطار اليوم بحثاً اجتماعياً

نرمى به إلى غرض عملي مقصود ، فلا نريد أن نشئت الذهن في مسائل عويصة ترجع إلى نشأة الإنسان الأول ، مكتفين بالإشارة إلى بعض الأمور الهامة في تاريخ الإنسان للدلالة على حالته في الوقت الحاضر

ومن أهم الأحوال البشرية الفقيرة إلى الشرح والتفسير اختلاف الشعوب والأجناس ، وبنوع خاص اختلافهم في الصور والأشكال ، وهذا الاختلاف له أثر كبير في حياتنا اليوم ؛ وقد يكون من الصعب أن نعلم كيف اختلفت الأجناس كل هذه الاختلافات إذا كان أصلها واحداً ونشأتها واحدة . ولكن صعوبة المسألة لاتمنعنا أن نعالجها

إن الرأي الذي أخذنا به هنا — وهو الرأي السائد بين الأنثروپولوجيين اليوم — أن للإنسان نشأة واحدة في إقليم واحد من سطح الأرض . ورأى الأقلية من الكتاب الذين بحثوا الموضوع أن الجنس المغولي كانت له نشأة خاصة في أواسط آسيا ، وأما الجنس الزنجي والقوقازي فلهما نشأة واحدة مستقلة والغلاة منهم لا يكتفون بهذا بل يجعلون للجنس الزنجي نشأته الخاصة ، وللقوقازي نشأته الخاصة ؛ وهؤلاء يزيدون المشكلة تعقيداً بأن يربطوا الجنس الزنجي بالغورلا ، والقوقازي بالشمبانزي ، والمغولي بالأورنج أوتان ، إلى غير ذلك من الآراء

الجامعة التي لا يدين بها اليوم شخص ذو شأن بين علماء الإنسان ومنهم من يرى أن الإنسان ليس نوعاً واحداً منقسماً إلى أجناس ، بل ثلاثة أنواع أو أكثر . فان قلت لهؤلاء إن جميع الأجناس البشرية تتناسل إذا تزاوجت ، قالوا : إن مجرد إمكان التناسل لا يجعل المتزاوجين من نوع واحد ! . . . على كل حال إن هذا هو اصطلاح علماء الحياة ، وإلى أن نجد ميزة أخرى تميز بها الأنواع ، لا بد لنا أن نقرر أن بنى الانسان من نوع واحد وليذكر القارىء أن معظم القائلين بهذه الآراء الشاذة هم من الملتزمين إلى الجنس القوقازي ، الذين وجدوا من الملائم أن يحتقروا سائر الأجناس ، وأن يروا لهؤلاء منزلة أوطأ من منزلة البيض ، وليس أفضل للدلالة على هذا من أن يعلنوا أنهم من نوع آخر غير سائر الأجناس . ولقد طالما تدخلت المسائل الشعوبية في علم الإنسان حتى طعنته في صميمه طعنات لم يفق منها إلى اليوم

والقارىء الذى يريد أن ينظر في تلك الآراء التي تقول بأن الإنسان أنواع مختلفة لانوع واحد ، يجب أن ينظر في الاختلافات التي تميز الأجناس الثلاثة الرئيسية ، وليحكم عقله بعد ذلك في هل هذه الاختلافات — في ذاتها — كافية لأن نخرج على

قواعد علم الحياة وتقرر أن الأجناس أنواع شتى
ماهى إذن الصفات الهامة لكل جنس من الأجناس الثلاثة
الرئيسية : الزنجى ، والمغولى ، والقوقازى ؟

أ كبر ماختلف فيه هذه الأجناس هو الشعر باتفاق الآراء :
فالزنجى شعره شديد التجعيد بحيث تلتوى كل شعرة على
نفسها التواء لولبيا ، وقد تتجمع طائفة من الشعرات ويبقى ماينها
خاليا فيكون مظهرها كحب الغفل . ومن هنا الوصف العربى
للشعر بأنه مغفل . فإذا فُحص القطاع المستعرض للشعرة الواحدة
تحت الميكروسكوب كان شكله كالشريط مبسطاً مما يسهل
التواء كل شعرة على نفسها

والمغولى على عكس الزنجى تماما من حيث صفات الشعر .
فشعره مستقيم طويل لا يلتوى ولا يتجعد ، خشن الملمس عادة ،
الرجل والمرأة سواء فى كثرة الشعر وطوله بينما الزنجى والزنجية
سواء فى قصر الشعر ، وتحت الميكروسكوب يكون قطاع الشعرة
المغولية على شكل يقرب من الدائرة

والذى يدهش أن المغولى والزنجى ، بعد هذا الاختلاف
كاه ، يتفقان فى أن كلا منهما قليل الشعر فى الوجه والجسد !
وهذا لا يرجع إلى لبس الثياب لأن الزنجى فى معظم الأحيان
لا يتخذ منها إلا القليل

أما الجنس القوقازى فذو شعر مموج ، ولو أمسكنا شعرة
بيننا فاننا نراها غير مستقيمة كشعر المغول ولا شديدة الالتواء
كشعر الزنج ، ولكنها وسط بين الاثنين ، وتحت الميكروسكوب
يرى قطاعها بيضيا . . . ومعظم — إن لم يكن جميع — أفراد
الجنس القوقازى لهم شعر كثير فى الوجه والجسد بخلاف الجنس
الآخرين

هذه هى حالة الأجناس عامة من حيث الاتفاق والاختلاف
فى شكل الشعر ، وهو الظاهرة التى أصبحت تعد فى المرتبة
الأولى من الأهمية فى تمييز الأجناس

أما الظاهرات الأخرى التى يميز بها جنس من جنس
فكثيرة منها شكل الرأس والوجه . وشكل القامة والأطراف
وشكل العين والأنف ، ولون البشرة والشعر والعين ، والآن
يراد إدخال عنصر جديد لتمييز الأجناس وهو الدم . وهذا العنصر
الأخير جديد جداً فى الميدان الاثنولوجى ، ولم تختمر الآراء فيه
بعد إلى أمر يستحق الركون إليه . والذين يعلقون عليه تلك
الآمال الكبار إنما يفعلون ذلك تألماً من نقص المقاييس الحالية
وعدم كفايتها لتمييز الأجناس ، والرغبة فى إيجاد شىء جديد
أكثر قوة وأجدر بأن يعتمد عليه ! فالرغبة هنا هى التى
ولدت الأمل

وليس في وسعنا هنا أن نبحث أو نحلل اختلاف الشعوب في كل من تلك العناصر الجنسية الهامة ، فإن هذا يحتاج إلى سفر خاص بدراسة اختلاف الأجناس ؛ ولكننا مع ذلك نشير إلى عنصر آخر — لا بد من ذكره — لأنه هو أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت العلماء يفكرون في احتمال أن للنوع البشري أكثر من نشأة واحدة ، ذلك العنصر الهام هو الذي أشرنا إليه في الفصل السابق وهو النسبة الرأسية : أي نسبة عرض الرأس إلى الطول ، وهي النسبة التي يعبر عنها بكسر مئوي ، فيقال إن النسبة الرأسية لجنس ما أول شعب ما تتراوح بين ٧٥ و ٨٠ (معتدل الرأس) أو تتراوح بين ٨٠ و ٩٠ (عريض الرأس) أو أقل من ٧٥ (طويل الرأس) وهلم جرا

ومن الممكن للإنسان العادي أن يلاحظ هذا الاختلاف بدرجة تقريبية في الأشخاص الذين يلقاهم ، ويكفي لهذا أن ينظر إلى وجوههم ، لأن الوجوه المستطيلة تصحبها عادة رؤوس مستطيلة والعريضة رؤوس عريضة

والأمر المشكل في مسألة النسبة الرأسية هو أننا لا نعرف تماماً أو سبباً يمكن أن يترتب عليه تغير في شكل الرأس . . من الجائز أن نتصور أن شعباً يعيش عيشة خاصة في بيئة خاصة وظروف طبيعية خاصة ويتناول غذاء خاصاً قد يكتسب عرضاً

في الرأس أو طولاً ، ولكننا لانعرف بعد ماتلك الظروف الطبيعية ولا تلك العيشة الخاصة ولا كيف تحدث أثرها هذا

لقد حاول علماء الأثرولوجيا — بشيء من النجاح — أن يشرحوا لنا كيف تحدث البيئة أثرها في كثير من خصائص الجسم البشرى ، فان كثيراً من هذه الخصائص لازم لنوع من البيئات ، والذين حرموها هذه الخصائص قد يهلكون على طريقة دارون في بقاء الصالح وفناء غير الصالح — أو يمتون هذه الخصائص على مدى الزمن على طريقة أتباع مذهب لامارك ، أو بأية صورة من الصور التي هي موضع جدال علماء التطور إلى اليوم وهكذا استطعنا أن نرى ، ولو بدرجة محدودة ، علاقة بين لون البشرة وأشعة الشمس ، وبين البيئة وطول القامة ، وبين طبيعة الإقليم ولون الشعر وشكل الأنف ، بل وشكل الشعر نفسه ! أما علاقة البيئة بالنسبة الرأسية فأمر لا يزال يحوطه شيء كثير من الغموض

والفكرة التي نريد أن نسلم بها هي أن النوع البشرى في أول عهده كانت له صفات جنسية مشتركة بين جميع الأفراد ، ثم ظهرت الاختلافات بسبب البعد عن الوطن الأصلي ، وانتقال جماعات إلى إقليم ، وجماعات أخرى إلى إقليم آخر مخالف له أو مشابه ، ومن الممكن بشيء من التسامح والإغضاء عن

التفاصيل والشذوذ أن نرى علاقة وارتباطاً بين البيئات الجديدة — الوطن الثاني — وبين الصفات الجديدة ، اللهم إلا صفة واحدة لا نعرف كيف تربطها بأية بيئة ، وهى شكل الرأس ، فان كل ما قيل فى هذا الصدد لا يمكن أن يشفى الغلة

لقد قيل مثلاً إن شكل الرأس قد اختلف فى إقليم دون آخر بسبب اختلاف مادة الغذاء ، ولكننا لا نعرف بعد كيف يؤثر الغذاء فى جعل الرأس مستديراً أو مستطيلاً

وقيل أيضاً إن النوع البشرى جعل يتقدم فأخذ حجم المنح ينمو ، وأن هذا النمو فى بعض الأحيان صادف الجهات الجانبية للرأس (فاستعرض الرأس) ، أو فى الجهات الأمامية والخلفية (فاستطال الرأس) ، ولكن طلبة علم الأجناس لا يستطيعون أن يقبلوا أن تكون صفة رئيسية للجسم مثل شكل الرأس نتيجة الصدفة المحضة

وذهب بعض الباحثين مذهباً أبعد ، فقضى بأن للرأس العريض علاقة بالبيئة الجبلية ، فالجنس الألبى والمغولى هما فى الأصل من سكان الجبال ، ومعيشة الجبال تسمى الأجزاء الجانبية للمنح ، والجمجمة تتشكل بشكل المنح ، وهذا الكلام ليس أكثر قوة وإقناعاً من سابقه ، واليوم يعيش فى سهول روسيا والصين وبلاد المغول وسهول فرنسا وألمانيا شعوب أكثرها ذات رأس عريض

وهكذا يرى القارىء أننا لم نصل إلى تفسير مرض
لاختلاف الشعوب في شكل الرأس ، خصوصاً أننا لا نعرف لشكل
الرأس أهمية خاصة أو فائدة خاصة في حياة الإنسان ، ولقد نكون
قريبين من تفسير يوضح لنا هذا المشكل ، ولكننا لا نحس بعد
هذا القرب ؛ ومما يبعدنا كثيراً عن حل هذه المعضلة أن يتقدم
إلينا كتاب بأقوال يزعمون فيها أن لذوى الرؤوس الطويلة نشأة
خاصة وتطوراً خاصاً ، ولذوى الرؤوس العريضة نشأة سواها
وتطوراً آخر

و بعد ، فهل شكل الرأس يميز جنساً من جنس أم يميز سلالة
عن سلالة وشعباً عن شعب في داخل الجنس الواحد ؟ إن في الجنس
الزنجي جماعات رأسها مستطيل جداً ولكن لبعضها رأساً متوسطاً ،
والقليلين رأساً أدنى إلى العرض منه إلى الطول

والجنس المغولى بلا شك يغلب فيه الرأس العريض ؛ ولكن
إذا نظرنا إلى سكان أمريكا الأصليين كفرع قديم لهذا الجنس
فاننا نرى بينهم ذوى الرؤوس الطويلة أيضاً . ثم الجنس القوقازى
الذى يظن أنه شديد التجانس يختلف من حيث شكل الرأس
اختلافاً هائلاً : فالجنس الألبى المنتشر في النصف الأوسط والشرقى
من أوروبا يغلب فيه الرأس العريض ، وأما الأجناس الشمالية
والجنوبية فيغلب فيها الرأس المستطيل . فمن الذى يجزئ أن يقول

إن سكان الجزء الشرقى والأوسط من فرنسا يختلفون فى النشأة والتكوين عن سكان الشمال والجنوب ؟

إن دراسة الأجناس لا تزال فى أول عهدها ، والآراء الجاحجة لن تقر بنا قيد شعرة من المنزلة التى نستطيع فيها أن نحل ولو جزءاً من المشكلات العديدة التى نواجهها ، وبالرغم من غموض كثير من المسائل ، وصعوبة تصور نشوء صفات جديدة لم يكن لها وجود بين الناس ، لا يزال الأدنى إلى العقل هو الرأى القائل بأن الإنسان نوع واحد نشأ فى إقليم واحد ، وكان أفراده متفقين — إلى درجة كبيرة — فى صفاتهم الجسدية ؛ ثم أخذوا ينتشرون من هذا الوطن الأول بالتدريج فى مختلف النواحي ؛

فانتقل فريق إلى الجنوب ،

وعاش هناك دهرآ ، واكتسب

فى الوطن الثانى صفات جديدة

تجعله أكثر صلاحاً للبيئة

الجنوبية التى هاجر إليها فيما

بعد فى جنوب آسيا الشرقى

وفى إفريقية حيث اكتسب

الجنس الزنجى صفاته الكاملة

ونزحت جماعات إلى



(شكل ٢)

زنجى قزم من أواسط إفريقية

الأطراف الشمالية الشرقية ، ولم تزل تتنقل حتى حلت في هضاب
أواسط آسيا وتركستان ، واكتسبت في هذه البيئة تلك الصفات
المعروفة التي تميز الجنس المغولي ، وقد نزع من هنا سلالات
ذهبت نحو الشمال الشرقي من آسيا ، ثم عبرت بوغاز (أو برزخ)
بهرنج ، مقتفية أثر الحيوانات التي تعيش من صيدها ، حتى نزلت
القارة المنعزلة التي أصبحت فيما بعد أمريكا



(شكل ٣) — صبي وولده من الجنس المغولي

والفرع الثالث الأكبر من أفرع الشجرة البشرية عاش
زمنًا في الجزء الأوسط من الوطن الأول ثم أخذ ينزع نحو الغرب ،
ثم نحو الجنوب الغربي والشمال الغربي على دفعات متعددة ؛
فأزلا في عدة أوطان جديدة ، فعبر برزخ السويس إلى إفريقيا

الشمالية ومنها إلى جنوب أوروبا ؛ واجتاز بوغاز باب المندب إلى شرق إفريقيا بعد أن عمر جزيرة العرب ، ثم سلك إلى أوروبا طريقاً شتى من الشرق ، بعضها عن بلاد الأناضول وبعضها عن طريق البحر المتوسط ،



وبعضها عن طريق الشمال ماراً بسهولة روسيا الجنوبية ، ونزحت منه سلالات نحو الهند وشرق آسيا في عدة أمواج يدفع بعضها بعضاً ؛ وهكذا تكون الجنس القوقازي في الوطن الأول ،

ولعله أقام به زمناً طويلاً (شكل ٤) — بدوى من أهل مصر (مثال الجنس القوقازي)

قبل ذهابه إلى أوطانه الجديدة التي تكونت فيه سلالاته الجديدة

هذا وصف مقتضب لحالة النوع البشري من حيث النشأة وتكون الأجناس الثلاثة الرئيسية في مواطنها الجديدة ، وهناك سلالات قلائل لا نستطيع أن ندمجها في هذه السلالات الرئيسية ، وإن أمكن أن نلحقها ببعضها . فهناك مثلاً الجنس الأسترالي الذي يختلف عن الزنوج لأن شعره موج وليس بمجعد ، ويختلف (٤ — ك)

عن القوقازيين في أن تقاطيع الوجه تقر به من الزنوج ؛ وهناك أيضاً جنس البشمان في فيافي إفريقيا الجنوبية ، وهو سلالة ممتازة ببعض الصفات التي يختلف بها عن الزنج ، ولا بد لنا أن نعهده سلالة منفصلة .

وهناك الأقزام المنتشرون في غابات إفريقيا الوسطى وفي بعض غابات آسيا الكثيفة أو جزرها المنعزلة . وهذه الأجناس جميعاً تتفق في أنها تعيش في أطراف العالم كأنها طريدة ، أو في جهات يتعذر الوصول إليها كأنما أرادت أن تعتصم بها ، وهذا كله يدل على قدم هذه الأجناس ، وأنها سبقت إلى هذه المواطن



(شكل ٥)

إلى اليمين : جمجمة استرالي ، وإلى اليسار : جمجمة انسان نياندرتال .
جميع السلالات ، وليس بعيد أن تكون من أول الجماعات التي غادرت الوطن الأول حاملة معها بعض الصفات — أو كل الصفات — التي اتصف بها الإنسان الأول ؛ أي يمكن أن يكون الجنس الاسترالي هو أدنى السلالات إلى الإنسان الأول ؟ إن

بعض الكتاب يؤكد لنا أن هنالك تشابهاً مذهماً بين جمجمة إنسان نياندرتال وبين جمجمة الأسترالى

وقد نزع الأسترالى إلى وطنه الحالى منذ أمد بعيد جداً ، وعاش فى عزلة تامة لم يتصل بعدها بالشعوب التى نشأت فى جنوب آسيا ذات الثقافة الممتازة ؛ ولذلك كان فى حالة الفطرة الأولى ، حتى دأبه البيض ، قتلوا من تلك السلالة الثمينة من قتلوا ، وشردوا من شرودوا ، ولم يبق منه إلا بقية لا يتجاوز عدد أفرادها ٧٥,٠٠٠ وهى مشرفة على الزوال لسوء الحظ



بقى سؤال يعرض للمرء ولا بد من إعارته شيئاً من الاهتمام ، وهو إذا كانت الاختلافات الجنسية أموراً مستحدثة فى البيئات الحديثة (الوطن الثانى) فلماذا لا نرى اليوم صفات جديدة تنشأ

بين الأجناس الحالية ، (شكل ٦) — رجل من شمال أستراليا فتحديث فروقاً جديدة ، حينما تنزع جماعات إلى مواطن جديدة

كما نزع القوقازيون إلى أمريكا مثلاً ؟ وإلا فهل تبقى الصفات
التي اكتسبت في الوطن الثاني ثابتة مع أن الصفات الأولى
قد تغيرت ؟

ليس من شك في أنه إذا كان من طبع الإنسان أن يتأثر
بالبيئة تأثراً يظهر في صفاته الجسمية ؛ فمن الصعب أن تتصور أن
الإنسان قد فقد ذلك الطبع ، وأن الصفات التي اكتسبت في
فترة ما أصبحت غير قابلة للتعديل . الأقرب إلى المعقول أن نظن
أن ذلك الطبع لم يتغير كثيراً ، وأن نشوء صفات جديدة للإنسان
ليس أمراً مستحيلاً إذا دعت إليه ظروف طبيعية جديدة .
ولكن من الواجب أيضاً أن نعلم بأن الإنسان بعد أن قطع في
رقبه أو تطوره شوطاً كبيراً أصبح أكثر مقاومة للعوامل
الطبيعية ، وأقدر على التحكم في موارد الطبيعة ، وعلى إخضاع
قواها لمقتضيات راحته وسعادته . فالإنسان الذي يعيش على الفطرة
أكثر خضوعاً لقوانين الطبيعة ، وأكثر عرضة للمؤثرات
الطبيعية . أما الإنسان الذي سار شوطاً بعيداً فيما نسميه الحضارة ،
فقد اكتسب مقدرة على مقاومة وتسخير قوى الطبيعة بدلاً من
أن يكون تحت رحمتها

وهناك أمر آخر ، وهو أن الإنسان بعد أن ساقه السير
والترحال إلى وطنه (الثاني) اضطرت له ظروف خاصة إلى أن ينزع

في هذا الوطن الثاني دهرًا لا يستطيع أن يبرحه ، وإن تحرك وانتقل في داخل هذا الحيز الضيق نسبيًا . فاكسب بطول الإقامة في بيئة محدودة صفات رسخت وثبتت ، بحيث إن تغيير كثيرًا بتغير الموطن بعد ذلك . إن الزوج قد اختطفوا من غابات إفريقية وبيعوا رقيقًا في أمريكا حيث يعيش اليوم منهم بضعة عشر مليونًا ؛ اختلط بعضهم بالبيض فتولد من هذا الاختلاط خالسيون ، وهذا أمر مفهوم ، ولكن كثيرًا منهم لا يزالون على أصلهم لم يختلطوا بالبيض ، ولم تؤثر البيئة الجديدة في شكولهم وصورهم تأثيرًا محسوسًا . وكذلك البيض الذين نزحوا إلى أمريكا ، قد تغيرت أشكالهم بالتزاوج ، لأنهم من سلالات مختلفة ، ولكننا نعرف بعد — معرفة اليقين — أن البيئة الجديدة في مدى بضع مئات من السنين قد غيرت في شكولهم وصورتهم من الممكن أنه لم يمض بعد الزمن الكافي لكي تقضى في الموضوع برأى صريح ؛ ولكن على فرض أن زمنًا طويلا سيمضي على هذه البلاد الأمريكية وعلى احتلال البيض لها ؛ فمن الذي يستطيع أن يحكم بعد قرون عديدة أن الاختلافات التي تظهر هي نتيجة التزاوج (الوراثة) أو تأثير البيئة الجديدة ؟ إن الذي يستطيع أن يدلي في هذا الأمر برأى لجريء حقا الخلاصة أن تأثر الإنسان بالبيئة الجديدة بحيث يظهر هذا

الأثر في تطور جثاني جديد أمر لا يزال ممكناً ، أو على الأقل لا نستطيع أن ننكر احتمال وقوعه ؛ ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن هذا الأثر هو أقل بكثير اليوم مما كان عليه في عهد نشأة الإنسان ، والتطور الشكلي للسلاسل في المستقبل سيكون في الغالب نتيجة الانتخاب والوراثة

هذه خلاصة مقتضبة أردنا أن نشرح بها نشوء الأجناس البشرية استكمالاً للصورة التي أوضحناها في الفصل السابق ، ولن يتسع المجال هنا لبحث مطول في الأجناس البشرية ، لأن الغرض الأول الذي ننشده هنا هو حالة الإنسان الاجتماعية في مختلف الأقطار ، وبنوع خاص من حيث الكثرة وأسلوب الحياة عند السكان . وهذا ما سنعالجه في الفصول الآتية

الفصل الثالث

انتشار السطار ونموهم

رأينا مما تقدم أن بنى الإنسان ، مهما اختلفت ألوانهم ، وتعددت أشكالهم ، نوع واحد ، تربطهم جميعاً أواصر القرابة ، ويرجعون جميعاً إلى عنصر واحد . وأن ليس اختلاف الأجناس والشعوب سوى مظاهر موضعية ولدها بعد الشقة ، وانفصال الأخ عن أخيه ، وابتعاد الفرع عن الجذع ، ونزوله في دار غير التى درج فيها تحت حكم بيئة جديدة ، أكسبته لوناً جديد أو شكلاً جسدياً مستحدثاً ، لازمه على مضى القرون ، فتولدت سلالات بينها فروق عرضية وجوهر الجميع واحد

وإذا تأملنا فى هذا النوع الذى ننتمى إليه جميعاً ، ونظرنا إلى الحياة التى يعيشها على أديم هذه الأرض ، وإلى أشكالها ومناحيها المتعددة ، وإلى انتشاره فى أرجائها وانتفاعه بمواردها ، ألفينا له ميزة يمتاز بها على سائر الكائنات ، وهى أنه أوسعها على الفناء انتشاراً ، لم يحل بينه وبين السعى فى الأرض حائل ، حتى جاب أطرافها جميعاً ، وسلك طرقها جميعاً ؛ ويكاد ألا يكون له

بين الكائنات في هذا نظير . إن كل نوع من الكائنات : من حيوان أو نبات : مما يسبح في الماء ، أو يحلق في الهواء أو يدب على أديم الثرى ، أو يزحف على بطنه ، كل نوع منها منحصر في إقليم محدود ، ودائرة مرسومة لا يعدوها ؛ فإن خرج عن هذه الدائرة أهلكه البعد عن موطنه ، أو عاش عليلاً سقيماً لا يلبث أن تذهب ريحه ويخبو سراحه . فلن ترى نبات الاقليم الحار نابتاً في موطن قليل الحرارة ، ولا ترى شجرة الكرم إلا في مناخ معتدل ، وحشيشة الأرز لن تنمو إلا حيث الحرارة والماء الغزير . وعبثاً نحاول زراعة البن على ضفاف السين ، أو النخيل على سواحل البحر الباطي ، أو الحنطة حيث يجري الأمازون . وكذلك لن ترى الدب القطبي يرح وسط الغابات الاستوائية ، ولا التمساح يسبح في مياه الإلب . لأن لكل من هذه الكائنات إقليماً محدوداً لا تعدوه ، وبيئة صالحة لحياتها ونموها . فانتشار كل منها على سطح الأرض لا يعدو تلك المنطقة التي تلائمها هواء وتربة . أما النوع البشرى فقد وجد لنفسه في فسيح الأرض مضطرباً ومجالاً ! فلم يستقر في إقليم واحد ، ولم يعتكف في بيئة واحدة ، وله مقدرة هائلة على الاحتيال للبيئات : يلبس لكل بيئة لبوسها ، ويلائم قدر الطاقة بين حياته وبين مقتضيات الاقليم الذي اختاره مسكناً ووطناً . فتراه في الأقطار النائية القطبية ،

التي لا يكاد ينحجب عنها الجليد سوى أشهر قلائل من كل عام ،
نراه وقد التمس أسباب الحياة فيها ، فاستطاع أن يجد بها بغيته ،
وتسنى له أن يتخذها موطناً دائماً . ونراه تحت هجير الشمس المتقد
وسط الصحراء المحدبة ، قد استطاع أن يجوب أطرافها ويحترق
فيافها ، بل ويصيب فيها طعاماً وشراباً ومسكناً ، وهو هنالك
راض بعيش البادية لا يريد منها بديلاً . ونراه كذلك وسط
الغابات الكثيفة في الأقاليم الاستوائية ، يبذل جهداً عظيماً ليجمع
لنفسه منها مأوى ومستقراً . وقد وفق توفيقاً ليس بالقليل ، إلى
بلوغ حتى هذا الغرض الشاق

لقد ولع هذا الكائن منذ نشأته بالحركة والتجول ، فأتخذ
الأرض كلها داراً يجوب أطرافها ، ويعبر بحارها ويحتاز جبالها ،
ويطوى سهلها وحزنها . فلم يبق من اليأس جزء لم يستعمره اللهم
إلا الأطراف القطبية ، التي لا يزورها إلا مرتاداً أو مستكشفاً أو
مجازفاً ، وفيما عداها نرى النوع البشري قد استوطن الأقاليم
جميعاً . . .

على أن الإنسان لم يُقبل على سكنى جميع الأقطار بدرجة
واحدة ؛ بل إنه دخل بعض الأقطار مكرهاً وأقام بها كارهاً ،
وفي بعضها قد وجد الرزق ميسوراً والعيش رغداً ، فطاب له أن
يقيم بها وأن يعمرها . ولم يلبث حتى تزايد فيها عدده واحتشدت

بها جموعه ، حتى لتضيق بهم البلاد على رحبها
فالنوع البشرى موزع على سطح الأرض توزيعاً غير مطرد
ولا منتظم ؛ فهناك أقطار تغصّ بمن فيها ، لم يبق فيها موضع
للساكن جديد ؛ وأقطار سكانها مبعثرون في أرجائها ، أكثرها
خلاء من الناس ، وهناك أقطار وسط بين هذا وذاك ، أهلها
لا يشكون الكثرة ولا القلة . وهذا التباين الكبير في توزيع
النوع البشرى على سطح الأرض ظاهرة من أهم الظواهرات ،
التي تتطلب البحث الوافي ، لكي تبين علة هذا الاختلاف العظيم
بين توزيع السكان في مختلف الجهات والأقاليم

إن العلاقة المتينة بين الإنسان والبيئة هي أول ما ينظر ببالنا ،
وأول شيء ننظر إليه ، لنحاول بواسطة تحليل توزيع السكان
على سطح الأرض . غير أننا لا نلبث أن نذكر أن هنالك أقاليم
لم تتغير طبيعتها ، ومع ذلك قد تغير سكانها كثرة أو قلة . وما
علينا إلا أن نقارن حالة أمريكا قبل استكشافها وحالتها اليوم ،
أو أن نقارن بين ازدهام أوروبا وقلة ازدهام الولايات المتحدة مع
اتفاق المساحة ، وغنى الموارد الطبيعية في كلا الحالين ؛ أو ننظر إلى
سكان حوض النيل الأدنى ، وسهول دجلة والفرات في مختلف
العصور ، وتقلبهم بين الزيادة والنقصان . ما علينا إلا أن ننظر إلى
هذا كله ، لنرى أن بحث هذا الموضوع لا يشفى الغلة منه أن

نعتل بالبيئة فحسب ، بل لابد من المضي في زيادة البحث والتحليل

وقد يكون من النافع أن نبدأ بحثنا هذا باستعراض موجز لحالة السكان في مختلف العصور التي مرت بالإنسان ، لنرى درجة الكثافة في كل عصر ، وتدرجها في الزيادة منذ أول عهد الإنسان بعارة الأرض . حقيقة إن النمو لم يكن مطرداً لو نظرنا إليه نظرة محدودة ، ولكنه مطرد بلا شك إذا نظرنا إليه نظرة عامة شاملة لسائر العصور

ليس في وسعنا أن نرجع بتاريخ الإنسان إلى أبعد من العصر الحجري ، ولا حاجة بنا — من أجل بحثنا هذا — إلى الرجوع إلى ما قبل ذلك العصر . في ذلك العهد كان الإنسان يحترف الصيد ، يقضى جل وقته في البحث وراء الفريسة يتعقبها من مكان إلى مكان حتى يظفر بها ، ويؤوب حاملاً إياها إلى المكان الذي ترك فيه زوجه وولده ، وهذا المكان قد يكون بالعراء أو تحت شجرة ، إذا كان الهواء معتدلاً دافئاً ؛ أما إذا كان الهواء قاسياً بارداً فإنه يعتصم بالكهوف والغيان ، التي ربما اغتصبها من السباع التي كانت تسكنها قبله ، لأنه في ذلك الوقت كان عاجزاً عن بناء مسكن يؤويه ؛ أو لم يبلغ بعد من العلم ما به يبتكر صناعة البناء

في مثل هذه الحال كان الإنسان مستهلكاً ، ولم يكن منتجاً لمادة غذائه ، لم يكن بيده حيلة يحتال بها على ازدياد الصيد والاكثر من الحيوان ، كان جل همه قتل الحيوان وإهلاكه ، ولولا أن الطبيعة تجدد من تلقاء نفسها عوضاً مما يهلكه ، لفنى الصيد وهلك الصائد . فكان الإنسان في ذلك العصر تحت رحمة المصادفات : إذا كثر الصيد لسبب ما عاش عيشة راضية ، وإذا نقص الصيد عاش في فاقة وفي ضنك . وعلى مضي الزمان تعلم الإنسان كيف يصنع من الصوان ومن عظام الحيوان ومن قروونه آلات حادة من رماح وسهام وما إلى ذلك . فاستطاع أن يزيد في مقدار الصيد ؛ ومن غير شك قد ازداد الناس تبعاً لازدياد مقادير اللحم التي استطاعوا أن يحصلوا عليها . على أن حرفة الصيد لا يمكن أن تساعد على ازدياد السكان ازدياداً كثيراً ، لأن الصيد مبعثر في مساحة عظيمة من الأرض . ولا بد للأسرة الواحدة من أرض فسيحة جداً تنشد فيها من الصيد ما يكفي قوتها على مدى السنين . ولهذا كان الناس يعيشون كما يعيشون اليوم في الجهات التي يقات أهلها من الصيد فقط — أسراً منفردة ، أو جماعات قليلة جداً مبعثرة في مساحات واسعة

وكانت الخطوة الثانية التي خطاها الإنسان نحو العمران —

والعمران هنا مرادف ازدياد السكان — أن اهتدى إلى استئناس الحيوان . وكان أول حيوان ألف الإنسان ولازمه هو الكلب ، لأن الإنسان كان صياداً ، وليس أنفع للصيد من الكلب الذى هو أشد من الإنسان عدواً وأمضى حواساً ، وأقدر على تعقب الفريسة وتتبعها إلى جحور ومسالك لا يستطيع أن يلحقها الإنسان . كذلك كان الصياد خير صديق للكلب ، لأنه كان يلتقى إليه بعظام قد لا تخلو من القليل من اللحم ، ومن ذلك الحين لازم الإنسان ملازمة الظل ، وأصبح لا يهنا له العيش إلا فى صحبته ، وكان بينهما تعاون وثيق فى مطاردة الصيد ، وبعد الحصول على الفريسة كان للإنسان نصيبه والكلب نصيبه . وظاهر جد مما بين الكلب والإنسان من ألفة ومودة أن الصداقة بينهما قديمة جداً : حتى أصبح الكلب اليوم — بخلاف الكثير من الحيوانات المستأنسة — لا يرغب فى العودة إلى الحياة الوحشية ، ولا ينعم إلا فى جوار الإنسان

ولم يلبث الإنسان أن تعلم كيف يستأنس أنواعاً أخرى من الحيوان ، وأصبح راعياً يعيش من نتاج ماشيته . وفى حرفته الجديدة قد سار على سنة مخالفة تماماً لسنة أجداده الصيادين ، لأن هؤلاء كان دأبهم قتل الحيوان ؛ وأما الراعى فكان دأبه المحافظة عليه ورعايته ، والسعى إلى الاكثار منه ، والاكتفاء

بألبانه غذاء ؛ وبالقليل جداً من لحومه ، وكان في هذا المورد الجديد ما يكفي لتغذية جماعات من الناس تفوق كثيراً جماعات الصيادين . فشهد العالم زيادة كبيرة في السكان ، وكذلك كان الاهتمام بالقطيع و بالدفاع عنه عاملاً في توحيد الكلمة وائتلاف الجماعة ، وخضوعها لنظام ولرئيس يقودها ؛ فكان هذه الحرفة الجديدة دفعت الإنسان خطوة أخرى في سلم الرقي الاجتماعي كما ضمنت له مورداً أوفر وأكثر ضماناً من مورده السابق . وللمرة الأولى أصبح الإنسان منتجاً ومستهلكاً . حقيقة إنه لم يكن قادراً على أن ينتج الماشية ويوجد لها من العدم ، لكنه استطاع برعايته لها وعنايته بها أن يزيد في نسلها وفي عددها ، وهذا بلا شك ضرب من الانتاج يجب ألا ننجاهده . على أن حرفة الرعي تتطلب مساحة واسعة من الأرض لكي يتوافر فيها المرعى في مختلف الفصول ، وأصحابها مضطرون للتنقل طلباً للسكلاً . ولهذا لا يمكن أن يزداد السكان ازدياداً عظيماً إذا لم تكن لهم حرفة سوى الرعي

وفي أول العصر الحجري الحديث ، أو في آخر العصر الحجري القديم ، اهتمدى الإنسان إلى اختراع جديد يعد أجل المخترعات جميعاً ، وأكبرها أثراً في حياته ، وليس في تاريخ الإنسان كله

شئ كان له من الأثر العميق في تطور العمران ما لذلك الابتكار الخطير : وهو اختراع الزراعة . . . وقد أدلى بعض الكتاب بآراء مبنية على محض الظن والحدس في كيفية وصول الإنسان إلى هذا الاختراع العظيم ، ولا حاجة بنا إلى ذكرها . . . وإنما يهمنا هنا أن نقرر ما كان له من الأثر الجليل في عمارة العالم . فقد كان الإنسان قبل ذلك معتمداً على الصيد أو نتاج الماشية ؛ وليس في هذين — مهما كثر الصيد ، ومهما كبرت القطعان — غناء كبير ، ولا يمكن أن تقوم بأود جماعات كبيرة . أما الزراعة فمورد متجدد ، ونتاجها عظيم يسد حاجة العدد الكبير من الناس ، والمساحة الصغيرة من الأرض تكفي لتغذية أسرات عديدة ، وليس الناس هنا تحت رحمة صيد يكثر أو يقل ، وماشية قد تنفق بوباء أو كارثة ، بل جل اعتمادهم على جهدهم وكدهم ، والكوارث التي قد تتعرض لها الزراعة أقل كثيراً مما قد يصيب الصيد والماشية . فإذ الغذاء للزراع مضمونة بضمان أقوى ، ووافرة جداً إذا قيسَت إلى الموارد الأولى

كذلك كانت الزراعة من ناحية أخرى باعثاً على العمران . ذلك أنها كانت دافعة للإنسان إلى الإقامة والاستقرار ، بدلاً من السعي والتجوال ، فالزمته البقاء على مقربة من زرعه ؛ فنشأت بينه وبين التربة التي يزرعها علاقة قوية ، فأصبح له موطن

يألفه ، ولا يريد أو لا يستطيع أن ينأى عنه ، وبات له منزل يأوى إليه ، وجيران يعاشرهم . وساعدته وفرة الغذاء على التفكير فى شىء آخر غير مجرد الغذاء ، فأخذ يتقدم فيما نسميه ثقافة ، وأصبح قادراً على أن يدخر فى منزله أثاثاً وتحفاً ، لم يكن قادراً على صنعها من قبل حين كان كثير التنقل والترحل . فأصبحت له ديار ومنازل قديمة متينة ، ثم نشأت قرى صغيرة وكبيرة . ثم كانت ما نسميه عمران وحضارة وازدياد فى السكان ، وقيام حكومات لتنظيم هذه الحياة الجديدة المعقدة ، وتكوين دول فى جهات مثل حوض النيل وسهول دجلة والفرات وفى غيرها من الأقطار . . .

إذن لقد كانت زيادة السكان تتمشى باطراد مع تقدم الإنسان فى مراتب الثقافة ؛ ومن مستلزمات هذا التقدم ازدياد مقدرته على الانتاج ، ووفرة الغلات اللازمة لحياة النوع البشرى ، وأصبح من الممكن لعدد محدود من أعضاء المجتمع أن يتفرغوا لإنتاج هذه الغلات ، بينما ينصرف باقى أعضائه إلى نواح أخرى من النشاط كالصناعات والحرف الدقيقة ، والأعمال الفنية وما يشبهها من الأمور التى يتألف منها ومن نتائجها ما نسميه اليوم مدنية وحضارة .

هذا التطور التاريخي في زيادة السكان له نظيره في وقتنا هذا ؛ فان بعض الأقطار لا تزال تعيش من الصيد ، وأخرى يعيش أهلها من الرعى ، وبلاد تعنى بالزراعة البسيطة ، وأخرى بالزراعة الراقية ؛ ولن تناول هذه الجماعات المعاصرة بالوصف لأننا قد أفردنا لها الفصل السادس من هذا الكتاب حيث نتكلم على الحرفة وعلاقتها بتوزيع السكان في الوقت الحاضر . وإنما كان غرضنا هنا أن نتبع نمو سكان هذا الكوكب منذ نشأة الإنسان إلى وقتنا هذا . . وقد رأينا أن حرفة الزراعة وما ترتب عليها بعد ذلك من تقدم التجارة والصناعة كل هذا له الفضل الأكبر في نمو السكان وازديادهم

على أن الجزء المنزوع من سطح الأرض لا يكاد يعدو سدس مساحة اليابس منه ، ولهذا كان التباين عظيماً بين كثرة السكان في بعض الجهات والبعض الآخر . ولقد تساؤل هل ضالة هذا الجزء المنزوع بالنسبة إلى مساحة الأرض ترجع إلى أن الجزء الأكبر من سطحها غير صالح للزراعة ، أم لأن الإنسان نفسه هو المقصر فلم يقيم بما يجب عليه من استغلال الأرض إلى أقصى حد ممكن ؟ وسنرى فيما يلي أن الحقيقة أمر وسط بين هذين الاحتمالين ، وليست راجعة إلى واحد منهما

على كل حال قد وضح مما قدمنا أن هنالك علاقة ملموسة

بين عدد السكان ودرجة الانتاج ، فيزداد الناس بازدياد الانتاج (بحسن استغلال موارد الثروة) ، ويقل السكان عادة حيث يقل الانتاج سواء أكانت هذه القلة نتيجة لطبيعة البيئة الشحيحة الضئيلة كما هي الحال في الصحراء ، أم لتقصير السكان وجهلهم طرق الاستغلال كما كانت الحال في أمريكا قبل كشفها^(١)

على أن زيادة السكان قد لا يصحبها زيادة في الانتاج ، بل يصحبها انحطاط عام في مستوى الحياة ، فيعيش عشرة أفراد مما كان يعيش به خمسة أو ستة . وبالعكس قد يزداد الانتاج ولا يزداد السكان بنسبة هذه الزيادة ، بل يرتفع مستوى الحياة فيما بينهم ويزداد دخل كل فرد ، وستأتي أمثلة كثيرة لهذين الحالين في عرض الكلام على سكان الأقطار المختلفة . ولكننا مع التسليم بصحة هذين الاحتمالين بل بوجود هذين الحالين فعلا ، فإن هنالك — بوجه عام — علاقة بين الانتاج والسكان ؛ فالجهات القليلة السكان هي بوجه عام الجهات القليلة الانتاج ؛ والبلاد الكثيرة السكان هي بوجه عام الجهات الكثيرة الانتاج

لكن تقرير هذه الحقيقة ، أى العلاقة بين الانتاج وعدد

(١) سكان أمريكا الشمالية من شمال نهر ريو جراند الى الأطراف القطبية ، كانوا يعيشون من الصيد وقت كشف أمريكا ، ولا يمكن أن يزيد عدد سكان القارة في ذلك الزمن عن مليونين

السكان ، يحتاج إلى تقرير أمور أخرى . وهي العوامل الباعثة على زيادة الانتاج في قطر دون قطر ، وفي إقليم دون إقليم آخر ، وفي ناحية من بلد دون الناحية الأخرى . وإذا كانت للانتاج بعض الارتباط بالبيئة ، فالواجب أن نبدأ بتحليل الظواهر الطبيعية لنرى أيها أكثر علاقة بظاهرة الانتاج وكثافة السكان . وهنا يكون لوجهة النظر الجغرافية المكان الأول في شرح توزيع الظواهر الطبيعية ، ودراسة ما بينها وبين توزيع السكان من علاقة

* * *

إن سكان الأرض قد نموا نمواً عظيماً . وفي وسعنا اليوم بفضل الإحصاءات التي تنشرها الدول أن نقدر سكان الأرض من بنى الإنسان إلى درجة قريبة جداً من الصواب . فان ثلثي سطح الأرض خاضع لنفوذ دول تُعنى بعمل إحصاء دقيق منظم لسكان الأقطار التي تسيطر عليها ، والثالث الباقي مقدر تقديراً تقريبياً ليس ببعيد عن الحقيقة . وفي الجدول الآتي بيان لسكان العالم في مختلف القارات في المدة الأخيرة

القارة	المساحة بالايال البرية	السكان سنة ١٩٢٦	السكان سنة ١٩٣٢	الكثافة بالنسبة للمل الربع
أوربا	٣٧٠٠٠	٤٦٧١٠٠٠	٥١٤٠٠٠	١٢٦ر٢
أمريكا شمالية وجنوبية	١٦٣٠٠٠	٤٣٣٠٦٠٠	٢٥٩٠٠٠	١٣ر٠
أفريقية	١١٠٠٠	١٣٨٢٥٠٠	١٤٤٣٠٠	١٢ر٤
آسيا	١٧٠٠٨	١٠٣٢٠٠	١١٣٠٠٠	٦٠ر٦
الأوقيانوسية	٣٢٩٩	٨٧٦٧٠٠	١٠٠٠٠	٢ر٦
الأراضي القطبية حول القطب الجنوبي	٨٩٠	—	—	—
العالم	١٣٠٠٠	١٨٨٠٠٠	٢٠٠٠٠	٣٣ر٢

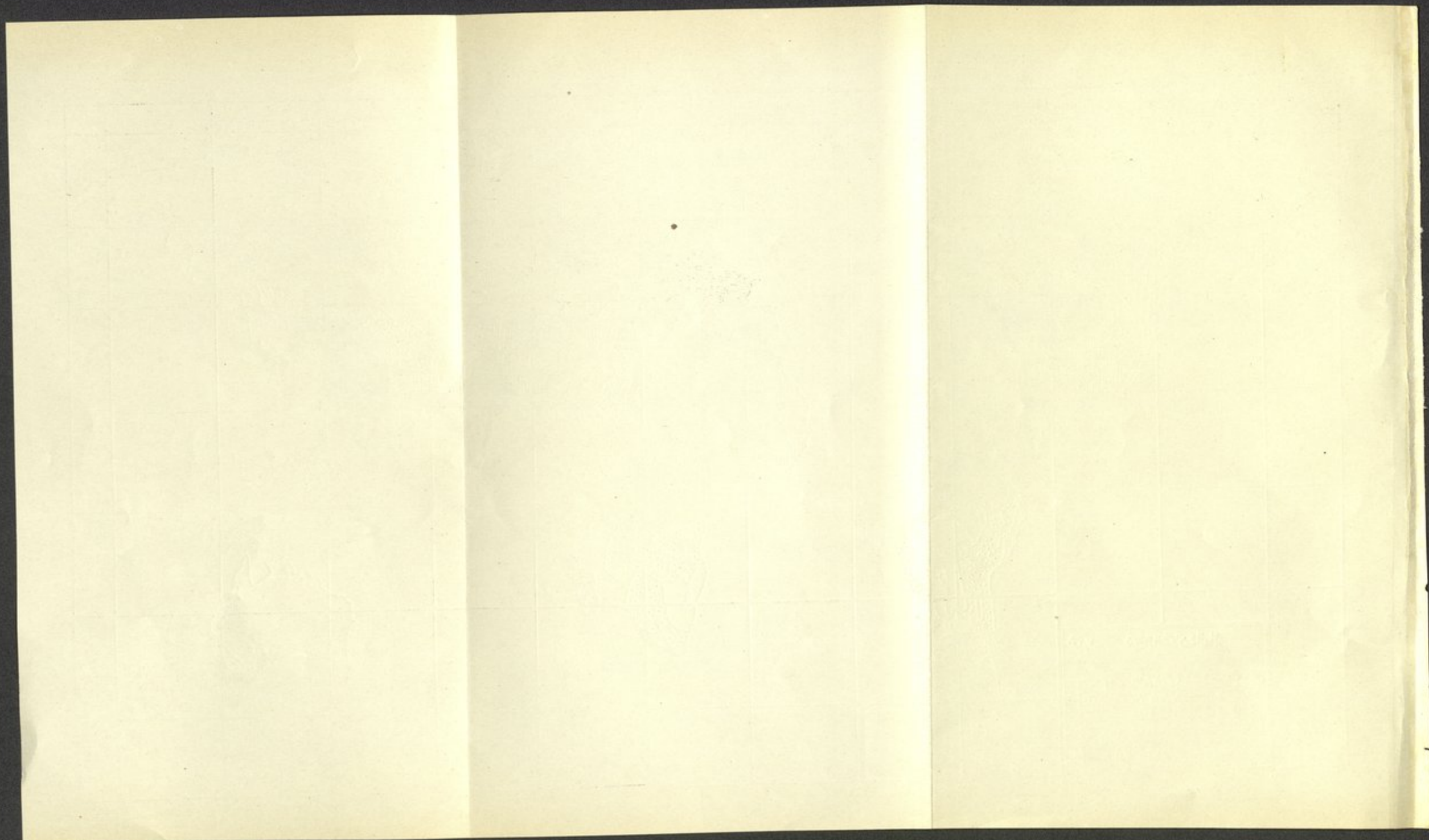
على أن توزيع السكان على هذه الصورة بين مختلف القارات لا يعبر عن حقيقة توزيع السكان في مختلف الأقاليم ، وإنما يشير إلى كثرة السكان في كل قارة بصفة عامة . ويكفي دلالة على هذا أن يلقى الإنسان نظرة على خريطة توزيع السكان لقارة مثل آسيا ، ليرى أن الشطر الأعظم من هذه القارة يكاد يكون خلواً من السكان ؛ بينما هذه الملايين العديدة قد احتشدت في جزء صغير من القارة يوشك أن يخنق بمن فيه ، فإن الناس قد تكالبوا على آسيا الجنوبية والشرقية وهجروا وسطها وشمالها وغربها ، حتى قيل في هذه القارة إنها كعباءة الشحاذ فقراً لكن لها حافة من الذهب

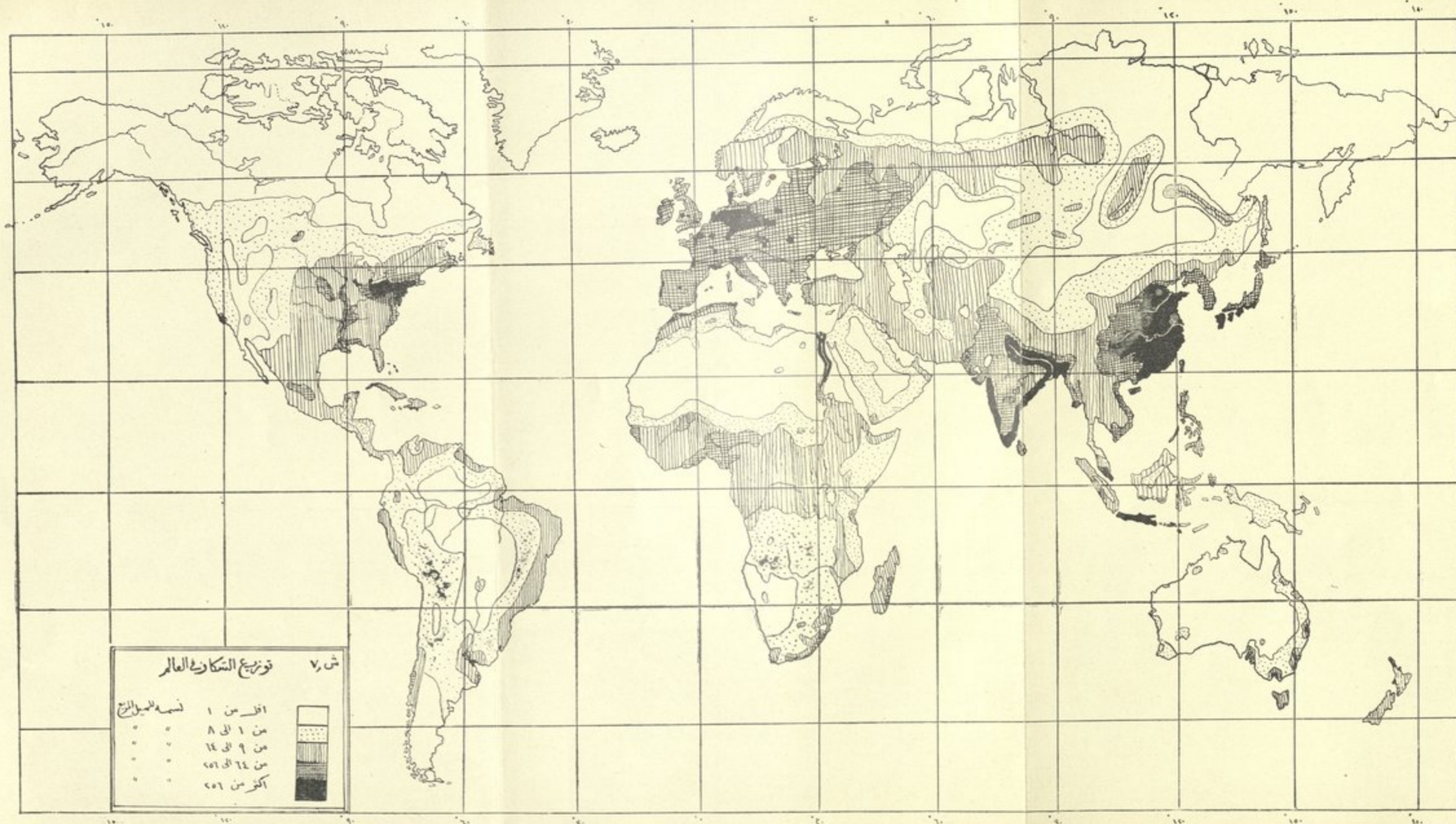
وفي الحق إن النواحي المزدهمة بالسكان من سطح الأرض محدودة جداً . وهذه أول حقيقة نلمسها حين ندرس توزيع السكان . وهذه الجهات عبارة عن ثلاثة أقاليم كبيرة وأربع جهات صغيرة . فالأقاليم الكبيرة المزدهمة هي : (١) أوروبا جنوب دائرة عرض ٦٠° . (٢) والهند وجزيرة سيلان . (٣) ثم إقاليم اليابان ومنشوريا ومعظم بلاد الصين (يقطع النظر عن بلاد المغول) فهذه الجهات الثلاث التي لا تزيد مساحتها عن عشر مساحة سطح الأرض قد احتشد فيها ما يزيد على الألف وخمسمائة مليون من الناس . أي أن ثلثي سكان الأرض يعيشون في عشر مساحة اليابس

وعدا هذه الأقاليم الثلاثة الكبيرة ، هنالك أربعة أقطار صغيرة قد اشتهرت بازدهام السكان فيها ؛ وهذه هي :
أولاً : الولايات الشمالية الشرقية للولايات المتحدة التي يطاق عليها اسم انكابترا الجديدة . ثانيا : الجزء الأدنى من حوض النيل أى الجزء المزروع من القطر المصرى . ثالثا : الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الملايو . رابعا : جزيرة جاوة من جزر الهند الشرقية . ففي هذه الجهات المحدودة المساحة جداً قد احتشد السكان احتشاداً هائلاً ، مما يقوى الظاهرة التي ذكرناها من قبل

والبحث في توزيع السكان على هذه الصورة لازم للاعتدال ، إلى العوامل الباعثة على هذا الاختلاف . ومن الوسائل الواجب مواجهتها :

أولاً : هل هذا الاختلاف يرجع إلى أن الأقطار العامرة هي وحدها الصالحة بطبيعتها للعمران وما سواها غير صالح ؟
ثانياً : إلى أى حد يرجع هذا الاختلاف إلى تقصير الإنسان في تعبير الأرض ؟ أى هل اختلاف التوزيع معناه سوء التوزيع ؟
ثالثاً : إلى أى درجة تتدخل العوامل الوضعية المفتعلة فتؤثر في توزيع السكان كتأثير مذهب خاص ، أو دين أو سياسة خاصة ، أو تقاليد وتعاليم موضوعة ؟

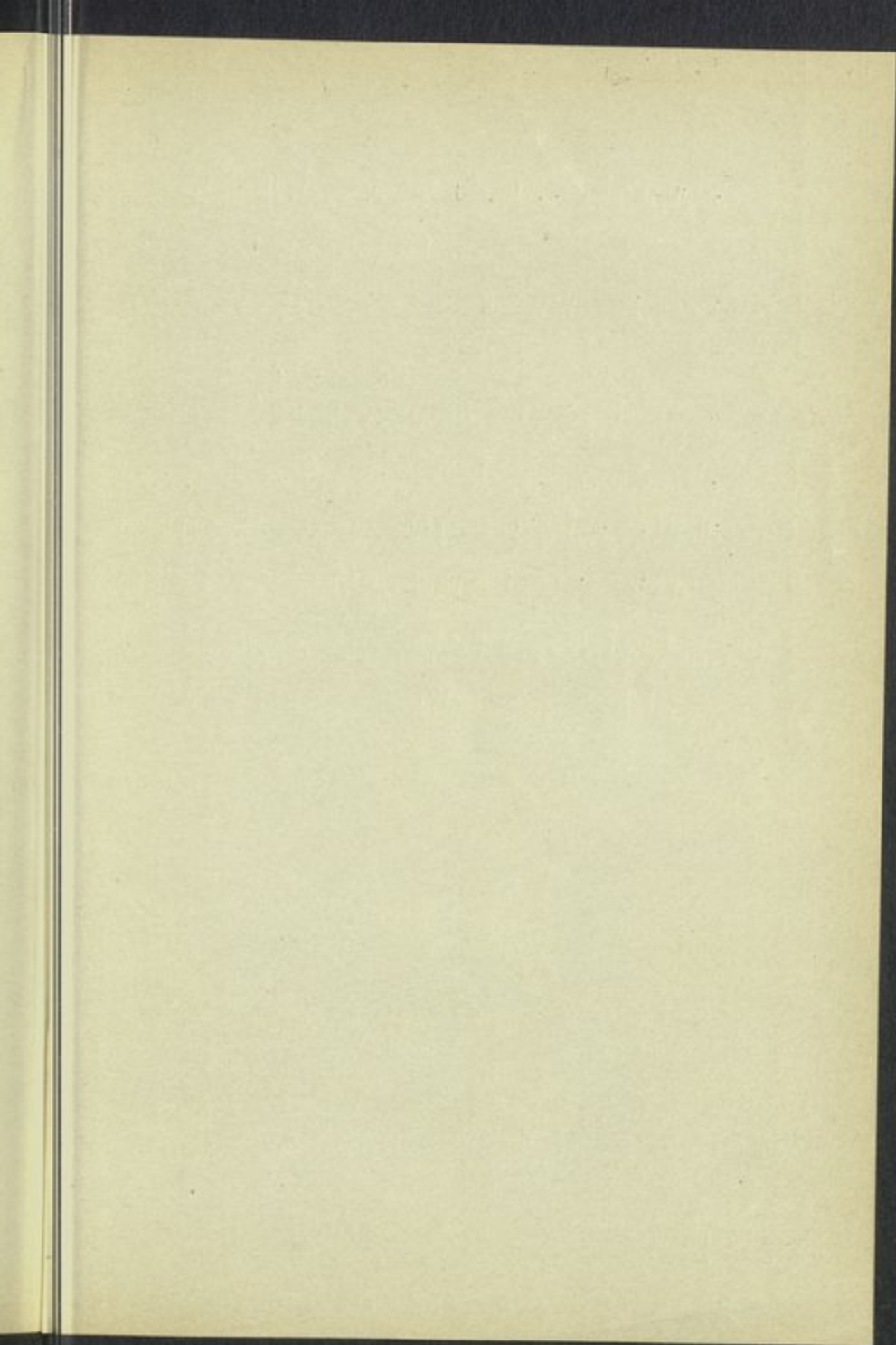




رابعاً : إلى أى حد يرجع الأمر للزمن ، أى أن البلاد
المزدحمة هى الأقدم عهداً بالعمران ؟

خامساً : أى علاقة بين كثافة السكان والأحوال الصحية
السائدة فى إقاليم من الأقاليم ؟

هذه الأمور كلها وكثير غيرها لها أساس كبير بأمر السكان
ونموهم وازدياعهم . ولا بد لمن يفكر فى أمر السكان من تدبر هذه
المسائل جميعاً . ونحن هنا يهمننا قبل كل شئ أن نبحث المسألة
الأولى أى صلاحية الأقاليم لحياة الإنسان ، ولا بد لنا لمعرفة
صفة كل إقليم من تحليل الظواهر الطبيعية إلى أجزائها التى
تتكون منها ، لنرى وجه الفضل الذى يمتاز به بيئة على أخرى



الباب الثاني

في قواعد توزيع السكان

11. 12. 16

الحمد لله رب العالمين

الفصل الرابع

الإنسان والبيئة

الظواهر الطبيعية الهامة وعلاقتها بتوزيع السكان

لو أن هنالك ظاهرة طبيعية واحدة يتفق توزيعها على سطح الأرض وتوزيع السكان لسهلت المسألة جداً ، ولكن حسبنا أن نستعرض الظواهر كلها واحدة واحدة ، فلا نلبث أن نستخرج من بينها ضالتنا التي نشدها . لكن كثافة السكان ليست بالظاهرة البسيطة في طبيعتها ونشأتها وأسبابها حتى يمكن ربطها بظاهرة طبيعية واحدة . وخير وسيلة تتبع أن نعرض لكل ظاهرة من الظواهر الطبيعية الهامة ، فنقارن بينها وبين توزيع السكان لكي نرى العلاقة بينهما في كل حالة من الحالات

١ — التضاريس

وأول ظاهرة للباحث هي التضاريس . ومعنى التضاريس الاختلافات في ارتفاع سطح الأرض ؛ فإن كل نقطة على سطح الأرض ليست على بعد واحد من مركزها . وطالب الجغرافيا يدرك بلا شك أنه لو كانت الكرة الأرضية كرة هندسية دقيقة

بحيث يكون سطحها متساويا في بعده عن مركز الكرة ، لما كان هنالك قارات ولا يابس ، بل لغمر ماء المحيط سطح الأرض ؛ ولما كانت هنالك حياة برية بالمعنى الذى نفهمه

واختلاف التضاريس هو سر بروز جزء من اليابس وارتفاعه على سطح الماء ، وإلى هذه الظاهرات يرجع الفضل فى تكوين القارات ونشأة تطور الحياة الأرضية — بخلاف الحياة المائية — وكان نتيجة هذا تطور الحياة ونشوء الإنسان وال عمران . وما دام الإنسان لا يعمر إلا اليابس من سطح الأرض ، فالى اختلاف التضاريس يرجع — فى المرتبة الأولى — الفضل فى وجود وتوزيع النوع البشرى .

لكن هذه الحقيقة على أهميتها ، لا تقدمنا كثيراً فى حل المسألة التى نحن بصدد ها . ولا بد لنا من نظرة أخرى نلقبها على التضاريس فى داخل كل قارة — وهى ما يسميها الجغرافيون التضاريس الثانوية ^(١) — لنرى هل لها من أثر فى توزيع السكان فى بعض جهات دون أخرى .

(١) ارتفاع أجزاء من القشرة الأرضية عن الأجزاء الأخرى نشأ عنه ثلاثة أنواع من التضاريس : تضاريس المرتبة الأولى هى القارات والمحيطات وتضاريس المرتبة الثانية هى سلاسل الجبال العظيمة مثل همالايا والالب والاندز أو السهول الفسيحة فى روسيا وآسيا . وتضاريس المرتبة الثالثة هى الاختلافات الموضعية الصغيرة كالأودية وسط سلاسل الجبال ، أو الكئبان وسط السهول .

إن اختلاف التضاريس بأن يكون هنالك سهول فسيحة منخفضة ، وهضاب وعرة عالية . وجبال شاهقة ، وأودية مطمئنة ، أمر لا تنبكر أهميته ؛ فإن السهول هي — عادة — الأقطار التي يعمرها الإنسان ؛ لأن من مستلزمات العمران سهولة الحركة والاتصال بين أطراف القطر . والسهول المعبدة ، مع خلوها مما يعوق الحركة ، كثيراً ما تكون ذات تربة خصبة ، وهذا أدعى لأن يجتذب الناس إليها . والحق أن أكثر الأقطار المزدهمة بالسكان إما أراض سهلة أو قريبة من السهولة ، والأمثلة على هذا كثيرة جداً ؛ فإن المتأمل في خريطة الولايات المتحدة يرى أن هنالك فرقاً هائلاً بين نصفها الشرقي ونصفها الغربي : فالأول الذي تغلب عليه السهولة عامر أهل بالسكان ، والنصف الغربي الذي تحتطه الجبال العالية والهضاب الوعرة قليل العمران والسكان . وكذلك جمهورية سويسرة أكثر العمران بها في الإقليم الشمالي الغربي حيث المرتفعات قليلة والأرض إلى درجة ما معبدة ؛ أما الجزء الجنوبي الشرقي فقليل السكان . ومدن سويسرة الشهيرة كلها في جهاتها السهلة .

ثم إذا نظرنا إلى الحضارات العظيمة التي اشتهرت في تاريخ الإنسان نرى أن أكثرها قد نشأ وتكون في أرض سهلة : فالحضارة في مصر ، وفي سهول الدجلة والفرات ، وفي أودية

اليونان ، وفي روما ، كلها تعتمد على أقطار سهلة أو أودية
مطمئنة . ومع وجود شواذ فان القاعدة العامة هي أن الإنسان
يألف السهول ويفضلها .

أما الشواذ فمن نوعين :

أولهما : وجود أقطار سهلة فسيحة كسهول سيبيريا الشمالية
وكندا الشمالية والصحراء الكبرى بافريقية ؛ وكلها خال من
ال عمران لأن هنالك أسباباً أخرى أقوى من مجرد التضاريس
تجعل عمران هذه الأقطار متعذراً جداً .

ثانيهما : ان هنالك جهات يفضل فيها المرء أن يعيش في
الهضاب العالية من أن يسكن المنخفضات ، وهذا بنوع خاص في
الأقاليم المدارية وعلى خط الاستواء . فسكان الكوادور ينفرون
جداً من المنخفضات على سواحل المحيط الهادى أو فى وادى
الأمازون ، ويفضلون أن يعيشوا فى هضبة عالية على ارتفاع
٣٠٠٠ متر فوق سطح المحيط . وكذلك سكان هضبة الحبشة
ينفرون من المنخفضات ذات الحرارة الشديدة والرطوبة المضجرة
والحشرات والأمراض ، ويؤثرون العيش على سطح الهضبة
على ارتفاع ٢٣٠٠ متر . فهذه كلها أحوال خاصة يضطر معها
الإنسان إلى تفضيل المرتفعات على المنخفضات ، وهكذا نرى
أن التضاريس وإن تكن من الاعتبارات ذات الأهمية التى

لا تنكر ، فانها ليست مطردة في تأثيرها في توزيع السكان في جميع الجهات

ب - الحرارة

ننظر الآن في بقية العوامل الطبيعية : والمناخ بلا شك أثر جليل في حياة الناس . وأهم العناصر المناخية الحرارة والمطر ، ولكل منهم شأن خطير في العمران . ولكن هل يمكننا أن نتخذ هاتين الظاهرتين منفردتين أو مجتمعتين مقياساً نقيس به توزيع السكان ؟

أما توزيع الحرارة على سطح الأرض ، فمعلوم لمن درس مبادئ الجغرافيا أن الحرارة تقل كلما ابتعدنا عن خط الاستواء أو كلما ارتفعنا عن سطح البحر ، وأن البحار لها تأثير ملطف للحرارة صيفاً وللبرودة شتاءً في الجهات القريبة منها . كل هذا معروف واضح ؛ ومعلوم أيضاً مما ذكرناه في الفصل الأول أن الإنسان يألف الاعتدال ويؤثر الدفء ، ولا يميل إلى الحرارة الشديدة أو البرودة الشديدة . فهل نستطيع أن نستخلص من هذا كله رابطة بين توزيع السكان وتوزيع الحرارة ؟

لقد كان المنتظر — بعد الذي قدمنا — أن الجهات الدافئة التي نشأ فيها النوع البشرى وما يماثلها تغدو أكثر ازدهاماً

بالسكان من غيرها . ولكن هنالك اعتبارات يجب ألا تغيب
عن أذهاننا وهي أن الحالة المناخية التي كانت تسود الأرض وقت
نشأة الإنسان قد تغيرت . وعدا هذا فإن ازدهام الأقاليم
بالسكان ، قد دفع الناس إلى أقطار جديدة حارة أو باردة غير
معتدلة . واستطاع الإنسان بعد أن تقدم في الحضارة درجات أن
يتخذ منها وطناً وأن يعمرها

وإذا نظرنا إلى خريطين تمثل احدهما توزيع السكان
والأخرى توزيع الحرارة ، وقارنا بينهما لرأينا أن السكان قد
يكثرون في أقاليم خط الاستواء وما يليه كما هي الحال في شبه
جزيرة الملايو ، وفي جزيرة جاوه . وكذلك قد يزدهم السكان
في جهات تغلب عليها الحرارة الشديدة كما يُرى في سهول
الكننج ، وفي جنوب الصين . فكان شدة الحرارة وحدها لم
تسكن عائقاً يحول دون ازدياد السكان وازدهامهم

وإلى جانب الجهات الحارة الشديدة الازدهام ، نرى هناك
جهات حارة قليلة السكان جداً ، مثل حوض نهر الأمازون الذي
يخترقه خط الاستواء ، والذي لا يزيد سكانه على الخمسة لكل
ميل مربع ، وفي كثير من جهاته لا يكاد يوجد ساكن واحد
لكل ميل مربع . وفي الجهات الحارة ما هو في منزلة وسط بين

هذين الطرفين المتباعدين كما هي الحال في غرب إفريقيا، وفي حوض الكونغو

إذا كان توزيع السكان في الجهات الحارة بل والجهات المدارية أيضاً على هذه الصورة — ليس هنالك علاقة بينه وبين توزيع الحرارة — فهل معنى هذا أن ليس للحرارة تأثير في حياة الإنسان؟ وهل الأمر سيان إن ارتفع مقياس الحرارة أو انخفض؟ إن للحرارة تأثيراً عظيماً في حياة الناس، وما يستطيع أحد أن يعيش في هواء لا تتوفر فيه حاجته من الحرارة. لكن في الجهات الحارة، حيث الحرارة وافرة في كل مكان بقدر الحاجة وبما هو فوق الحاجة، لا يمكن أن تكون الحرارة هي المميز الأكبر للأقاليم؛ لأن الأقاليم تتساوى في الحرارة إلى درجة كبيرة. فمن خط الاستواء إلى دائرة عرض ٣٠ أو ٤٠ نجد الحرارة وافية كافية في كل عرض وفي كل إقليم. فإذا كان وجود السكان متوقفاً على الحرارة وعلى أمور أخرى، فإن وفرة الحرارة في كل مكان تجعل هذه الأمور الأخرى — أي كانت — هي الفارق الحقيقي بين الجهات، والعامل الأكبر في كثافة السكان

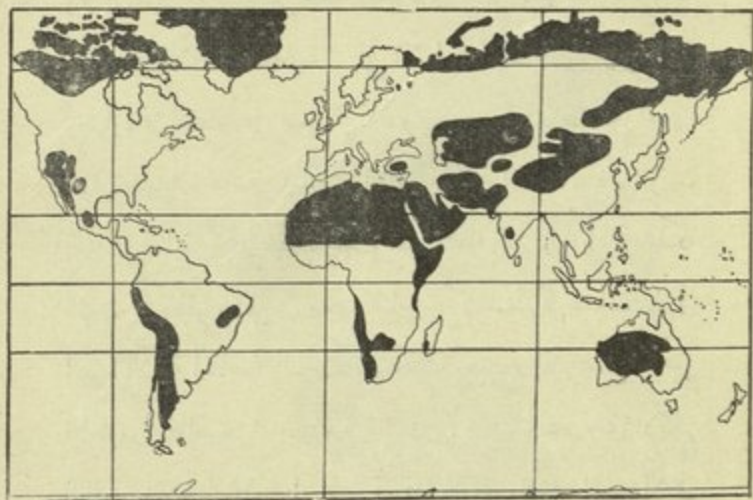
هذا صحيح فيما يتعلق بالجهات الحارة، أما إذا اقتربنا من القطب، وتجاوزنا عرض ٤٠، وأخذت درجات الحرارة تقل، والمقياس يهبط، فهناك نصل إلى أقاليم أكبر ما يميز بعضها عن (٦ — ك)

البعض هو هذه الحرارة بالذات . انظر إلى خريطة روسيا وتوزيع السكان فيها — وهي خير شاهد على ما نقول — تجد سكان روسيا يكثرون في الجنوب حيث الحرارة والدفء ؛ ثم لا يزالون يتناقص كثرتهم ويقل عددهم كلما اقتربنا من بحارهم الشمالية ذات البرد القارس الذى لا يكاد ينمو وسطه سوى أعشاب جافة يابسة لا يرضاها أكثر الحيوان ، ولا يتنازل لتناولها والتغذى بها سوى دواب قطبية تألف البرد كالوعل القطبي وأمثاله . فهناك نرى البون الهائل بين توزيع السكان فى الجهات الدافئة والجهات الباردة . وأوربا بوجه عام تقل ازدهاما كلما ذهبنا من الجنوب إلى الشمال — إذا استثنينا الجهات الصناعية التى ازدهم الناس فيها لفرض خاص سنعرض له فيما بعد

الخلاصة أن كثافة السكان مرتبطة بتوزيع الحرارة فى الجهات الشمالية ، المعتدلة والباردة ؛ أما فى الأقطار التى توافرت فيها الحرارة ، فإن للاعتبارات الأخرى السكان الأول

ح — المطر

لعلنا إذا نظرنا إلى العوامل التى لها علاقة بالعمران ، كل عامل بمفرده ، لوجدنا أن أهمها وألصقها بحياة الإنسان هو المطر . إن الحرارة التى يحتاجها الحيوان أو النبات موجودة فى الجزء



شكل ٨ : للمقارنة بين الكثافة السكانية والكثافة السكانية (أعلى)
والكثافة السكانية والكثافة السكانية (أسفل)

الأكبر من سطح الأرض ، ولم يحرم منها سوى جزء ضئيل منه ؛
أما المطر فقد حُرمت القدر اللازم منه أقطار واسعة شاسعة ،
وأراضٍ تزيد على نصف مساحة اليابس . والشئ إن عز غلا .
وهناك أقطار واسعة يتناحر الناس فيها على الماء . لهذا لم يكن
غريباً أن يقال إن الماء أهم البواعث على كثرة السكان . والخريطة
الدرجة هنا ترينا التطابق الكثير — وإن لم يكن تاماً — بين
توزيع الماء وتوزيع الناس

على أننا — رغم هذا — نرى أحوالاً تخالف هذه القاعدة ،
ونرى أظهر الأمثلة على هذا الشذوذ في بعض الجهات الاستوائية
وفي سائر الأقطار القطبية . ففي الأولى يسقط المطر بوفرة هائلة
وغزارة لا تنقطع على طول السنة ، ويصحب هذه الأمطار الوافرة
حرارة شديدة دائمة . فتنتعش الحياة النباتية انتعاشاً عظيماً ، وتنمو
الغابات كثيفة متلاصقة ، بحيث يحول هذا الغنى الهائل في مملكة
النبات إلى فقر هائل في وجود الناس ، كما سندكر هذا مفصلاً في
الفقرة الآتية الخاصة بالنبات . وهكذا يصبح إقليم مثل حوض
الأمازون كالصحراء خلواً من السكان . وبوجه عام نرى الأقاليم
الواقعة على خط الاستواء فقيرة أو قليلة السكان ، اللهم إلا في
مواقع محدودة حيث الهضاب العالية والمرتفعات الجبلية أو الدنو
من البحار ؛ وكل هذه الأسباب مجتمعة تحدث تاطيفاً قليلاً

شكل (٩) في الجزر البريطانية لا تشفى كثافة السكان مع كثرة المطر



أو كثيراً في شدة المناخ وفي نمو النبات ، كما نرى في إندونيسيا وفي جمهورية الكوادر وبيرو والمضاب الاستوائية في إفريقية . وسنعود إلى شرح هذا الموضوع عند التحدث عن النبات .

أما الجهات القطبية فطرها ليس بالكثير ، ولكنه كاف بحاجتها ، لولا أن البرد الشديد طول العام يحول الأمطار إلى ثلج يتساقط ثم يستحيل جليداً متراكماً ، ويجعل الحياة النباتية فقيرة كما ذكرنا . وإذا كان لا بد لنا من تقرير قاعدة عامة للمناخ وأثره في حياة الناس ، فلنذكر أن الحرارة لها الأثر الأكبر في الجهات الباردة ، وللمطر الأثر الأكبر في الجهات التي تغلب فيها صفة الحرارة والدفء . فلكل من الحرارة والمطر أثره الهام في حياة النبات والحيوان والناس . ولكن أحدهما لا يصلح بمفرده مقياساً لتوزيع السكان .

النبات^(١)

النبات — كظاهرة طبيعية — عبارة عن نتيجة تفاعل شيتين : التربة والمناخ ، ونظراً لأن التربة نفسها تتأثر بالأحوال المناخية إلى مدى كبير ، تصبح الظواهر المناخية هي ذات

(١) المنصود بالنبات هنا النبات في حالة الفطرة بقطع النظر عن تدخل الانسان في أمره بالاعتلاع أو بالزراعة والرى



الأثر الأكبر في النبات والحياة النباتية ؛ ولهذا كان هنالك اتفاق عام بين توزيع النبات وبين توزيع الأقاليم المناخية وما يجعل للنبات أهمية كبرى في الغرض الذي نشده هنا أنه يعبر في شكله وتكوينه ومقداره عن ظاهرات طبيعية أخرى مختلفة ولكنها تتمثل فيه ؛ ويكفي دلالة على هذا أن نذكر أن قلة الحرارة أمر يختلف تماماً عن قلة المطر ، ومع ذلك أثرها واحد في حالة النبات . فالأقطار الشديدة البرودة نباتها قليل أو معدوم ؛ والجهات القليلة الماء نباتها قليل أو معدوم . وهى في الحالين قليلة الصلاح لحياة الإنسان . فقلة النبات ظاهرة واحدة تعبر عن ظاهرتين مختلفتين ، وتصبح مقياساً أصدق على صلاحية الاقليم للإنسان

وحالة النبات على سطح الأرض التى ينقسم بمقتضاها إلى أقاليم نباتية . أمرها معروف لكل من درس شيئاً قليلاً من الجغرافيا . ولكننا سنجملها هنا بصورة يسهل فهمها على كل قارئ : فأقاليم النبات مقسمة بطبعها إلى غابات وحشائش وصحارى ، موجودة إما فى الجهات الحارة أو المعتدلة أو الباردة ؛ فكأن أهم الأقاليم النباتية تسعة : غابات حارة ومعتدلة وباردة ، وحشائش حارة ومعتدلة وباردة ، وصحارى حارة ومعتدلة وباردة ، فيغلب فى الغابات وجود الأشجار ذات الجذوع والأغصان التى

تعمز عمراً طويلاً أو قصيراً . وتغلب في الحشائش صفة النبات المتجدد كل عام الذي يتم حياته في موسم واحد . ثم يستأنفها في الموسم التالي وهم جرا . وأما الصحراء فأهم ما يميزها فقر الظاهرة النباتية فقراً يزيد أو ينقص في جهات عن جهات أخرى . ووجود الغابات معناه وفرة الحرارة والمطر : وأما أقاليم الحشائش فينقص فيها أحد هذين نقصاً يحول دون نمو الشجر ، ولكنه لا يحول دون نمو الأعشاب في الموسم الذي تتوافر فيه الحرارة والمطر . وأما الصحارى فيحول دون نمو النبات فيها الأحوال المناخية القاسية من فقر شديد في الحرارة أو فقر شديد في المطر يستمر أكثر العام ، فلا ينبت إلا القليل من النبات الخشن الجاف الذي يستطيع مقاومة هذه الفاقة المناخية وهذا الحرمان الشديد وكان المعقول أن الجهات الأوفر نباتاً وشجراً تصبح أكثر سكاناً . أليس طعام الإنسان وقوام حياته النبات والثمار ؟ وهي كذلك غذاء الحيوان الذي قد يتخذ الإنسان من لحومها طعاماً ومن جلودها وأصوافها لباساً ؟

هذا كله صحيح . وكثير من أشد الأقطار ازدحاماً هي أقاليم غابات حارة أو معتدلة . ولكن لكي نفهم حقيقة الحالة يجب أن نرجع إلى إنساننا الأول لنرى كيف كان موقفه حيال الحياة النباتية وكيف تصرف في أمرها . لقد كان الإنسان في عهده

الأولى قليل العدد ضعيف الآلات ، لم يعرف بعد كيف يستخدم المعادن ، وكل عدته آلات من الحجر والعظام ، هيهات أن يستطيع بواسطتها اقتلاع الغابات الكثيفة . لهذا كان الإنسان مضطراً إلى أن يعيش خارج الغابات ، فلا يتوغل فيها إلا باحثاً عن الصيد . وحين تعلم الزراعة وجعل يعتمد عليها في رزقه وقوته ، بدأ بالطبع بزراعة الجهات القليلة الشجر . ولم يبدأ بإزالة الغابات إلا بعد أن اضطر إلى ذلك اضطراراً بزيادة السكان وازدحام الجهات التي يعيش فيها . فجعل يُحِيل أقاليم الغابات بالتدريج إلى أراض زراعية ؛ فإذا هي من أصلح الأراضي وأحسنها للحياة وال عمران . وهكذا نرى الإنسان حول البحر الأبيض المتوسط وفي الصين والهند يعيش في جماعات كثيرة ، في أقاليم كانت يوماً ما تسكوها الغابات ، ولا تزال بها جهات كثيرة تغطيها الغابات .

وبالطبع لم تصلح له الغابات في الجهات الباردة كما صلحت الغابات في الأقاليم الدافئة ؛ فغابات الصنوبر في شمالي أوروبا وآسيا وأمريكا لا تزال فقيرة السكان برغم سهولة اقتلاعها ، لأن طبيعة الهواء تجعل تلك الأقاليم فقيرة في إنتاجها الزراعي . وحسبنا دليلاً على قلة صلاحها أنها لا يكاد ينبت فيها من الشجر سوى الصنوبر ، الذي اختص بطبعه بمقدرة كبيرة على مقاومة البرودة

الشديدة . فالإنسان لم يألف الغابات الباردة لأن موارد الأقليم الزراعية قليلة . ولا يكاد يصلح إلا للاحتطاب وللرعى ولا استخراج الأخشاب

وكذلك لم يألف الإنسان الغابات الحارة ولم يعمرها ولكن لأسباب أخرى تختلف عن هذه الاختلاف كله . إن المألوف في دروس الجغرافيا أن يصف الناس الغابات الاستوائية في حوض الأمازون والكنغو وغرب إفريقيا بأنها لا تصلح لحياة الإنسان ؛ لأن النبات والشجر فيها نام نمواً هائلاً بحيث تشابك الأغصان بالأغصان ، وتستند الجذوع إلى الجذوع ، ويلتوى النبات بعضه على بعض ؛ هذا زاحف على الأرض ، وهذا متسلق يربط الأشجار بعضها إلى بعض ، وهذه جذوع مرتفعة محلقة في السماء ، والأخرى تنافسها في السمو والعلو طلباً للنور والضياء ، لأن باطن الغابة مظلم قاتم ؛ قد حجبت الفروع والأوراق المتراسة المتساندة ضياء الشمس فلا يصل شعاع من النور إلى ذلك الثرى ، الذي اكتسى من النبات بغطاء محكم غليظ سميك

وفي وسط هذه الغابة تشتد الحرارة طول العام ، والرطوبة تملأ الهواء إلى درجة تقرب من التشبع ؛ وليس أقصى على الجسد البشرى من اجتماع الحرارة الشديدة والرطوبة الشديدة . ولهذا نفر الناس من الغابات الاستوائية ، ونفر منها حتى الكثير من

السباع ؛ وباتت لا يألفها سوى الحشرات والهوام والزواحف
التي تستطيع أن تنساب وسط هذا النبات والشجر الغزير ، والطيور
الذي يستطيع أن يتنقل من غصن إلى غصن ، وطائفة من
الحيوان رزقت مقدرة على التسلق والتشبث بالأغصان ، وقد
تعيش حياتها كلها دون أن تخطأ الأرض برجلها ؛ وناهيك بما في
هذه الغابات من حشرات فتاكة تحمل للمرء بل وللحيوان أيضاً
أمراضاً وعللاً وأوبئة منها الملاريا ومنها مرض النوم وغيرها
من الأسقام والعلل

هذا وأمثاله نسمعه كثيراً في وصف تلك الغابات
الاستوائية وتبريراً لما نراه فيها من قلة السكان . ونحن لا نريد
أن نمارى في صحة هذا الوصف لكثير — إن لم يكن لجميع —
الأقطار الاستوائية . ولكننا نقرر هنا — على هذا كله — أن
الجهات الاستوائية قابلة جداً للتعمير والعمران ، وأن المشكلة التي
تواجهها اليوم بشأن هذه الغابات هي نفس المشكلة التي تواجهها
الإنسان دائماً في أمر الغابات وصعوبة إزالتها . وكل ما هنالك
أن إزالة الغابات الحارة أشق بكثير من إزالة الغابات في الجهات
الدافئة . ولكن إزالتها ومكافحة الصعوبات التي تكثف الحياة
فيها ليست مستحيلة ، وما نحن نرى جزيرة جاوه الصغيرة
الواقعة في قلب المنطقة الاستوائية تتسع لنحو ستة وثلاثين مليوناً

من السكان ، يعيش الكثير منهم فى المنخفضات والمنحدرات الجبلية . وقد أزيل الكثير من الغابات فى حوض الكنفو وحوض النيجر والفلتا ، وزرعت فى أراضيها حقول من الأرز وغابات من شجر الكاكو والمطاط . حقيقة إن حوض الأمازون لا يزال خلاء قفراً من الناس ، ولكن هذا لأنه أشق هذه الأقاليم الحارة جميعاً ، وسيأتى دوره من غير شك حين تزدهم أمريكا الجنوبية بالسكان ، أما اليوم وسكانها لا يكادون يتجاوزن ثمانين مليوناً ، وأمامهم الاقطار المعتدلة الهواء الفسيحة الأرجاء ، فلا يمكن والحال هذه أن يسير استعمار حوض الأمازون إلا ببطء شديد

فالأمر فى الغابات الحارة هو كالغابات الدافئة أمر يرجع إلى الزمن ، وعمارتها رهن بتقدم الإنسان ومقدرته على تحويل هذه الغابات الكثيفة إلى سهول زراعية خصيبة ، وعلى مكافحة أسباب الأمراض فيها ، كما حدث فى مكافحة الملاريا والهواء الأصفر فى برزخ بنما . فهناك تصبح هذه الأقطار من أغنى الجهات ثروة زراعية ، لوفرة الماء والحرارة فيها ، وتصبح من أكثر الاقطار ازدهاماً بالسكان كما هى الحال اليوم فى جاوه وشبه جزيرة الملايو

ولا يفوتنا أن نذكر أن القول بعدم صلاحية الأقاليم

الاستوائية يراد به في الغالب قلة صلاحها للإنسان الأوربي الذي لم يندشأ في هذه البيئة ، وليس في تركيب جوارحه وأعضاء جسمه ما يساعده على العيش فيها زمناً طويلاً . ولكل بيئة أهائها الذين ألفوها واصطبغوا بصبغتها . وتعمير الأقطار الاستوائية يجب أن يستند إلى سكان تلك الأقطار ويعتمد عليهم .

وبعد ، فهل يمكن أن نجعل توزيع النبات مقياساً لتوزيع السكان ؟ الرد على هذا السؤال هو بالطبع بالنفي إذا أريد بالتوزيع حالة السكان في وقتنا هذا . ويجب أن نذكر أن العامل البشري له أثر عظيم في كثرة السكان وقلتهم ، وإلا فلماذا كانت أمريكا الشمالية فقيرة السكان مع صلاحها للإنسان وللعمران إلى أن دخلها البيض وعمروها ، فامتلات بالسكان وأخذت تسير نحو الازدحام الشديد ؟ !

ولكننا نستطيع أن نقرر أن أقاليم الغابات في الجهات الحارة والمعتدلة هي من أكثر الأقاليم قبولا للعمران إذا أحسن الإنسان الانتفاع بها ، ويليهما في الأهمية الحشائش الغنية في الجهات الحارة (السافانا) ، ثم الحشائش الغنية في الجهات المعتدلة (السهوب والاستپ) ، ويلى هذا أقاليم الحشائش الفقيرة ، ثم الغابات الباردة والحشائش الباردة . وفي النهاية نرى الصحارى في جميع الأقاليم هي بحق أقل الجهات عمراناً . وفي الصحارى الباردة مثل أواسط

جرينلند والقارة التي حول القطب الجنوبي ترى الحياة مستحيلة تماماً على النوع البشرى . هذا هو الترتيب لصلاحية الأقاليم لحياة الإنسان ، وليس توزيع السكان فعلاً تابعاً لهذا الترتيب ، لأن هنالك عوامل أخرى كالبحث عن المعادن أو القيام بالصناعة يضطر الناس لأن يجتمعوا في بقعة واحدة

ولكن هذا لا يمنع أن النبات هو أهم الظاهرات الطبيعية جميعاً في الدلالة على صلاحية الأقاليم ، لأنه هو خلاصة هذه الأحوال الطبيعية التي يعبر عنها جميعاً



الخلاصة أننا بعد أن استعرضنا جميع الظاهرات الطبيعية الهامة ، قد رأينا أن لكل منها تأثيره الخاص في حياة الناس ورخائهم ، ولهذا كان له أثره في توزيعهم أيضاً . حقيقة إننا لم نجد ظاهرة واحدة نستطيع أن نجعلها بمفردها مقياساً لانتشار السكان كثرة أو قلة ، ولكننا لن نعدم أمثلة عديدة على سطح الأرض تربطنا أثر كل ظاهرة وأهميتها لحياة الناس . حقيقة إن الجهات تختلف في هذا ، ففي بعض النواحي ترى الحرارة لها الأثر الأكبر ، وفي نواح أخرى ترى المطر ، وفي جهات ثالثة ترى التضاريس هي العامل الأقوى في توزيع السكان فإذا أردنا أن نفهم حالة السكان كثرة أو قلة فلننظر إلى

الأقاليم الخاص الذي نريد أن ننظر في أمره ، فقد تكون له حالته الخاصة ، ثم ندرسه في ضوء المبادئ المختلفة التي أسلفنا ذكرها

وبالطبع لا يخلو الأمر من تأثير عظيم للعوامل البشرية البحتة ؛ فإن سكان أمريكا الشمالية أقل من سكان أوربا لأن الأولى أحدث عهداً بالعمران ، وسكان استراليا قليلون لأنها تأبى أن تبيع المهاجرة إلا بتضييق شديد . والهند والصين قد ازداد فيهما السكان إزدياداً فاحشاً من أجل تقاليد دينية خاصة سنشرحها فيما بعد . وأوربا تقدمت في السكان من أجل نهضتها الصناعية . وهكذا نجد لكل جهة أسباباً بشرية خلاف الأسباب الطبيعية تستحق شيئاً من العناية . ولكن الظواهر الطبيعية لم تزل هي الفارق الأكبر بين الأقاليم ؛ ولهذا لم يكن لنا بد من أن نبدأ بدرسها قبل أن نتناول العوامل البشرية بالبحث

الفصل الخامس

الأقاليم الطبيعية والسطح

فكرة تقسيم العالم إلى أقاليم ، يتفق كل إقليم منها في صفاته الطبيعية ويختلف عما سواه من الأقاليم ، فكرة قديمة نراها في مؤلفات الجغرافيين القدماء . والغرض من تقسيم العالم إلى أقاليم أن نميز بين الجهات الصالحة وغير الصالحة ، وأن نرتبها حسب ملاءمتها لحياة الإنسان . والمعقول لتحقيق هذا الغرض أن ندخل في اعتبارنا جميع الظواهرات من رطوبة ومطر وحرارة ونبات وتربة وتضاريس . وكل ظاهرة طبيعية قد تؤثر من قريب أو بعيد في حياة الناس

وقد جاء فيما ذكره ابن خلدون في مقدمته تقسيم العالم إلى الأقاليم السبعة المشهورة بحسب دوائر العرض ، أن الإقليم الأول هو ما بين خط الاستواء إلى دائرة عرض ١٠ ، والإقليم الثاني بين دائرة ١٠ و ٢٠ ، والثالث بين ٢٠ و ٣٠ ، والرابع بين ٣٠ و ٤٠ ، والخامس بين ٤٠ و ٥٠ ، والسادس بين ٥٠ و ٦٠ ، والسابع بين ٦٠ و ٧٠

و بمقتضى هذا التقسيم البسيط تكون الأقاليم التى وراء خط الإستواء جنوباً قليلة الأهمية لشدة حرارتها وقلة العمران فيها ، وكذلك الأقطار التى وراء العرض السبعين عديمة العمران لشدة البرودة فيها . ونظراً لأن علم القدماء كان قاصراً على العالم القديم دون الجديد ، كان لهذا رأى من غير شك وجهته ويستتبع هذا التقسيم أن يكون الإقليم الرابع — الأوسط — هو خير الأقاليم جميعاً وأصلحها للعمران . ويقول ابن خلدون فى هذا :

« إن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه ، لإفراط الحر فى الجنوب والبرد فى الشمال فالإقليم الرابع أعدل العمران ، والذى حِفَافِيَه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال ، والذى يليهما من الثانى والسادس بعيدان من الاعتدال . والأول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس ، والأقوات والفواكه ، بل والحيوانات ، وجميع ما يتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً ، حتى النبوات فأنما توجد فى الأكثر فيها . . . وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم : فتجدهم على غاية من التوسط فى مساكنهم وأقواتهم وصنائعهم ، يتخذون البيوت

والآلات والمواعين ، ويذهبون في ذلك إلى الغاية في الاستجادة ،
ولديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس
والرصاص والقصدير ، ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين
العريزين ، ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم
وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس
والسابع ، فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم ، فبناؤهم
بالطين والقصب ، وأقواتهم من الذرة والعشب ، وملابسهم من
أوراق الشجر يخصفونها عليهم ، أو الجلود ؛ وأكثرهم عرايا من
اللباس ، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين ماثلة إلى
الانحراف وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات
العجم ، حتى ينقل عن الكثير من السودان أهل الأقاليم الأول
أنهم يسكنون الكهوف والغياض ، ويأكلون العشب ،
وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً ، وكذا
الصقابة الخ . . . »

هذا بعض ما جاء في مقدمة ابن خلدون عن الأقاليم . والتمييز
بين الصالح وغير الصالح منها ؛ وهو وإن لم يقل شيئاً عن كثرة
السكان أو قلتهم في هذه الأقاليم فإن هذا مفهوم ضمناً ، وبمجرد
الكثرة ليست بأشد خطراً من الحياة الناعمة الراضية ، وال عمران
المنتشر ، والرقى المادى والأدبى

وقد أخطأ ابن خلدون بالطبع حين قصر الاعتدال على الجهات الواقعة بين دائرتي عرض ٣٠ و ٤٠ ، فليس مجرد الوقوع بين هاتين الدائرتين كافياً للاعتدال ، وليس كل ما هو خارج عن هذه الأقاليم بعيداً عن الاعتدال ، وقد عشنا ورأينا الأقاليم السادس يعد من أحسن الأقاليم وأطيبها ، وبعض جهاته يراها الأستاذ هنتجتن أحسن الجهات للنشاط الجسدى والعقلى للانسان !

وقد اتسعت بالطبع معلوماتنا عن الأرض وسكانها ، وشهدنا عالماً جديداً ينكشف عنه الغطاء ، ويدخله العمران ، وبتنا نعلم أن جنوب خط الاستواء أقطاراً عامرة ، وبحال العمران فيها لا يزال متسعاً ، ومع اتساع معلوماتنا قد أصبحنا قادرين على أن نخطئ ابن خلدون في كثير مما ذهب إليه

ولكن أمراً واحداً جوهرياً لم يختلف فيه عن ابن خلدون : وهو فكرة تقسيم العالم إلى أقاليم بعضها أصلح من بعض . فهذه الفكرة لا تزال تحتل مكاناً هاماً في الدراسات الجغرافية ، ولا زلنا اليوم نعى عناية كبرى بتقسيم اليابس من سطح الأرض إلى أقاليم ، لسكل منها صفاته ومميزاته ، وبذلك نستطيع أن تبين قابليتها للعمران ولحياة الانسان

ونحن إذا كنا نختلف عن ابن خلدون في تقسيم الأرض إلى

أقاليم ، فإنما تختلف عنه في التفاصيل لا في الجوهر . فنحن نرى بالطبع أن الأقاليم موزعة شمال وجنوب خط الاستواء ، وأن معظم الأقاليم الشمالية لها مقابلها في الجنوب . وكذلك نحن نميز غرب اليابس عن شرقه ، لتعرض كل منهما لتيارات بحرية خاصة ، ورياح خاصة تؤثر في هوائه حرارة ورطوبة ومطرًا . وبالتالي تؤثر في نباته وحيوانه . ونحن نفرق بين الأقاليم الداخلية وبين الجهات المصاحبة للبحار والمحيطات ، ونعرف ما للبحار من أثر ملطف ، في معظم الحالات ، لدرجات الحرارة ؛ وكذلك نحن نميز بين المرتفعات والسهول ، وبين أقاليم الجبال والهضاب ، ولهذا نستطيع أن نتصور أن الارتفاع الشديد في الأقطار الاستوائية باعث على اعتدال الهواء . وهكذا نستطيع أن ندقق في التمييز بين الأقاليم تدقيقاً لم يكن القدماء قادرين عليه ؛ ولكن الأثر الذي نسير فيه هو أثرهم ، والفكرة التي ننشدها هي فكرتهم ، لا تختلف عنهم في هذا بشئ .

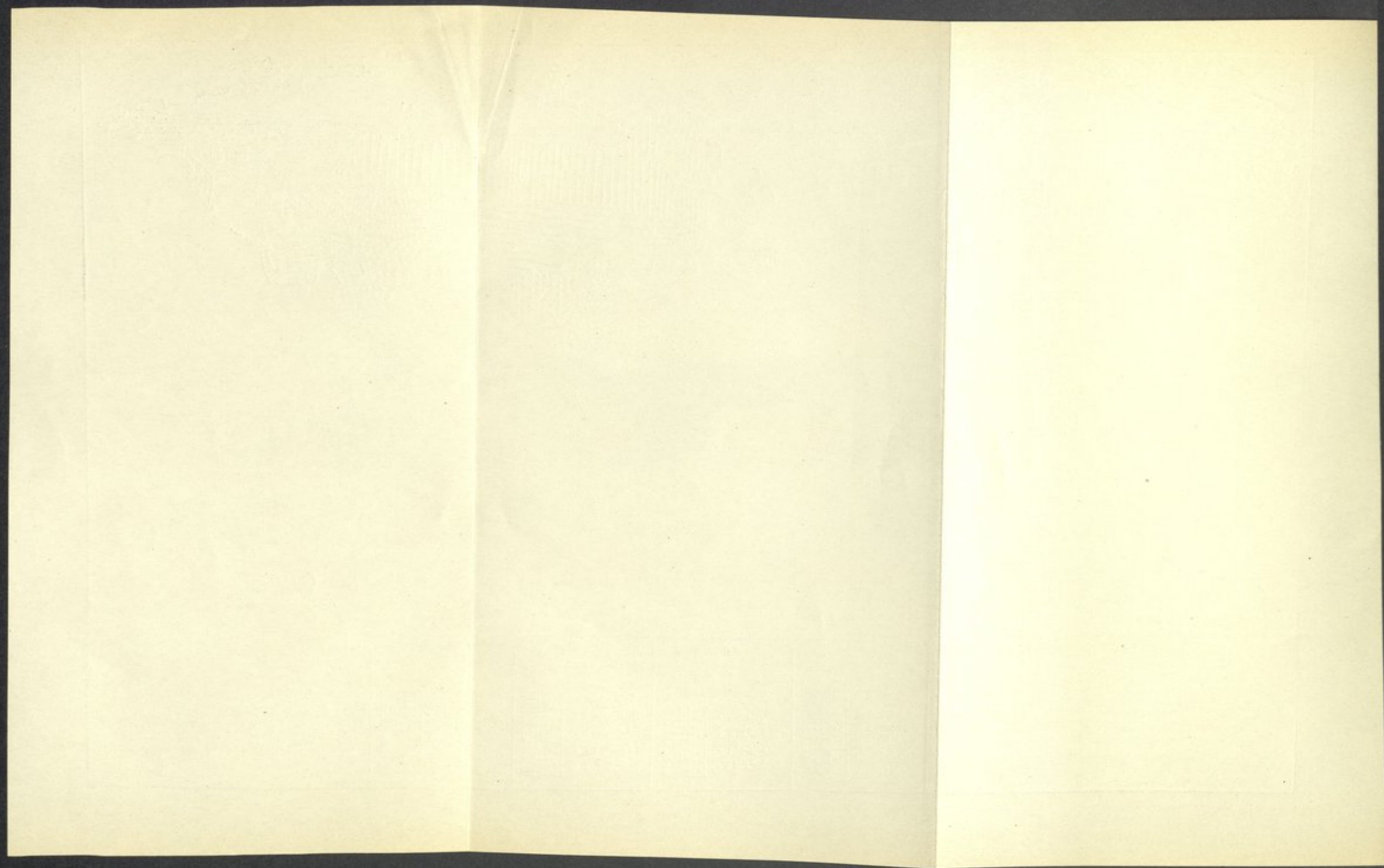
انقضى الوقت الذي ينظر فيه إلى الأقاليم حسب قربها أو بعدها عن خط الاستواء بقطع النظر عن كل اعتبار آخر ؛ وأصبحنا ولا بد لنا أن نحسب حساباً لأمر أخرى مثل القرب والبعد عن البحار ، والارتفاع عن سطح البحر ، والتيارات البحرية ، والرياح التي تهب على الأقاليم ، ومقدار ما يتساقط فيه

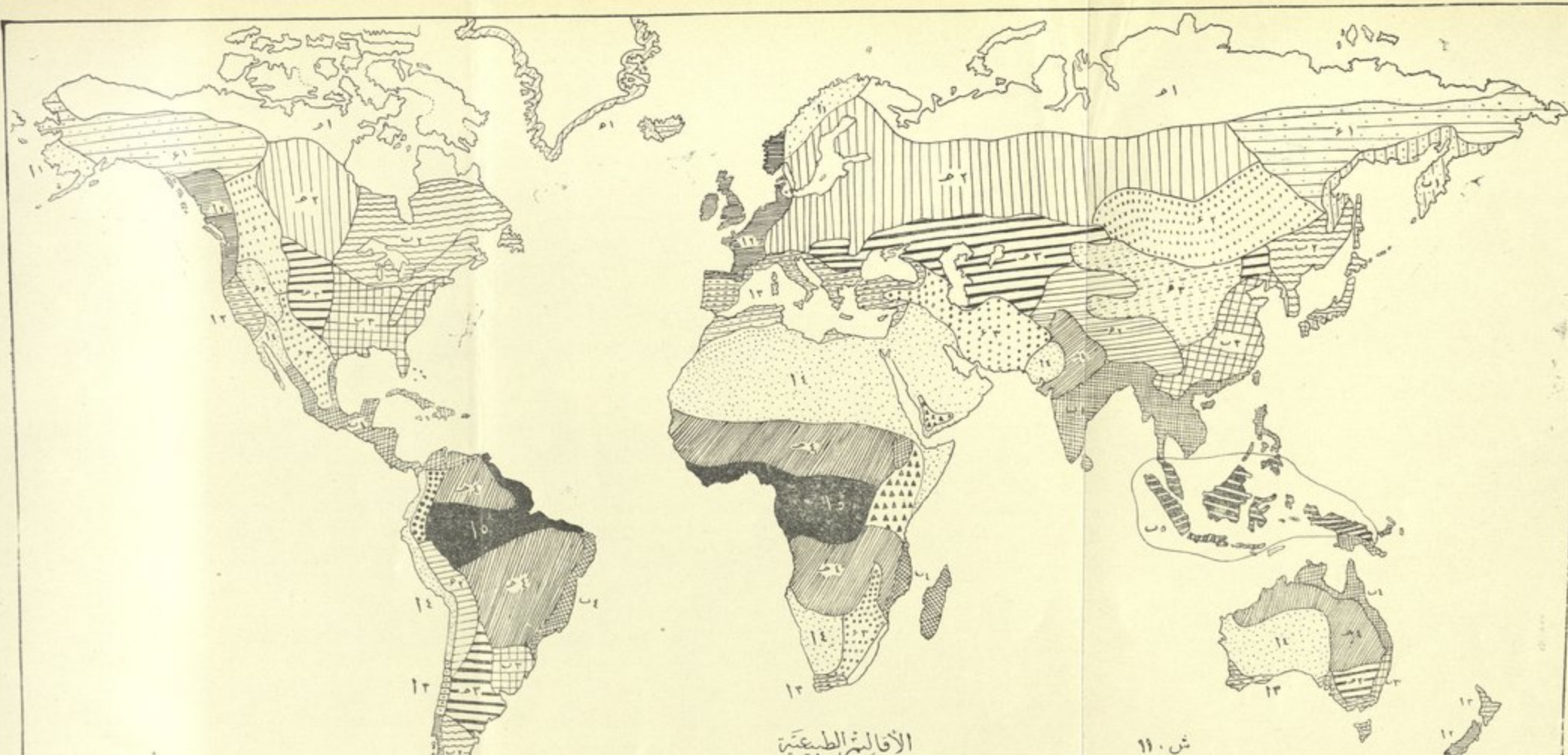
من المطر ، ونوع التربة وقيمتها في الانتاج . أصبحنا ننظر إلى هذه الاعتبارات كلها وإلى غيرها حين نريد أن نميز إقليما عن إقليم ، وحين نقرر الاختلافات الدقيقة بين بعض الجهات والبعض الآخر

وبذلك نشأ لدينا نظام جديد لتقسيم العالم إلى أقاليم نسميها الأقاليم الطبيعية ، لا ينظر فيها إلى ناحية طبيعية واحدة بل إلى جميع النواحي الممكنة . وقد كان للاستاذ هربرتسن الجغرافي الانكليزي الفضل الأكبر في نشر وتعميم الدراسة الإقليمية لسطح الأرض

وقد اتخذ الأستاذ هربرتسن الحرارة أساساً للتقسيم ، فقسم العالم إلى :

- (١) أقاليم قارصة شديدة البرودة
 - (٢) وأقاليم باردة ، ولكنها تميل إلى الاعتدال
 - (٣) وأقاليم دافئة
 - (٤) وأقاليم حارة مدارية
 - (٥) وأقاليم حارة استوائية
- ورمز لسكل من هذه الأقاليم برقم على الصورة التي أشرنا إليها ، ثم جعل لكل من هذه الأقسام الأصلية خمسة أقسام فرعية يرمز إليها بحروف ، وهذه الأقسام هي :





الأقاليم الطبيعية

ش ١١٠

١ الأقاليم الفارسية	٢ الأقاليم السائدة	٣ الأقاليم الدافئة	٤٤٤ الأقاليم الحارة
مثل : نرويج ١١ مثل : أستراليا ١٢ مثل : الهند ١٣ مثل : اليابان ١٤ مثل : نيوزيلندا ١٥	مثل : غرب أوروبا ١٦ مثل : جرينلاند ١٧ مثل : سيبيريا ١٨ مثل : بايكال ١٩ مثل : تبت ٢٠	مثل : البحر الأبيض ٢١ مثل : الصين ٢٢ مثل : الهند ٢٣ مثل : إيران ٢٤ مثل : أفغانستان ٢٥	مثل : الصحراء ٢٦ مثل : الهند ٢٧ مثل : السودان ٢٨ مثل : إثيوبيا ٢٩ مثل : كينيا ٣٠ مثل : الأمازون ٣١ مثل : السلاو ٣٢

- ١ — الأقاليم الواقعة غرب القارات
- ب — الأقاليم الواقعة شرق القارات
- ح — السهول الواقعة في داخل القارات
- د — الهضاب والجهات المتوسطة الارتفاع
- هـ — الجبال والهضاب العالية

وبهذا يجوز أن ينقسم العالم إلى خمسة وعشرين قسماً إذا كانت هذه الفروق موجودة في كل إقليم . ولكن الحقيقة أنها نظراً لعدم وجود هضاب أو جبال في بعض الأقاليم نراها تنقص بالفعل إلى نحو اثنين وعشرين إقليماً وهي موضحة بالخرطة المدرجة هنا ولنا الآن في مقام الشرح التفصيلي لكل من هذه الأقاليم ؛ وكلها لا تخلو في الواقع من السكان ، ولكن إذا كان لنا أن نرتبها حسب كثرة السكان ؛ فالتنا نرى أن أكثرها سكاناً هو بلا شك الجهات التي تتوفر فيها الحرارة والمطر : مثل الجهات الموسمية والاستوائية ، إذا تم التغلب عليها ومكافحة الغابات فيها ، ويلها الجهات الدافئة مثل الصين الشمالية ومصر وحوض البحر المتوسط ، ثم تليها الجهات الباردة وهلم جرا

والشدوذ الوحيد على هذه القاعدة هو ازدحام السكان في الأقطار الصناعية ، ولكن هذا الشدوذ لا يقاس عليه لأنه مبني على حالة غير مألوفة وهي — عادة — وجود معادن في بطن الأرض ،

وحيثما وجدت هذه المعادن فإن الناس ستتكاثر حتما للبحث عنها ،
وتتجمع للاشتغال باستخراجها واستغلالها . وأما فيما عدا ذلك
فإن الجهات ذات الحرارة والمطر تتسع لعدد من السكان أكبر
بسبب وفرة الغلات الزراعية فيها

ولا يفوتنا أن نذكر أن أقاليم هربرتسن هذه تقرب كثيراً
من الأقاليم النباتية . غير أن الترتيب الذي اتبعه هربرتسن
في تقسيمه ونظره إلى جميع الظواهر الطبيعية يجعل تقسيمه
وطريقته أنفع وأجدر أن تقرب فهم الأقاليم إلى ذهن لقارى

الفصل السادس

الحرف المختلفة للسطح

أثرها في كثرة السكان وقلتهم

الآن وقد أسهبنا في وصف الأقاليم وظاهراتها الطبيعية وما قد يصلح منها أو لا يصلح لحياة الناس ، وجب علينا أن نبادر فنذكر أن مجرد صلاح الإقليم لا يكفي لأن يمتلئ بالناس ويزدهم بالسكان ، بل لا بد للناس أن يكونوا قادرين على الانتفاع بتلك البيئة الصالحة واستغلالها أحسن الاستغلال ، بحيث تؤدي إلى السكان الوظيفة الرئيسية لكل بيئة ، وهي أن تمكنهم من المحافظة على حياة الفرد وحياة المجتمع . وطريقة الانتفاع بالبيئة هي ما نعبر عنه بحرفة السكان التي تسود بينهم ، سواء أكانوا يحترفون حرفة الصيد أو الرعي أو الزراعة أو الصناعة أو هذه كلها أو بعضها أو غيرها

ولقد رأينا في الفصل الثالث من هذا الكتاب كيف تدرج الناس في وسائل الانتفاع بسطح الأرض وبطبيعته ، وتنقلوا من مرتبة الصيادين إلى مرتبة الرعاة ، ثم إلى الزراعة فالصناعة ، وهم

في هذه الأحوال كلها قد لا يخرجون عن البيئة التي نشأوا فيها ؛
ولكن الذي تطور وتغير هم السكان أنفسهم . ومن الأمثلة على
هذا ما قد حدث في العهد الأخير من تطور الحياة في استراليا
 وأمريكا الشمالية ؛ فان الناس كانوا أول الأمر صيادين يقتاتون
مما يقنصونه من الوحش أو الطير ؛ وظلوا هكذا دهرًا طويلًا ، حتى
دخل البيض إلى هذه الأقطار فأخذوا يدخلون فيها صناعة
الرعى والزراعة ، ثم ما لبثت حتى انتشرت فيها المصناعات المختلفة ؛
وهي في كل هذه الأحوال تزداد ازدحامًا بالسكان

ولكن هنالك جهات في سطح الأرض في وقتنا هذا لا يزال
أهلها يعيشون صيادين أو رعاة : إما لأن البيئة من طبيعتها لا تسمح
بأن يحترف الناس الزراعة مثلاً ، أو لأن السكان في حالة من
التأخر ، أو قلة العدد لا تمكنهم من استغلال بيئتهم على الوجه
الأكمل ، أو قد يكون الصيادون أو الرعاة قد ألفوا عيشتهم هذه
وأحبوها حباً شديداً ، فلا يريدون أن يغيروا أسلوب حياتهم ،
وينفرون أشد النفور من عيشة الزراعة وما تطلبه من عناء وجهد
وذل وعذاب

وأياً كان الباعث على احتراف الناس هذه الحرف البسيطة
في زماننا هذا ، فان سكان العالم في الوقت الحاضر ينقسمون
بحسب حرفتهم أقساماً وفاقاً ؛ وهنالك اختلاف في كثافة

السكان يتبع في أكثر من الأحيان اختلاف الحرف ، ولهذا يحسن بنا هنا أن نسرّد هذه الحرف واحدة واحدة ، ثم نشرح باختصار الجهات التي تسود فيها كل حرفة

١ — إن أبسط الحرف جميعاً هي التي يطلق عليها اسم : **حرفة الجمع أو الانقراط** . وهي من البساطة بحيث لا تكاد تستحق أن تدعى حرفة ، فإن الذين يحترفونها لا يقومون بعمل سوى أن ينتقلوا من ناحية إلى ناحية يجمعون الثمار وجذور النبات ، وبعض الأعشاب والطحالب ، وطائفة من الحشرات والديدان التي استساغوها واستعذبوها ، وبهذا وأمثاله يقتاتون ؛ فهم عاجزون حتى عن الصيد ، لأن هذا يتطلب آلة وعدة ، وليس لديهم من هذا شيء ، ويتطلب ذكاء وحيلة وعلماً بعادات الحيوان ، وهم خلّو من هذا كله ، وأكثرهم يعيش حياة ضنك وفقر ؛ والذين يعيشون بالقرب من البحار ، قد يلتقطون بعض المحار أو الأسماك التي تقذفها الأمواج أو يتركها مد البحر وجزره . وبالطبع هذه المرتبة أحط المراتب جميعاً ، وأصحابها قليل عددهم جداً ، لأنهم لو كانوا يوماً على شيء من الكثرة ، فإن التنارع على البقاء بينهم وبين من هم أقدر منهم من الشعوب لا بد أن ينتهي بخذلانهم ثم بانقراضهم ، ومع ذلك فإن انقراض الجنس أمر عسير ، ولهذا لا يزال منهم عدد قليل موزع مبعثر في أواسط إفريقيا وغيرها ،

ولقلته لا يحتل إقليماً كاملاً ، وينظر إليه الزنج نظرة الاحتقار الشديد والازدراء .

٢ — المرتبة الثانية هي : مرتبة الصيد ، سواء في ذلك صيد البر أو صيد الماء . وهذه المرتبة تستلزم شيئاً غير قليل من التقدم ، فلا بد للصيد من سلاح وآلة ، ولا بد له من فهم لعادات الحيوان ، وقوة جثمانية لا يستهان بها ، وكذلك لا بد له من شيء من النظام الاجتماعي والتعاون بين الجماعات لمهاجمة القطعان العظيمة ، ولصيد الحيوانات الكبيرة الحجم ، ونرى حرفة الصيد لا تزال منتشرة — إما بمفردها بحيث لا يحترف السكان حرفة أخرى ، أو مع شيء من الزراعة البسيطة تمارسه النساء ، في الجهات الآتية :

(١) في الأقاليم القطبية نرى جماعات من الاسكيمو في جرينلاند وفي شمالي كندا وألاسكا ، وحرفتهم الوحيدة هي الصيد ؛ وصيدهم مزيج من صيد البر (الزنقة وغيرها من الدواب) وصيد البحر ، وعلى الأخص صيد أسد البحر

(ب) في بعض الصحارى : مثل صحراء كلهارى حيث قبائل البشمان لا تزال تعيش عيشة الصيد وسط هذه القفار التي لا تلائمها حياة الصيد ، وإنما اضطروا الآن ياجأوا إلى الصحراء هرباً من مطاردة المستعمرين . ومن قبل كان البشمان منتشرين في النصف الجنوبي من قارة إفريقيا ، وهم لا يستطيعون أن يمارسوا حرفة أخرى ،

شكل (١٢) ضبعة توضح توزيع الحرف



ولهذا نراهم في بيئتهم الجديدة القاسية المجذبة مهددين بالانقراض وكذلك الحال في صحارى أستراليا . فقد كان سكانها الأصليون يمارسون الصيد في مختلف أنحاء القارة ، ثم أكرهوا اليوم إلى الاعتصام بالصحراء بعد مطاردة البيض لهم واستئثارهم بالأراضي الصالحة

(ح) في أقاليم الغابات الاستوائية : نرى كثيراً من الأقزام والزوج في افريقية وعلى الأخص في بعض جهات الكونغو يحترفون الصيد ، وقد نظموا مجتمعاتهم بناء على هذه الحرفة . وكذلك يفعل الهنود في حوض الأمازون

وقد توجد جماعات تعيش من الجمع والالتقاط أو من الصيد في جهات أخرى قليلة المساحة مثل بعض غابات الدكن أو الملايو ، ولكننا نضرب صفحاً عن ذكرهم لقلّة عددهم . وقد وجد عالمنا الذي نعيش فيه والذي لا يترك مورداً إلا استغله ، وجد وسيلة للانتفاع بصناعة الصيد والالتقاط ، فإن كثيراً من إنتاج المطاط كان إلى وقت قريب نتيجة التقاطه من الغابات لازراعته في الحقول . وكذلك انتفع الناس بما يحصلون عليه من الصيادين من جلود الحيوانات أو أنيابها (مثل أنياب الفيل) . وللأسف لم يكن تدخل الاستعمار التجارى دائماً لمصاحبة هذه الجماعات التي تعيش على الفطرة ، والتي كثيراً ما كانت تسرف في قتل الصيد

الذى هو مصدر حياتها فينقرض ، وكثيراً ما كانت تتقاضى أجرها خوراً وسموماً كحولية تهاكها وتقضى عليها ، وهى اتى لم تألف تعاطى هذه السموم ، ولم تكتسب شيئاً من المنعة الطبيعية لتقاوم به آثارها الفتاكة

٣ - صرفة الرعى

لم تزل فى العالم أقطار فسيحة سكانها لا حرفة لهم سوى الرعى . وقد يكون لديهم إلى جانب الرعى زراعة قليلة تقوم بها النساء — إذا ساعدت طبيعة الإقليم على هذا — أو شئ من التجارة بأن يستخدموا دوابهم فى النقل عبر الصحراء . ولكن اعتمادهم الأول هو على ماشيتهم وما تغله من ألبان ووبر وشعر . ولا يزال الرعى منتشرأ فى الجهات الآتية ؛ وهى بالطبع كلها أقاليم حشائش وأعشاب ، قلت أو كثرت

(ا) فى الأقطار القطبية : نرى ظاهرة عجيبة وهى أن سكان التندرة فى أوربا وآسيا لا يعيشون من صيد الرنة (الوعل القطبية) فقط بل يعملون جهدهم لرعايتها وتربيتها ، ولديهم منها قطعان كبيرة مستأنسة . فغذاؤهم من ألبانها ولحومها ، وكذلك يعززون أغذيتهم بما قد يصيدونه من سمك البحر أو النهر .

(ب) فى السهوب : أى أقاليم الحشائش فى المنطقة المعتدلة ،

وعلى الأخص في جهات التركستان وأواسط آسيا نرى كثيراً من القبائل لا تزال تعيش عيشة الرعى ، ولهم قطعان عظيمة من الخيل وطائفة من الحيوانات الأخرى ، ولكن أهم ماشيتهم الخيل التي يتغذون بلبانها — وفي أحيان قليلة بلحمها أيضاً ، ثم هي بعد ذلك ثروتهم وعدتهم في السلم والحرب . وقد انتشرت رعاية الخيل بعد ذلك في أمريكا الجنوبية والشمالية في جهات السهوب التي تلتئم الخيل ، وكثرت فيها كثرة هائلة

(ح) الصحراء : وفي صحارى افريقية وآسيا عدد كبير من القبائل الرعاة وبالطبع رعيهم هنا هو للابل ، ولولاها لما كان في الصحراء رعى . وكثير منهم يشتغل بشيء من التجارة لعلمهم بطرق البقاء ، ولتلكهم الإبل . وفي الواحات زراعة يقوم بها عادة العبيد أو الأجراء تحت إشراف النساء . وقد يرعى مع الإبل بعض الغنم وكثير من الماعز .

(د) السفانا : وفي أقاليم الحشائش في المنطقة الحارة نجد رعاة البقر ، لأن الأعشاب عالية غنية رخصة طرية ؛ والبقر يتطلب مرعى طيباً . ولهذا كثر رعاة البقر في السفانا . حتى في الجهات الصالحة للزراعة منها ، ونرى الزنوج في افريقية مثلاً لا ينصرفون عن الرعى إلى الزراعة إلا مكرهين

وهناك عدا هذه الجهات أقطار يعتمد أهلها كثيراً على

الرعى ، وهذا بنوع خاص شائع في الجهات الجبلية ، التي لا تكاد تصلح إلا لهذه الحرفة ، كما هو مشاهد حتى في جبال أوربا
وحيثما كان الرعاة ، فإنهم تغلب عليهم البداوة ، وتضطربهم حرقهم إلى شيء من التنقل ، وهم في بعض الأحيان مكرهون على الرحيل في مختلف المواسم طلباً للسكناً ، فإن أجذب مرعى انطلقوا في طلب مرعى سواه ، مصطحبين قطعانهم وبيوتهم ، وهي من الشعر ، وآنياتهم وآلاتهم ، وهي قليلة يسيرة ، وقد يكون لهم موطن ثابت فيطوفون ما يطوفون ثم يرجعون إليه . ومنهم جماعات لا يرحل منها مع المشاة إلا فريق من القبيلة ، ويبقى الآخرون في ديارهم

وهم في كل هذه الأحوال في حاجة إلى مساحات كبيرة من الأرض ، لكي يتوافر لديهم المرعى في العام كله . ولهذا بالطبع تكون كثافة السكان قليلة

والرعاة في كثير من الأقاليم يحتلون أرضاً صالحة للزراعة ، ولا يمنعهم من احتراف هذه الحرفة سوى احتقارهم لها . ولكن الحكومات القوية التي لها السلطان على تلك الأقطار تحاول جهد استطاعتها أن تحولهم عن الرعى إلى الزراعة ، لأن حرفة الرعى تجعلهم في حالة تنقل واضطراب دائم ، فلا تستطيع الحكومة أن تبسط نفوذها عليهم أو تخضعهم لما تتطلبه الحياة
(٨ - ك)

الحالية من نظم تبدو للرعاة من غير شك قاسية ظالمة . وبعض الدول مثل فرنسا في بلاد المغرب تحاول تعليم الرعاة الزراعة ، وتبذل لهذا جهداً كبيراً وتوفر لهم ما يحتاجونه من الماء بحفر الآبار واختزان المياه . وروسيا في عهد القيصرية كانت تُسكّر الرعاة على أن يظلوا في مكان واحد لا يتحولون عنه ، وهذا يضطّرهم حتماً إلى الاشتغال بالزراعة . والانكليز في الهند يحاولون أيضاً بشيء من الحيلة والإكراه أن يجعلوا من الشعوب التي تعيش في شمال الهند الغربي زراعا ، وقد نجحوا في هذا بعض النجاح بفضل مشاريع الري الكبرى التي أُقيمت في مجرى نهر السند .

٤ — والزراعة منتشرة في جهات عديدة . ويمكننا أن نميز منها ثلاثة أنواع مختلفة :

(١) الأولى زراعة الشعوب التي تعيش على الفطرة وهي التي يطلق عليها اسم الزراعة الأولية . وهي منتشرة لدى الزوج في إفريقية ، وأكبر ما يمتاز به أن الأرض لا تحرث وأصحابها لا يعرفون الحراث ، ولا تسمد ، ولا يراعى فيها دورة زراعية ؛ بل تزرع العام بعد العام ، وفي كل سنة تتناقص الغلة ، وبعد بضع سنوات تكون خصوبة الأرض قد استنفدت ، فينتقل الزنجي إلى قطعة أرض جديدة يزرعها بالطريقة السالفة وهم جرا . ونظراً لاتساع المساحة وقلة السكّان لم يجد الناس أنفسهم

مضطرين إلى اتباع طريقة أخرى في زراعتهم

(ب) النوع الثانى : الزراعة فى مزارع واسعة فى الأقطار الجديدة : أى التى دخلتها الشعوب المتمدنة حديثاً ؛ مثل أمريكا وأستراليا . وفى هذه الأقطار القليلة السكان بالطبع لحدثة عهدها بالعمران تزرع الأرض مساحات واسعة تقدر بمئات الأفدنة بواسطة الآلات التى تستخدم فى الحرث والبذر ، والتطهير والحصاد ، بحيث يستطيع الشخص الواحد أن يقوم بزراعة عشرات بل مئات الأفدنة ، ولا يحتاج إلا إلى مساعدة قليلة . وبالطبع ليس كل الغلات صالحاً لهذا النوع من الزراعة الذى يطلق عليه اسم الزراعة الواسعة ، وإنما يصلح له أنواع خاصة مثل القمح أو الذرة

(ح) النوع الثالث : الزراعة الكثيفة Intensive

Agriculture ، حيث يكثُر السكان ويريدون أن يستغلوا أرضهم إلى أقصى حد . فنراهم يعنون بحرثها وتسميدها ، وتطهيرها من الأعشاب الغريبة ، ويراعون دورة زراعية خاصة ، ومتى بذروا أو دعوا التربة أكبر مقدار من الحب يستطيعون بذره ، بحيث تؤتى الأرض غلة فائقة . ويزرعون كافة الأنواع مهما احتاجت الزراعة إلى الأيدي العاملة ؛ وهذا هو النوع الذى نجده فى جهات مثل مصر والصين والهند وأوروبا

٥ — التعرّين :

إن البحث عن المعادن ليس أمراً جديداً ، بل يرجع إلى عصور قديمة خلت ؛ ومن أجل استخراجها من طباق الأرض يتجمع الناس ويحتشدون في أى أرض وفي أى إقليم ، لا يحول دون ذلك هواء فاسد أو تربة مجذبة ، أو تناء في الحرارة أو البرودة . وقد احتشد الناس في كثير من الجهات المقفرة ، مثل صحراء سينا ، وصحراء مصر الشرقية في الزمن القديم ، وفي صحراء أستراليا ، وفي ألاسكا في زماننا هذا من أجل البحث عن الذهب . ولولا الذهب والماس ما كثر سكان إفريقيا الجنوبية إلى الدرجة التي بلغوها ، والبلاد ليست خصبة التربة ولا غزيرة النبات ، وليس توزيع المعادن على سطح الأرض مطابقاً لقانون أو نظام ، بل راجع إلى وجود المعادن المودعة في طباق الأرض في صورة تجعل استخراجها أمراً مربحاً

وليس استخراج جميع أنواع المعادن باعثاً على ازدحام السكان ، لكن بعضها يحتاج إلى الكثير جداً من الأيدي العاملة . وأظهر مثال لهذا الفحم ، فقد امتلأت أقطار عديدة بالسكان في انكلترة وألمانيا وغيرها — ولا عمل لهؤلاء الناس سوى النزول إلى المناجم وقطع الفحم ، وحمله إلى خارج المنجم .

فتكونت مدن صغرى وكبرى حياة أهلها وموارد رزقهم كلها مرتبط باستخراج الفحم أو الاتجار فيه ، أو خدمة المشتغلين بأمره .

وازدحام الناس بهذا الشكل ليس له بالطبع قانون من قوانين الطبيعة ، اللهم إلا وجود المادة التى يراد استخراجها . بل إن وجودها وحده لا يكفي ، بل يجب أن يعلم الناس بوجودها ، وأن يكون لاستخراجها فى نظرهم شأن . فلقد علم الناس منذ زمن طويل بوجود النفط فى العراق ، وكانوا يستخرجون منه القليل لحاجتهم ، فلم يكن هذا باعثاً على تجمع الناس واحتشادهم لاستخراجه إلا فى زماننا هذا ، حين اشتد التساؤل على آبار البترول ، وتنافست الدول فى امتلاك موارد هذه المصلحة الثمينة . ولو أصبحت لرمال الصحراء فائدة تأتى بربح وافق ، لما ظلت الصحراء ذلك المكان المقفر المهجور .

والقارىء يدرك بلا شك أن توزيع السكان من أجل البحث عن المعادن واستخراجها يسير على سنة تختلف اختلافاً تاماً عن ازدحام الناس من أجل استغلال الموارد الزراعية ، فإن الحالة الأولى ليس لها نظام مطرد ، وأما الثانية فإن نظامها تابع بدرجة عظيمة إلى طبيعة سطح الأرض ، تابع للقوانين الطبيعية من حيث توزيع الماء والحرارة والتضاريس . ولهذا كان لابد

لمن يدرس توزيع السكان على سطح الأرض أن يفرق بين هذين العاملين ، ويعرف لكل منهما قدره .

٦ — الصناعة

معنى الصناعة تحويل مادة من صورة إلى صورة بواسطة قوة يستخدمها الإنسان . ولا بد للصناعة إذن على الأقل من أمرين :
المادة المراد صنعها ، والقوة التي تستخدم لتحويلها . وفي الزمن القديم - بل وإلى أوائل القرن الماضي - لم يكن للصناعة شأن كبير في توزيع السكان ، لأن المصنوعات كانت قليلة كما كانت المبادلة بين الأقطار قليلة أيضاً . وقد انقلبت الأوضاع في القرن الماضي انقلاباً هائلاً حين حدث ما يسمى بالثورة الصناعية ، التي كان معناها أن يتجمع عدد هائل من الناس في قطر محدود ، وليس لهم من عمل سوى ممارسة الصناعة بمقادير هائلة . وحلت الآلات الضخمة محل الآلات البسيطة الأولى ؛ وقوة البخار المستمد من الفحم ، أو السكرهء المستمدة من القمح أيضاً أو من مصدر آخر غير القمح ، حلت هذه القوى محل قوة الإنسان أو الحيوان

ونشأ عن هذا كله تلك الظاهرة الهائلة التي تدعى تركيز الصناعة ؛ أي أن تُخصَّصَ أقطارٌ برمتها للصناعة وحدها ، وفي

بعض الأحياء لصناعة واحدة (كالحديد ، أو الصوف ، أو القطن) . وأحياناً يكون تركيز الصناعة حيث توجد مصادر القوة — وبنوع خاص الفحم . وأحياناً تركيز الصناعة حيث توجد المادة الأولية التي يراد صنعها — وخصوصاً إذا لم يكن هنالك حاجة في هذه الصناعة إلى كثير من الوقود

وهكذا نشأت بتقدم الصناعة وكثرتها أقاليم شديدة الازدحام بالسكان ، لأن الصناعة الحديثة بطبعها تضطر الناس لأن يتجمعوا في مصنع كبير ، وأن يعيشوا قريباً من هذا المصنع ، وأن تكون لهم في بلادهم الصناعية حاجاتهم ، فتنشأ من أجلهم متاجر ومخازن لسد حاجتهم من مطعم وملبس وما إلى ذلك ، ومدارس لتعليم أبنائهم ، ونواد لاجتماعهم ومسراتهم ولهواهم . وفي الأقطار الصناعية نرى هذه المدن منتشرة الواحدة إلى جانب الأخرى إلى مسافات عظيمة كما هو واضح من توزيع المدن والسكان في إقليم الرور بألمانيا ، أو في لانكشير في انكلترة . أو حول بتسبرج في الولايات المتحدة

ولا شك في أن التعدين والصناعة إذا اجتمعا — وكثيراً ما يجتمعان في أقاليم واحد — ينشأ عن اجتماعهما ازدحام شديد في السكان ليس له نظير في أى إقليم يحترف أهله حرفة أخرى كالزراعة مثلاً . حقيقة لقد وجدت أقطار زراعية اشتد فيها الزحام

بصورة تقرب من ازدحام الجهات الصناعية ؛ ولكن في هذه الحالة يكون الزراع في حالة شديدة من البؤس والفقر ، ولا ينالون من القوت إلا الزهيد الذي لا يكاد يسد الرمق . وأما الأقطار الصناعية فهما ازدحمت ، فليس هذا الازدحام معناه الشقاء ما دامت الأجور طيبة ، والصناعة منتشرة تجدد أسواقاً وربحاً . فإذا افترضنا أن جهة زراعية في الصين يعيش أهلها بنسبة ٣٠٠٠ في الميل المربع ، فإن معنى هذا عيشة ضئيلة وشدة ، لأن ما تغله هذه المساحة من القمح أو الأرز لن يكون فيه الكفاية لتغذية هؤلاء الناس وقضاء حاجاتهم الأخرى ؛ وحياة تسعة أشخاص من غلة فدان واحد ليست بالشئ اليسير . أما ازدحام ٣٠٠٠ نفس في الميل المربع بأرض صناعية ؛ بل أضعاف هذا العدد أمر هين ، ولا يدل على شدة أو فقر

والجهات الصناعية التي فيها هذا الازدحام الشديد مقصورة على الأقطار التي قطع سكانها شوطاً بعيداً في التقدم الاقتصادي ، وكثير عديدهم وتفوقوا في ميدان العمل . وكثرة العدد وحدها لا تكفي لقيام الصناعة ، ما لم يصاحبها تفوق في العلم بالأساليب الصناعية وكيفية تنظيم الصناعة ، كما أن هذا العلم لا يكفي من غير وفرة الأيدي العاملة

نرى مما تقدم أن هنالك علاقة وثيقة بين ازدحام الأقطار بالسكان وبين الحرفة الشائعة بينهم . وعلى الترتيب الذى ذكرناه تزداد البلاد ازدحاماً حتى تصل إلى أقصى حد فى الأقطار التى كمل نموها الصناعى

وفى وسعنا أن نذكر هنا أرقاماً تدل على حالة السكان فى مختلف الحرف ، على أن تكون هذه الأرقام للمقارنة فقط ؛ دون أن ينظر إليها بأنها دقيقة غير قابلة للتعديل :

١ — فالصياد يحتاج إلى مساحة تتراوح بين ٧٠ و ٢٠٠ ميل مربع فى أقاليم التندره ، وإلى مقدار أقل من هذا قليلاً فى الجهات الصحراوية مثل استراليا وكلمبارى

٢ — وإذا مارس الصياد شيئاً من الزراعة — كما هى الحال فى أواسط إفريقيا فيكفى أن يكون للفرد الواحد مساحة تتراوح بين نصف ميل وميلين

٣ — أما الرعاة البدو فإنهم قد يعيشون بنسبة اثنين إلى خمسة أشخاص للميل الواحد إذا لم يمارسوا زراعة

٤ — ويعيشون بنسبة ١٠ إلى ١٥ شخصاً للميل الواحد إذا مارسوا شيئاً منها

٥ — أما الزراع فيختلفون كثرة أو قلة حسب طرق الزراعة التى يتبعونها . والذين يمارسون الزراعة الأولوية من غير

حرث ولا تسميد ولا عناية بالتربة تكون كثافتهم بين خمسة وخمسة عشر شخصاً للميل المربع

٦ — وفي الأفطار الجديدة مثل استراليا وزيلنده الجديدة وكندا وتكساس والأرجنتين تكون النسبة بين ٢٠ و ٢٥ للميل المربع

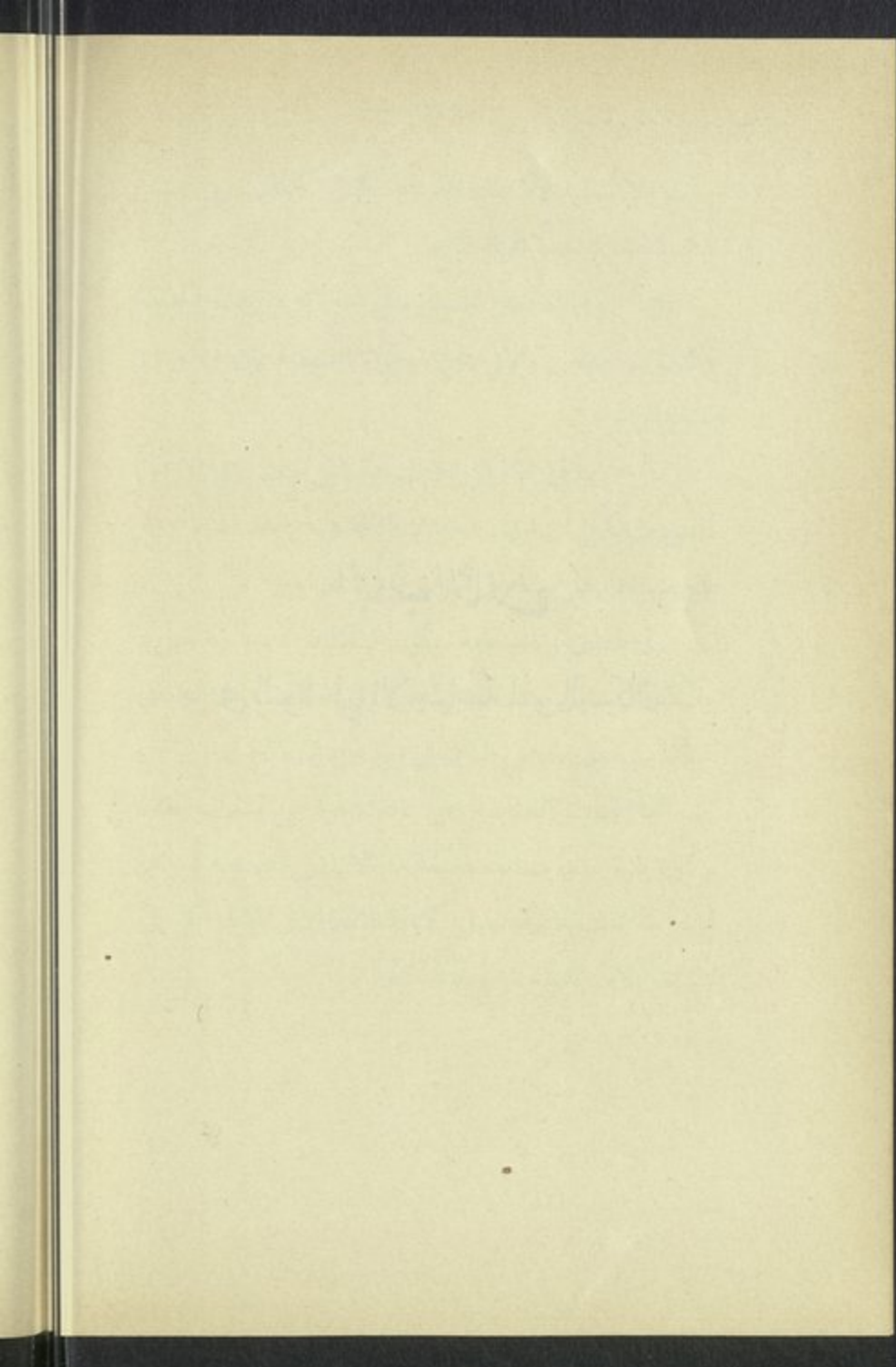
٧ — أما في حالة الزراعة التامة النمو حيث تغل الأرض أقصى ما يمكن أن تغله ، فنجد الكثافة في أواسط أوربا ١٠٠ شخص للميل المربع . وفي جنوب أوربا نحو ٢٠٠

وفي الصين والمهند عامة تكون الكثافة نحو ٥٠٠ للميل ، ولكنها تزيد إلى ضعف ، بل أحياناً إلى أضعاف ، هذا العدد في دلتا مصر ، وفي حوض اليانجتسى وحوض الكنج

أما الجهات الصناعية فهي عادة عبارة عن مدن صغيرة وكبيرة يفرق بينها مساحات ضيقة من الأراضي المخصصة للزراعة أو لتربية الماشية ؛ وقد تصل كثافة السكان في الإقليم كله إلى عشرة آلاف للميل المربع أو أكثر

الباب الثالث

في النواحي الاجتماعية لنمو السكان



الفصل السابع

كثافة السكان

عوامل الزيادة والنقص

لقد رأينا في الفصل السابق كيف يزداد السكان عدداً إذا استطاعوا أن يحترفوا حرفاً من شأنها أن تزيد في استثمارهم للموارد الطبيعية لإقليمهم . وليس يمكن لشعب أن يتكاثر عدده إذا ظل في عهد البداوة ؛ بل لا بد من حياة الاستقرار والاستيطان في بقعة واحدة ، فإذا زاد نسلهم أمكنهم بحسن استغلالهم لبيئتهم أن يجدوا من الرزق ما يكفيهم ويكفي ذريتهم ، وهكذا تأخذ البلاد في الازدحام بالسكان تدريجاً

والبدو إذا كثر عددهم بسبب رخاء عارض دام عدداً من السنين ، فإنهم لا يلبثون أن تعود حالهم إلى ما كانت عايشه ، فيضطرون إلى الرحيل عن أوطانهم إلى الأقطار المجاورة ، يدخلونها مسلمين أو غزاة فاتحين ؛ والتاريخ مملوء بقصص البدو الذين اندفعوا من مواطنهم ، وبسطوا سلطانهم على جيرانهم . وبهذا لم تكن زيادة عدد البدو سبباً في ازدياد سكان الصحراء

أو السهوب ووطنهم الأصلي ، بل سبباً في زيادة سكان الأقطار المجاورة لهم . وحياة البدو على كل حال لا تبعث على ازدياد كثافة السكان بدرجة تستحق الذكر . ولا جناح علينا إذا عدنا فتمثلنا بأمريكا الشمالية قبل الاستعمار الحديث ؛ فإن سكانها لم يتجاوزوا المليونين ما دام دأبهم التنقل في طلب الصيد ، حرقهم الوحيدة

فكثافة السكان إنما تتكون إذا ازداد الناس في العدد ، وظلوا في ديارهم فلم يبرحوها ؛ أو على الأقل لم يبرحها منهم إلا القليل

وازداد الناس أمر طبيعي ، فإن الغرائز البشرية والنزعات التي فطر عليها الناس ، والطباع التي جبلوا عليها ؛ كل هذا عبارة عن قوى هائلة تعمل كلها متحدة في سبيل بقاء النوع . فالأصل في الناس أن يتزايد عددهم على مدى الأيام ، وقد تزايد عددهم فعلاً تزايداً هائلاً برغم ما مر بهم من كوارث ، وما تعرضت له الشعوب من حروب وأمراض وأوبئة وعوامل مدمرة أخرى . وهنا يعرض لنا سؤال وهو هل هنالك اختلاف جوهري بين الأجناس والسلالات المختلفة ، من حيث كثرة النسل أو قلته ؟ هل بعض السلالات — بطبعها — كثيرة النسل ، وبعضها فقيرة مع العلم بأن بني الإنسان جميعاً من نوع واحد ؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أولاً أن نستبعد جميع العوامل العرضية التي قد تؤثر في النسل . فانتشار مرض من الأمراض بين شعب من الشعوب ليس دليلاً على فقر النسل . وهناك عادات أو أوضاع قد تؤثر في النسل كثرة أو قلة ، وهي شائعة بين بعض الشعوب دون البعض ، وهذه يجب أن تستبعد أيضاً . وكذلك يجب أن نخرج من بحثنا الجماعات التي انتقلت من بيئتها إلى بيئة لاتلائمها بل تجهدا وتضئها ، كما هي حالة الشعوب الشمالية . متى هاجرت إلى الجهات الحارة

فإذا استبعدنا جميع هذه الحالات العرضية ، فاننا يصعب جداً أن نتصور جنساً من الأجناس أو شعباً من الشعوب سليماً في مجموعه ، لا تتنابه عاهات أو أمراض ، يعيش في بيئة صالحة له ، ومع ذلك يكون أفقر نسل من سواء بدرجة محسوسة . وبالرغم مما قد يقال خلاف ذلك ، فاننا لا نعرف في العالم شعباً هذه حالته . والأمثلة التي قد تبدو لأول وهلة كأنها تناقض هذا الرأي ، لا تلبث إذا بحثناها أن نرى فيها أموراً عرضية أدت إلى نقص السكان . فمن المألوف مثلاً أن ترى في بعض الكتب أن الشعب الفرنسي قد انتابه الانحلال ، فلا يستطيع أن يتكاثر... وهذا لا يمكن أن يكون أمراً طبيعياً راجعاً إلى صفة خاصة بالجنس ، لأننا نرى الفرنسيين في كندا يعدون من أشد شعوب العالم

تناسلا . وإذا كان سكان فرنسا لم يتزايدوا فإن هذا راجع إلى أسباب عرضية سنذكرها في موضعها

وكذلك يقال كثيراً عن الجنس الزنجي أنه كثير النسل جداً . ويقال تعليلاً لهذا أنه لما كانت البيئة التي تعيش فيها الزوج عرضة لأن تنتابها الأمراض وتفتك بأهلها الوحوش ، فيموت الكثير منهم بسبب ذلك ، فإن الذين رزقوا ميزة النسل الكثير منهم ، هم الذين نجوا من غوائل هذه البيئة ، طبقاً لنظرية دارون في بقاء الأصالح وهلاك الأقل صلاحاً . وهذه الحجة نفسها — إن صححت — فيها اعتراف بأن الجنس الزنجي لم يكن — كجنس — ممتازاً بزيادة النسل على سواه ؛ وإنما البيئة هي التي أفنت الأفراد القليلي النسل ، وأبقت كثيري النسل منهم ، وتوارث نسلهم هذه الصفة عنهم . على كل حال إن تأثير البيئة أمر عرضي ولو استبعدناه لأصبح الزوج وشأنهم في هذا كشأن غيرهم من الناس . وعلى ذلك فلقد رأينا شعوباً بيضاء تتزايد تزايداً خارقاً للعادة — كما حدث مثلاً في ألمانيا في أواخر القرن الماضي — حتى كان بعض الألمان يفخرون بهذا على جيرانهم غرب نهر الرين . فسا بال الألمان اليوم قد ضعف نموهم بحيث لا يزيدون كثيراً عن جيرانهم ؟

لقد يكون هنالك أفراد في كل جنس من الأجناس أكثر

تناسلا من غيرهم . ولكن الأجناس كفروع وأقسام للنوع
البشرى ليس فيها تفاوت يستحق الذكر

فالأصل في الناس جميعاً أن يتزايدوا ويتكاثروا . فإذا
كانت زيادتهم نتيجة تناسلهم سميت الزيادة طبيعية ، وإذا
كانت نتيجة دخول المهاجرين من الأقطار الأخرى لم تكن
زيادة طبيعية

على أن ازدياد السكان وإن كان نتيجة ازدياد المواليد على
الوفيات ، ورغم أن الاستعداد البشرى للنمو يكاد يكون واحداً
في جميع الأجناس والشعوب ، فإن هنالك ظروفاً مصطنعة وطبيعية
تؤثر في ازدياد أو نقص المواليد وفي تقليل أو إكثار الوفيات .
ولا بد لنا من تحليل هذه العوامل الباعثة على زيادة السكان
أو نقصهم ، والتي تتدخل في النظام الطبيعي فتعديله تعديلاً
جوهرياً

هنالك أمور وضعية غير طبيعية ، مما اصطاح الناس عليه ،
وبعضها قد يرجع إلى قانون أو عرف أو عادة أو عقيدة ، تساعد
كثيراً على نمو السكان وزيادة النسل . فالتبكير في الزواج قد
يكون عاملاً في زيادة النسل ما لم يؤثر في صحة الأم أو الأب ؛
وإباحة تعدد الزوجات تكون في الغالب سبباً في كثرة النسل ،
(٩ — ك)

إذا انتفع بهذه الإباحة عدد كبير من الناس . وفي الصين ، حيث عبادة الأجداد جزء من الدين ، بل مظهر من أكبر مظاهره ترى الناس يحبون النسل حباً جماً ، ويبدلون قصارى جهدهم في أن تكون لهم ذرية كثيرة جداً وعلى الأخص من البنين ومن العوامل الوضعية البحتة ما قد يقلل من نمو السكان قليلاً كثيراً ، وهذا قد يرجع إلى فقر البيئته ، وقد يرجع إلى عادات أو عرف أو نظام متبع . ومن هذه العوامل :

١ - الرهينة

لقد يكون الباعث على الرهينة شدة التدين ، والرغبة في التفرغ للعبادة ؛ وقد تكون في بعض الأقطار الفقيرة أو المزدحمة نتيجة — ولو بطريقة غير محسوسة — لفقر البيئة ، كانتشار الرهينة في هضبة التبت . وأياً كانت الأسباب الباعثة على الرهينة فإنها تنزع من المجتمع عدداً من بنيه وبناته ، وتخرجهم بذلك من عداد المنتجين للنسل

ب - نظام تعدد الأزواج

وفي هضبة التبت وشمال الهند جماعات يباح لديها تعدد الأزواج ، ومن البديهي أن هذا العرف باعث على قلة النسل

ح - وأد الأولاد

لعل أفضح وأبشع صورة لتقليل النسل هي وأد الأولاد ، أيا كان السبب الباعث عليه . ولقد اضطر الإنسان في كثير من الأحوال لأن ينظر في وسيلة يتوصل بها إلى تقليل النسل ، ولكن التخلص من الأولاد بالقتل ينزل بالإنسان إلى أحط من مرتبة الوحوش الضواري . وبالطبع كان الباعث عليه الفقر ؛ وقول بعض العرب إنهم فعلوا ذلك خوف العار هو في نفسه سبة لهم ، لأن معناه أن بناتهم مصدر عار بدلا من أن يكن محل صيانة وتكريم ، ومصدر نبل وشرف

د - الاضطهاد (Persecution) والمزاج

معنى الاضطهاد أن ينال فريق من سكان البلاد من الفريق الآخر بالنكاية أو التعذيب أو سوء المعاملة ، واغتصاب الأملاك أو القتل . وفي هذه الحال قد ينقلب الاضطهاد إلى مذبح ، مما يضطر الناس إلى الهجرة أو إلى أن يعيشوا في فقر وذل ومسكنة ؛ وهذا كله إما أن يكون سبباً في إخراجهم من البلاد كلية أو إلى إضعافهم بحيث يقل نسلهم . واضطهاد الإنكليز للآيرلنديين هو من هذا النوع ، وقد أدى إلى نقص السكان في آيرلنده كما سنراه في موضعه نقصا شديدا

ومن أنواع الاضطهاد الشائعة أن يُرْهَقَ فريقٌ من الأمة — وهم عادة الزراع — بالضرائب ، بحيث تحل بهم الفاقة من أجل غنى فريق ضئيل من سكان المدن . وقد ينتهى هذا الأمر إلى إهمال الزراعة ، ونزوح أهل الريف إلى المدن ، واختلال نظام الحياة فى البلاد وانتشار الفقر . وللأسف إن الطبقات الحاكمة فى كثير من الأحيان قصيرة النظر ، بحيث لا تدرك أهمية المحافظة على وحدة الأمة ونشر الرخاء بين طبقاتها على السواء . وإلى هذا السبب يعزو كثير من الكتاب سقوط الدولة الرومانية . وهناك أثر منه واضح فى الحياة ، أو شبه الحياة ، المصرية

هـ — الحروب

من العبارات التى نسمعها كثيراً قول القائلين بأن الحروب لا بد منها لكى تقلل من هذا العدد الهائل من السكان ، الذين لا يمكن أن تسعهم الأرض . وفى هذا بالطبع تسليم ضمناً بأن الحروب عامل فى تقليل السكان . وقد نسمع البعض يزعم أن الحرب هى ظاهرة كونية شأنها فى ذلك شأن النجوم فى السماء والسحاب فى الجو . والحقيقة أن الحرب من وضع الإنسان ، ومهما قيل فيها مدحاً أو ذمماً فعلى الأقل يجب أن نعترف بأنها ليست كونية ولا سماوية وإنما هى أرضية من صنع أهل الأرض

وأما الترحيب بالحروب على أنها سبب في تقليل السكان ،
فأمر يدل على قصر النظر وخطأ الرأي ؛ إذ ليس المعقول إذا
أردنا أن تقلل السكان أن نختار أقوام جسماء وأصحاء عقلاً
وأشجعهم قلباً ونقدمه فريسة للحديد والنار . . ومن المعقول
جداً إذا كان لا بد من تقليل عدد الناس أن ننتقى الضعفاء
والمرضى والجرمين ، والأفاكين والخائنين ، ونقضى عليهم . أما أن
يقضى على أشرف عنصر في الأمة وأكرمهم وأبسله وأجمله ، فما
لا يمكن أن يقول به عاقل

ويزعم بعض دعاة الحرب — كزعماء الفاشست في إيطاليا
مثلاً — أنها وسيلة لتقوية قلوب الشباب ، إذ تبعث فيهم النخوة
والهمة والرجولة . . ولا بد أن تكون تعمة جداً تلك الأمة التي
لا يستطيع أبناؤها أن يكونوا شجعاناً إلا بسفك الدماء وإزهاق
الأرواح !

وللأسف قد وجدت شعوب لها كثير من الصفات الحميدة ،
قد بادت أو ضعفت على مضي السنين ، لأنها كانت تدين بدين
الحرب ؛ كما أنه من الممكن أن يضطر شعب إلى الحرب اضطراراً
للدفاع عن أرضه والذود عن حوضه ، ويتحمل من جراء ذلك
خسارة جسيمة في الأرواح . وسكان الأناضول الذين كانت
لا تمضى عليهم بضع سنوات في عهد سلاطين آل عثمان إلا

ويدعون إلى حرب ، قد ضعف نموهم كثيراً في القرن الماضي
والجاهدون الذين يقتلون في الحرب يكونون سبباً في نقص
السكان ، لأن الأمة تفقد من جهة ، ولأن الأمة ستحرم من
نسلهم من جهة أخرى ، كما تحرم الأمة من نسل جميع المحاربين
طول مدة الحرب . ومن الجائز أن الأمة ربما ازداد عددها بعد
اتهاء الحرب ، بحيث تعوض ما فاتها ، ولكن الضربة تكون
مؤلمة لبلد مثل فرنسا اعتادت أن تنمو نمواً بطيئاً

و - منع الحمل أو الاقمول منه

لقد بات أمراً شائعاً في جميع أنحاء أوربا وفي معظم جهات
أمريكا ، أن تتبع وسائل خاصة من شأنها تقليل الحمل وتحديد
النسل ، وسنعالج هذا الموضوع في فصل خاص لأهميته . وحسبنا
أن نذكر هنا أن هذا العامل الوضعي البحت قد أصبح من
أكبر وأهم الوسائل المؤدية إلى تقليل عدد السكان ،
ومنع نموهم

هذا وصف موجز للعوامل الغير الطبيعية التي تؤثر في السكان ،
أما العوامل الطبيعية فكثيرة أيضاً . ولا حاجة بنا لأن نشرح
أثر العوامل الطبيعية في ازدياد السكان . فحسب كل أمة أن يكون

أفرادها سليمين جسماً ونفساً ، وأن يسيروا على طبائعهم لكي
يزداد عددهم ازدياداً مضطرباً هائلاً . لكن هنالك عوامل طبيعية
خطيرة تنقص من السكان وتقلل من نموهم . وسنعرض
هنا لأهمها :

١ - فيضانه الأنهار

لقد تفيض الأنهار فيضاناً خطراً فتغمر الحقول ، وتهلك
الزراع ، فيصبح الفلاح من غير مأوى ومن غير غذاء ؛ وهذا
كثير في الصين في حوض نهر هوانج هو الأدنى . وقد يوجد
بدرجة مخففة في حوض نهر المسيسيبي

ب - الزلازل والبراكين

في الجهات المعرضة لثوران البراكين وحوادث الزلازل ،
ربما كانت هذه سبباً في القضاء على عدد كبير من سكان البلاد

ح - الربار (Avalanche)

في الجهات الجبلية التي تتراكم على منحدراتها الثلوج ،
كثيراً ما تنقض كتلة هائلة من الثلج ، على قرية أو ضيعة
فتلحق بها ضرراً بليغاً ويهلك بسببها عدد غير قليل من السكان

٥ - الزوابع والأعاصير الشديدة

هذه منتشرة في جهات محدودة من سطح الأرض ، وقد تؤدي إلى شىء كثير من التخريب والتدمير

٥ - المطر الرطال

ربما كثر المطر حتى صار طوفاناً يعم الأقليم ، وإذا صحبه انخفاض في درجة الحرارة فقد يؤذى النبات ، ويتلف الغلات .
ويزعم الانكليز أن هذا هو السبب الحقيقي في نقص سكان إيرلنده من ثمانية ملايين ونصف مليون في سنة ١٨٤٠ إلى أقل من سبعة في سنة ١٨٥٠ ، ثم إلى أقل من هذا بعد ذلك

و - الجفاف والجرب

وتقصد بالجفاف امتناع الأمطار ، فلا ينزل منها القدر الذى اعتاده الناس في إقليم من الأقاليم . وهذا أمر شائع جداً في شمال وغرب الصين . وقد يحدث أيضاً في جنوب روسيا كما حدث فعلاً في سنة ١٩٢١ ، وكما يحدث كثيراً في الهند . ويؤدي هذا بالطبع إلى مجاعة . ويقال إن هذا العامل هو أكبر العوامل الطبيعية في تقليل السكان : اللهم إلا عامل المرض

ز - الامراض الوبائية

لقد تنتشر الأمراض في صورة وباء فتجتاح إقليماً من أوله إلى آخره ؛ بل قد تسكتسح الأرض كلها منتشرة من ناحية إلى أخرى . وهذه شديدة الفتك جداً ، وتنقص من عدد السكان بنسبة هائلة . فإذا تكررت في إقليم فإنها تكون سبباً في نقص سكانه نقصاً محسوساً . وكثير من الأمراض يمكن أن تتحول من مرض عادي إلى مرض وبائي

ح - الامراض المتوطنة

المرض المتوطن هو المنتشر في منطقة محدودة لا يخرج عنها عادة . فالملاريا مرض متوطن في الهند مثلاً ، وفي غير الهند من الأقاليم الحارة . ومرض النوم متوطن في أواسط إفريقيا ، وكان سبباً في إخلاء مساحة كبيرة من السكان . ويقال إن انتشار الملاريا في جنوب إيطاليا كان من جملة الأسباب في قلة سكانها بالنسبة إلى غيرها من جهات تلك المملكة . والأمراض المتوطنة في مصر هي كما هو معلوم البلهارسيا والانكلوستوما . ولكن ليس هنالك ما يدل على أن لها أثراً في عدد السكان

ط - الأمراض التناسلية

لقد تنتشر الأمراض التناسلية في بلاد لم تتوافر فيها بعد وسائل العناية الصحية . وسكانها في حالة جهل لا يعلمون شيئاً عن هذه الأمراض ولا طرق معالجتها . فتنشر فيهم انتشاراً قظيماً ، بحيث يصبح علاجها فيما بعد غاية في الشدة والعسر .

وربما كان سبب هذا كثرة الحروب مع إهمال صحة الجيش . ويقال إن هذه كانت حالة كثير من جهات الأناضول في عهد عبد الحميد ، حتى إنه استدعى بعض الأطباء الألمان فكتب هذا تقريراً يصف فيه الحالة وصفاً مريعاً ؛ وقد تحسنت هذه الحال كثيراً عما كانت ، وأخذت سكان تركيا تزداد مرة أخرى . وكذلك انتشرت هذه الأمراض في إقليم أوغنده حين دخلها الاستعمار الأوروبي في أواخر القرن الماضي ، يحمل معه الداء الفتاك لينشره في شعب جاهل لا عهد له بمثل هذه الأمراض . وقد نقص بسبب ذلك سكان أوغنده إلى نصف ما كانوا عليه وقت أن استولى الإنكليز على ديارهم . وبالطبع تقوم الحكومة الآن بمكافحة هذا المرض ، ولو أن الحالة لا تزال سيئة جداً

والأمراض — على العموم وأياً كان نوعها — هي أشد العوامل الطبيعية فتكاً بالناس . والنمو الطبيعي لكل جماعة فيه

ما يكفي لسد النقص الذى تحدثه الأمراض فى الحالات الفردية
التي ليس منها بد . وإنما ينقص السكان بسبب هذه الأمراض
التي تنفشي بشكل شاذ ، وتفتك بالناس فتكا ذريعاً

هذا وصف ملخص لعوامل الزيادة والنقص — أى للعوامل
الموجبة والسالبة — التي يتكون من تفاعلها مقدار السكان فى
كل جهة من جهات العالم ؛ والعوامل الموجبة على العموم أقوى ،
ولهذا تقدم العالم فى السكان حتى وصل إلى حالته التي هو
عليها اليوم

الفصل الثامن

السطوة في مائة الكمال

إن الكثرة العظمى من الأديان تحض الناس على أن يتناسلوا ويتكاثروا . ولم تخل الحال من رجال قادة في الدين مثل بوذا وغيره كانوا يحضون على التجرد من هذا الوجود الفاني ؛ ولكن هذه أحوال شاذة ، وأكثر الحكماء والأنبياء كان يحض الناس على أن يزدادوا . وبعضهم مثل كنفشيوس حكيم الصين الأعظم ، قد ذهب في هذه الناحية من تعاليمه إلى أقصى حد ، حتى جعل من حب النسل في الصين عبادة دونها كل عبادة . ولا يزال في وقتنا هذا كثير من الشعوب تبتهج لكثرة عددها وتفتخر بهذا ، وأخرى تبذل جهدا كبيرا لكي تنمو وتزداد . وليس هنالك حاجة لهذا الجهد في أكثر الأحيان ، لأن معظم الجماعات تزداد وتسير دائما في طريق الازدياد

وهنا لا بد للمفكرين الذين يرون الناس يسيرون في تلك الطريق — طريق النمو في العدد — أن يتساءلوا : إلى متى وإلى أين ؟ هل النمو لا بد أن يستمر من غير قيد ولا شرط ، وهل ازدياد الناس أمر مرغوب فيه أبداً ، أم هنالك حد يجب

أن يوضع لهذا النمو؟ إن الجماعات العاقلة المفكرة لا تصدر في عمل من أعمالها — صغيراً أو كبيراً — إلا عن عقل وروية . فهل تشذ مسألة نمو السكان عن هذه القاعدة ، وتظل هي الأمر الوحيد الذي تطلق الجماعة فيه الحبل على الغارب ، دون أن تتريث لحظة لتفكر فيه وفي الغاية منه؟

الحقيقة أن الجماعات الرشيدة لم تطلق الحبل على الغارب ، ولم تهمل التفكير في هذا الأمر الخطير ، بل لقد أخذ كثير من الحكومات يُعنى عناية خاصة بموضوع السكان ، ودراسة جميع النواحي التي تمس حياة الناس في مختلف مظاهرها ، وذلك لكي تقرر الحكومة خطة حميدة تمشي عليها في إصلاح حالة السكان ولا بد لنا قبل استعراض الآراء المختلفة في هذا الموضوع ، أن نذكر أمراً قد يبدو لأول وهلة بديهياً ، وهو أن كثرة السكان وازدياد الناس على سطح الأرض أمر كان لا بد منه لعمراتها ، ولتقدم النوع البشري . لقد يكون هنالك من يرى أن الأولى والأوفق أن يمحى النوع البشري كله من العالم ، ذلك السكان الذي أثبت عجزه عن حسن إدارة هذه الأرض التي أفسدها ونشر فيها الظلم والفساد ، وقد يكون في هذه الدعوى شيء من الوجهة ؛ لكن الذي يهمننا الآن أن نعالج المسائل التي نصادفها وهي المغروسة في طبع الإنسان . وغيرة الإنسان تدفعه

بغنى إلى الحرص على الحياة والحفاظة على النوع
 فإذا كان مقدراً للإنسان أن يعيش على سطح هذه
 الكوكب ، فإن قلة العدد تصبح والحال هذه شقاء وعناء .
 والزيادة تصبح ضرورة لازمة لا بد أن يسعى إليها بكل وسيلة .
 ومن هنا جاءت الشرائع تحض على التناسل والتكاثر . لأن
 عمارة الأرض لا تكون إلا بكثرة الناس ، وحياة الإنسان لن ترقى
 إلا وسط العمران . ولإدراك هذه الحقيقة ليتصور القارىء بلداً
 كبيراً واسعاً مترامى الأطراف لا يسكنه سوى بضعة مئات
 الآلاف من السكان ، والبلد — على هذا — غنى بموارد الثروة
 كثير الخيرات ، غير أن السكان القليلين لن يستطيعوا أن يرتقوا
 بهذا البلد وبأنفسهم ، وأن يزدوا في ثروته و ثروتهم إذا ظلوا
 قليلي العدد . لأن ترقية بلد تتطلب جهود الكثيرين . وهناك
 مشاريع اقتصادية عظيمة ، كمد السكك الحديدية ، وحفر
 القنوات ، وبناء الموانئ ، والسفن البخارية ، ومشاريع للكهرباء
 وتوليد القوى من الماء ، وإنشاء المدن وما تحويه من دور للعلم
 والفن ، كل هذه أعمال تزيد في دخل الأمة وفي أموالها ،
 وفي ثقافتها وفي استمتاعها بالحياة ؛ ولكن إتمامها يتوقف على
 وجود عدد من الناس يستطيع أن يستغلها وينتفع بها
 وهذه هي النقطة التي قد تخفى على كثيرين . فإن المرء قد

يتوهم أنه إذا كان سكان بلد من البلاد يكتسبون رزقاً طيباً ، فإنهم لو نقص عددهم إلى الربع لنال كل منهم ضعف ما يناله اليوم . وهذا خطأ محض ، لأن هذه الأرزاق الطيبة قد تكون نتيجة مجهود ذلك العدد الكبير ، فإذا نقص ذلك النقص العظيم تعطلت الأعمال ، وأصبح الناس جميعاً في ضنك وفي ضيق

وَمَثَلُ البلد في ذلك كمثّل آلة عظيمة لا بد لدورانها من خمسين رجلاً ، فإذا نقصوا رجلاً أو اثنين ، فقد لا يكون في هذا ضرر كبير ، ولكن إذا نقصوا النصف تعطلت الآلة تماماً ، واستحال على الناس أن يجنوا منها ثمرة

وسيقال — رداً على هذا — أنه إذا كانت تلك الآلة تدار بخمسين رجلاً . ومع ذلك التف حولها مائة رجل . فكيف تكون النتيجة ؟ في هذه الحال بالطبع قد تدار الآلة ، ويجنى الناس منها الثمرة بعينها ، ولكن نصيب كل رجل ينقص إلى النصف

وهذه هي الأحوال السائدة في العالم اليوم : فهناك جهات غنية الموارد ولكن سكانها قليلون ، فلا يستطيعون إدارتها واستثمارها إلى درجة تقرب من الكمال ، وهذه البلاد في حاجة بلا شك إلى السكان . مثل ذلك بلاد استراليا اليوم بها مشروعات كثيرة لا تستطيع البلاد أن تنفع بها لقلة سكانها . وهناك

جهات مكتظة قد نما فيها السكان وأسرفوا في النمو ، حتى أصبح
القوت الضروري للحياة شيئاً عسيراً على الكثيرين من أبنائها ..
وهذه مثلاً حالة سكان الريف في بعض جهات الصين والهند
وغيرها

وهذا لا بد يدعونا إلى التساؤل : أليس هنالك حالة وسط
بين هذا الإفراط وذاك التفريط ؛ فيكون في كل بلد كفايتها
من السكان لا أكثر ولا أقل ؟ ...

إن التفكير في هذا السؤال كان سبباً في إخراج نظرية من
نظريات علم الاقتصاد تتعلق بالسكان ، وهي نظرية (أحسن
السكان : Optimum Population) . ولا يراد بأحسن السكان
أحسنهم شكلاً أو أدباً أو خلقاً ؛ بل الأحسن عدداً بالنسبة
إلى جهة من الجهات . وبالرغم مما شاع في الأزمنة القديمة من
حب النسل والرغبة في الازدياد ، فقد كان بين كتاب اليونان
من تساءل عن العدد اللازم من السكان لكل مدينة من المدن
بحيث لا تنقص عنه ولا تزيد

ولكن التفكير الحديث في موضوع السكان والتعمق
في بحث نواحيه المختلفة يرجع إلى أواخر القرن الثامن عشر ،
وأوائل القرن التاسع عشر . وأكبر عمل قام به باحث في هذا السبيل

كتاب مalthus^(١) عن السكان . تكلم فيه عن نمو السكان وعلاقة هذا النمو بسعادة الناس ، وقد عاش مalthus في أوائل القرن التاسع عشر ، في الوقت الذي أخذت فيه سكان انكلترة تزداد ازدياداً عظيماً ؛ ولم تكن بعد قد تقدمت بها تلك الصناعات والمخترعات التي أوجدت — فيما بعد — موارد جديدة للثروة ، بحيث استطاعت أن تعيش منها أمة ازدادت حتى أصبحت أكبر مما كانت عليه في زمن مalthus بثلاث مرات

على أن هذا لا يقوض الدعائم المنطقية والعلمية التي قامت عليها حجج مalthus . وخلاصة آرائه أن السكان يتزايدون بسرعة هائلة ولا تتزايد معهم المواد الغذائية التي تتوقف عليها حياتهم بنسبة نموهم . وقد صور للناس في عصره صورة جليلة واضحة لنمو السكان في إقليم محدود ، قد استغله أهله إلى أقصى درجات الاستغلال ، فإذا ازداد عدد السكان بعد هذا بمقدار الربع مثلاً ، فإن غلة الأرض لن تزداد بمقدار الربع ، لأن الأرض محدودة ، وإنتاجها — بعد حين — يظل محدوداً مهما بذل فيه من جهد ، ومهما زيد في تسميد الأرض وإعدادها ، فيصبح

(١) توماس روبرت مalthus (١٧٦٦ — ١٨٣٤)

كان أستاذاً للتاريخ الحديث والاقتصاد السياسي ، وله مؤلفات في هذا العلم . ولكن شهرته الكبرى نشأت عن كتابه في موضوع السكان

(١٠ — ك)

الناس ولا مفر لهم من الاكتفاء بما هو أقل مما كان نصيبهم من قبل ، وهكذا تسوء حالهم كلما ازداد عددهم وهذه الآراء التي رآها مالثوس أثارها في نفسه ما شاهده من شقاء أفراد الشعب في عصره ، في وقت كانت انكثتره تعتمد فيه على الزراعة أكثر مما تعتمد على الصناعة . ولا يدحض من رأيه أن انكثتره بفضل رقي الصناعة فيها — وتأخر الصناعة في غيرها من الأقطار — قد جنت ثروة طائلة كفلت الرزق لعدد عظيم جداً من السكان بعد عهد مالثوس بزمان ؛ فإنه كان يَنْظُرُ إلى انكثتره كما كانت في زمنه ، ولهذا رأى أن يبذل الناس جهدهم — بالعفاف والتقوى وتأخير الزواج — من أجل تقليل النسل ، لكي تستطيع كل أسرة قليلة العدد أن تعيش في رخاء وسعادة

على أن نقطة الضعف في آراء مالثوس أنه لم يحسب حساباً لازدياد الموارد ، وتغير الأحوال الاقتصادية ، وأن البلاد المزدهمة في زمن ما بسبب انتشار أسلوب خاص من أساليب الحياة ، قد تغدو قليلة أو متوسطة الازدهار إذا انتشر فيها أسلوب جديد . وهذا النقص في نظريات مالثوس هو ما تحاول نظرية (أحسن السكان) أن تسده . وخوى هذه النظرية أن كل بلد من البلاد أو قطر من الأقطار لا بد له من عدد خاص من الناس لكي

يستثمروه ويعيشوا فيه عيشة رغيدة . فإذا نقص الناس عن هذا العدد عاشوا عيشة شدة وضنك ، وإذا زادوا عنه زيادة فاحشة عاشوا عيشة فقر وشدة ، مع اقتراض أن موارد الإقليم بقيت على ما هي عليه ، ولم يكتشف فيها مورد جديد . ولا يوضح هذه الحالة نأتى هنا بمثال يشرحها شرحا وافيا :

لنفرض أن لدينا قطعة من الأرض مساحتها ألف فدان ، ولا يسكنها سوى ثلاث أسر ، ولا يتجاوز العاملون الذين يشتغلون بفلاحة الأرض اثني عشر رجلا ، وهؤلاء يحاولون أن يزرعوا ما يستطيعون زرعهم من الأرض ، فلا يعدو جهدهم مائة فدان لأن المطر قليل ، ولا بد للزراعة من الاستعانة بماء الآبار ، ولا بد من رفعه ونقله إلى الحقول ؛ وهذه المائة فدان نفسها لا تزرع سوى زراعة واحدة في العام ؛ ولا بد أن يراعى في اختيار الصنف المزروع أن يكون مما يسهل تعهده ولا يتطلب كثيراً من الأيدي العاملة في رعايته وحصده وخدمته ؛ وبشق النفس كانت هذه الأسر الثلاث تعيش عيشة وسطا ، وهي عاجزة عن أن تحسن استغلال هذه الأرض الواسعة

لكن السكان أخذوا يتزايدون ، فازدادت المساحة المزروعة ؛ وبدلاً من حفر الآبار تعاون الناس على حفر ترعة جلبوا بها الماء من النهر ، وحصلوا على مقدار وافر من المياه ،

بحيث ازدادت غلة الأرض ، وأمكن زراعة جزء منها مرتين في السنة الواحدة ؛ وأمكن للناس بعد أن تقدموا في الزيادة أن يزرعوا الغلات التي تتطلب الأيدي العاملة ، والتي هي أعلا ثمناً . والسكان الجديدون يجلبون معهم رأس مال جديد يمكن استخدامه في شراء آلات ومواش وكل ما يساعد على كثرة الانتاج وتحسينه

من السهل أن نتصور أن الناس قد أخذ دخلهم يزداد عاماً بعد عام ، حتى وصل مثلاً إلى مائة جنيه في العام لكل فرد من السكان . ولنفترض أنه في هذه المنزلة كان الناس قد بلغوا الغاية من حسن استغلال الأرض : من استخدام الآلات ، وتطبيق الزراعة العلمية ، والتسميد ، بحيث لم يتركوا وسيلة من وسائل تحسين الزراعة إلا استخدموها ، هنالك يصبح ازدياد السكان خطراً — بعد هذا الحد — وبالرغم من أن كل ساكن جديد يأتي برأس مال جديد وزيادة في الأيدي العاملة مما سيؤدي إلى ازدياد الغلة إلى حد ما ، إلا أنها تكون بمقدار يقل عن ازدياد السكان . وهكذا يأخذ متوسط دخل الفرد الواحد من هذه الجماعة يتناقص عن المائة جنيه التي ذكرناها ، وينحط شيئاً فشيئاً ، وينزل معه مستوى الحياة العام ؛ فيقل ما يتناوله الناس من القوت بدرجة لا تكاد تحس أول الأمر ، وتنحط مساكنهم

وملابسهم ويأخذ الفقر في الانتشار بينهم
 فمن الواضح إذن أن هؤلاء الناس في مرتبةٍ ما ، كانوا
 في حالة الكمال ، ثم أخذوا ينزلون عن هذه الحال شيئاً فشيئاً .
 حقيقة إنه في بعض الأحيان تظهر فجأة موارد جديدة بأن
 يستكشف الناس منابع للبترول كانت مجهولة ، أو مناجم للذهب
 كان مختبئاً ، فتتغير حالهم مرة أخرى إلى أحسن . لكننا سنرى
 حين نستعرض الأقاليم المزدهمة بالسكان أن هذه الحال نادرة ، وأن
 الأمل بأن شيئاً جديداً سيظهر أو أن مورداً جديداً سيستكشف
 لم يتحقق وأن الناس تردّوا بالتدريج إلى هوة الفقر المدقع والشقاء
 ولا بد لنا هنا أن نرد على اعتراض قد يثيره بعض المطالعين
 لهذه العبارات : وهو أن سعادة الناس ليست مسألة خبز يؤكل
 أو منزل يسكن ، وأن الفقر مسألة نسبية فلقد يكون ذو المال
 فقيراً لأن ماله لا يكفيهِ ، وقليل المال غنياً لقناعته . . وإنا نذكر
 القارئ — رداً على هذا — بأن بحثنا هنا بحث اقتصادي بسيط ،
 لا بحث فلسفي نريد أن نتعمق به في الأمور الروحية . فالسعادة
 التي نقصدها هنا هي السعادة المادية . فإن بالجسم البشري حاجة
 إلى مقدار من الطعام ، ولا بد للناس من مسكن تتوفر فيه وسائل
 الراحة والصحة ، ولا بد لهم من حظ من الثقافة والتعليم (الغذاء
 الروحي) يرفعهم عن مستوى العجاوات . هذا كله ضروري

لكل إنسان ، ويجب أن يكون من نصيب كل إنسان
والأى يحرم أحد هذه الضرورات كلها ، ومع ذلك فمن البديهي
أن كثيرين من الناس قد حرّموا هذا كله أو بعضه ، وهؤلاء هم
الذين ننتقمهم بالفقراء . ومن الممكن أن يكون فى الناس من يزعم
أن مجرد توفير الطعام اللازم والسكن الملائم والثقافة الضرورية
لايكفى لسعادة الناس ولا لرفيهم ، ولكننا نحن نعتقد أن السعادة
المادية هى خطوة كبيرة فى سبيل السعادة الروحية ، وأن تحسين
الحالة المادية للناس هى أول شرط لتحسين حالتهم الأدبية ؛ ولا
يمكن لمنصف أن يجحد أن الفقر المادى سبب من أكبر أسباب
الأم والشقاء

ونعود الآن إلى كلامنا عن (أحسن السكان) لأى بلد
من البلاد ، وتساءل كيف نستطيع أن نعرف أن قطراً من
الأقطار قد وصلت كثافة السكان فيه إلى أحسن حال ولم تعدّها ،
فإنه وإن كان من الواضح أن بعض الأقطار بعيد جداً عن حالة
الكمال ، فإنه ليس من السهل أن نقرر ما العدد الأحسن لسكان
بلد مثل فرنسا أو انكلترة أو مصر

ولقد يكون من السهل أن يدرك الإنسان أن سكان قطر
مثل كندا أو استراليا أقل بكثير مما يلزم لحفظ كيان البلاد

ولتقدمها . ولقد يدرك سكان البلاد أنفسهم هذه الحقيقة . وهناك بلاد من الواضح أنها مكتظة غاية الاكتظاظ بالسكان مثل سهل نهر الكنج ، وهناك يدرك الكثير من الناس هذه الحقيقة . وهناك بلاد تدعى فقر السكان وهي مزدهرة — لمارب وأوطار تبغيا ، مثل إيطاليا واليابان . ولهذا تتساءل أليس هنالك قاعدة محسوسة نستطيع أن نقرر بها أحسن كثافة للسكان ؟

من البين أن تقرير مثل هذا الأمر الخطير ليس بالأمر اليسير في الأقطار التي لا تتمتع بحكومة منظمة إلى أقصى درجات النظام ، والتي ليس لدينا عنها إحصاءات دقيقة تبين لنا حالة السكان ، من حيث مكاسبهم ونوع غذائهم ومساكنهم ودرجة تعليمهم ، وما شابه ذلك من المعلومات .

وهناك ظاهرات اجتماعية قد يرى البعض أنها دليل على ازدهار البلاد بالسكان مثل انتشار الفقر وكثرة العاطلين من السكان

فأما الفقر — أي انحطاط مستوى الحياة من حيث الغذاء والسكن والصحة والتهديب — فإن هذا وإن كان نتيجة لازدهار السكان فإنه قد يرجع إلى أسباب أخرى كثيرة تحتاج هي وحدها إلى دراسة وإلى بحث مطول ، نذكر هنا منها مثلا : سوء نظام الحكومة التي قد تحكم البلاد لمصلحة فئة قليلة من السكان

مضحية بمصلحة الكثرة ، فترهق الناس بالضرائب من أجل اشباع نهم حكامها وولادة الأمر فيها . ومنها سوء النظام الاقتصادى ، الذى يصبح معه العامل ذا كسب ضئيل لا يقوم بأوده على حين يجنى أصحاب رأس المال الفوائد الكبيرة . ومنها الحروب التى قد تقع فيها البلاد زمنًا طويلا ، ويكون من نتائجها انتشار الفقر بين جميع السكان وبنوع خاص بين الطبقات العاملة . ومنها عادة الخمول والكسل ، بحيث يصبح فقر الناس راجعاً إلى إهمالهم استغلال موارد البلاد ، مع سهولة هذا الاستغلال ، فيصبح الناس والحال هذه فقراء لأنهم آثروا الفقر على العمل ، وعيش الكفاف مع الكسل على عيش الرخاء مع الكد . وهناك أسباب أخرى للفقر عدا هذه ، لا نريد أن نتوسع هنا فى شرحها . وحسبنا ما ذكرناه دليلاً على أن الفقر كظاهرة اجتماعية قد لا ينشأ عن كثرة الناس ؛ ولا بد من بحث دقيق لحالة السكان الذين يعيشون فى حالة فقر لكي نتبين ما إذا كان هذا الفقر راجعاً إلى الازدحام أو إلى سبب آخر .

وكثرة العمال العاطلين ظاهرة اجتماعية يرى الكثير فيها أنها حجة لا تدحض على ازدحام البلاد بالسكان ؛ وبالرغم مما قد يبدو لأول وهلة من وجهة هذا القول ، فإن الأمر ليس من السهولة بهذه الدرجة . ولا يوضح ما بهذه الظاهرة من التعقيد

يكفى أن يذكر القارىء أن كثيراً من البلاد لم يكن بها من العمال العاطلين سوى عدد قليل ، ثم أصبحت فجأة وقد زاد هذا العدد ازدياداً هائلاً ، دون أن يكون هنالك زيادة محسوسة فى سكان البلاد ؛ فقد كان فى الولايات المتحدة منذ ثلاثة أعوام من العمال العاطلين ما يربو على خمسة عشر مليوناً من الناس ، هذا العدد الهائل قد تكون فى سنى الكساد المعروفة من عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٣ . وقبل ذلك كان عدد العمال العاطلين لا يزيد على القدر المألوف الذى لم تخل منه البلاد فى زمن من الأزمنة ؛ وفى هذا دليل واضح على أن كثرة العاطلين لم تكن نتيجة لازدياد السكان ، وإنما نتيجة لعوامل أخرى ذات صلة بحالة الكساد العام المنتشر فى العالم . ثم لنذكر أيضاً أن الولايات المتحدة وغيرها من الدول الكبرى تمنح العمال العاطلين منحةً تساعد على الحياة ، وتجربى عليهم أرزاقاً تصرف لهم بانتظام ، مما يدل على أن البلاد فى جملتها ليست فى حالة فقر ؛ بل إن فيها فضلاً من الغنى يمكن به أن تعين الدولة عدداً لا يقل عن بضعة عشر مليوناً من العمال العاطلين

من الممكن أنه متى أصبح وجود العمال العاطلين ظاهرة دائمة ثابتة كما هى الحال فى انكساره منذ خمسة عشر عاماً ، فمن الجائز أن يكون هذا راجعاً إلى ازدياد السكان عن الحاجة .

ولسكننا مع ذلك لا بد لنا من مقياس آخر نهتدى به إلى حالة السكان ؛ مقياس يكون أكثر دقة وأصدق دلالة على الحالة السائدة في البلاد

ويرجع كثير من الفضل في إيجاد هذا المقياس إلى الأستاذ كار سوندرس Carr-Saunders الذي اقترح أن خير مقياس يعرف به أن السكان قد وصلوا إلى درجة الكمال أو تجاوزوها ، هي أن نراقب متوسط الدخل ، أى متوسط ما يكسبه الفرد ، وحساب هذا ممكن بالطبع في الجهات التي بها إحصائيات منظمة . فإذا رأينا متوسط الدخل آخذاً في الزيادة كان هذا دليلاً على أن البلاد في حال حسنة من حيث عدد السكان ، وأن هنالك محلاً لزيادة السكان . فإذا وصل متوسط الدخل إلى حالة استقرار ثم أخذ بعد ذلك يهبط تدريجياً ، كان هذا دليلاً على أن البلاد قد بلغت أقصى ما تستطيع أن تسعه من السكان ، وأن ليس من مصلحتها أن تتجاوزه . فإذا نقص بعد ذلك متوسط دخل الفرد نقصاً فاحشاً ، بحيث أدى إلى هبوط مستوى الحياة هبوطاً كبيراً ، كان هذا دليلاً قاطعاً على أن البلاد قد غصت بالسكان ، ولا بد من التنفيس عنها بطريقة من الطرق ، وإلا ساءت الحالة على الصورة التي سنصفها فيما بعد

ولايضاح هذه النظرية يجمل بنا أن نأتي هنا بالأرقام التي

ذكرها الأستاذ كارسوندرس في كتابه عن السكان تعزيزاً
لرأيه . ففي انكلتريه كان متوسط الأجور في الربع الأخير من
القرن التاسع عشر كما يأتي :

الأجور الحقيقية	السنة
١٠٠	١٨٨٠
١٠٥	١٨٨١ — ١٨٨٥
١١٧	١٨٨٦ — ١٨٩٠
١٢٥	١٨٩١ — ١٨٩٥
١٣٢	١٨٩٦ — ١٩٠٠

ولفهم معنى هذه الأرقام يجب أن نوضح أن المؤلف قدر من
للأجور في سنة ١٨٨٠ برقم ١٠٠ ليجعله أساساً يقيس عليه ما قد
يطراً من الزيادة أو النقص ، واثبت من هذه الأرقام أن متوسط
دخل الفرد في انكلتريه كان يزداد ازدياداً مطرداً في الربع
الأخير من القرن الماضي ، أي أن مستوى معيشة كل إنسان
— على وجه العموم — كان آخذاً في الارتفاع دائماً ، وأن الناس
عموماً قد أخذت مساكنهم وطعامهم ولباسهم وحتيهم وثقافتهم
في التحسن المستمر . هذا كله واضح جلي ؛ ولكن الذي قد يشكل
أمره على القارئ هو أن السكان في الوقت نفسه كانوا آخذين
في الزيادة ، وقد ازدادوا فعلاً بما يقرب من ستة ملايين نسمة ،

ومع ازدياد الناس ازداد دخل كل فرد ، ذلك لأن موارد البلاد باتت تستغل على الوجه الأكمل وتأتى بربح أوفى وكسب أوفر . حقيقة إن هنالك كتابا يزعمون أن نمو سكان انكتره في تلك الفترة كان عائقا دون تحسن الحال على أتم وجه ، وأنه لو أن النمو كان أقل وأبطأ لارتفع مستوى الحياة عما كان عليه فعلا . ولكن مهما يكن من شئ ، فإن حالة السكان كانت في تحسن لاشك فيه ، فليس هنالك على كل حال محل للشكوى . ولا بد لنا أن ننظر كيف حالت الحال بعد سنة ١٩٠٠

السنة	الأجور الحقيقية
١٩٠١ — ١٩٠٥	١٣٣
١٩٠٦ — ١٩١٠	١٣٤
١٩١١	١٣٣
١٩١٢	١٣٢
١٩١٣	١٣٤

في أوائل القرن العشرين اذن لم تتقدم حالة السكان من حيث مكاسبهم . والزيادة المطردة التي شوهدت في أواخر القرن الماضي انقطعت فجأة في العشرة الأعوام الأولى من هذا القرن . وبالطبع كان السكان في ازدياد مستمر ، ولكن مكاسبهم لم تزد بازديادهم . وعدم تحسن أحوال المعيشة للأمة معناه أن ما كان

يطمح إليه الناس من اطراد التحسين لم يتحقق ، والآمال قد خابت . وهذه أمور لا تبعث على الرضى ، خصوصا إذا ذكرنا أن حالة العامل الانكليزى لم تكن بالشىء الغير القابل للتحسين . بل إنها فى الواقع حال سيئة فى معظم الجهات الصناعية . فليس هنالك غرابة إذا رأينا أن تلك السنين التى لم تزد فيها الأجور هي أيضا السنين التى بدأ فيها الاضطراب الصناعى فى بريطانيا ، وقد بلغ أقصى شدته فى الاعتصابات الهامة التى حدثت فى الفترة ما بين ١٩١١ إلى ١٩١٤ . وقد يكون لهذه الاضطرابات أسباب غير سوء الحالة الاقتصادية ، ولكن ليس من شك فى أن هذه كانت أهم الدوافع إلى هذه الاعتصابات المتكررة ؛ ولهذا نرى بعض كبار الاقتصاديين الانكليز مثل المستر كينز (Keynes) يؤكد أن سكان بريطانيا فى ذلك الوقت قد أخذوا يتجاوزون الحد . وأن استمرار النمو بتلك السرعة الهائلة هو سبب الأزمة الاقتصادية التى تعانىها البلاد

لم تتغير الأجور الحقيقية فى انكاثره بعد الحرب عما كانت عليه قبل الحرب ، أى أن متوسط الدخل لم يتقدم بعد ، وعلاوة على هذا فإن انكاثره تعانى منذ الحرب مشكلة وجود عدد يتراوح بين المليون والثلاثة ملايين من العمال العاطلين . حقيقة إن البلاد ناهضة من غير مشقة بهذا العبء ، وهى تمد هؤلاء

العاطلين بما يحتاجونه أو ببعض ما يحتاجونه من الغذاء والملأوى ، غير أن هذه الحال ليست طبيعية خصوصاً بعد أن باتت ظاهرة ثابتة . فع التسلیم بأن مجرد وجود العمال العاطلين ليس دليلاً قاطعاً بأن البلاد مكتظة بالسكان ، فإن وجود عدد كبير منهم مقرونًا بالأدلة الأخرى لا يدع مجالاً للشك في أن سكان الجزر البريطانية بمواردهم الحالية قد تجاوزوا الحد

وليس معنى هذا أن البلاد ازدحمت ازدحاماً مريعاً . فإن شعباً يقظاً مثقفاً لا يمكن أن يترك هذه الحال تستفحل ، وسنرى فيما بعد أن نمو السكان في انكثرت قد نقص نقصاً هائلاً ، بحيث لن يزداد الناس في السنوات المقبلة إلا بقدر يسير جداً

نرجو أن يكون قد وضح للقارى ما نرى إليه بقولنا « أحسن السكان » ، أو أحسن كثافة للسكان ، فإنها هي الحال التي يكون فيها الناس بقدر ما تحتاجه وتتسع له البلاد ، فيصبحوا على أحسن ما يكون من رغد العيش في الظروف الطبيعية التي يعيشون فيها ، والموارد التي في متناول أيديهم

فإذا كان السكان على مرتبة تقل عن حالة الكمال هذه كثيراً عدت البلاد فقيرة السكان (Underpopulated) وبالطبع هنالك فرق بين قلة السكان وفقر السكان . فلقد يكون السكان قليلين في بلاد صحراوية لكنها لن تتسع لأكثر منهم .

فليست البلاد في مثل هذه الحال مفتقرة إلى السكان . ومهما حشرنا من الآدميين في الصحراء فإن هذا ليس بمصلح من حالها ولا من حالهم ، فالصحراء ليست فقيرة السكان بل هي في بعض نواحيها مكتظة بأقصى ما تستطيع أن تؤويه منهم . وإنما الفقيرة السكان جهات مثل استراليا وزيلنده الجديدة التي تستطيع أن تؤوى أضعاف من بها من السكان ، وتحسن بذلك حالها وحالهم . وليست السياسة التي تجرى عليها استراليا في منع المهاجرين سياسة مبنية على مراعاة مصالح البلاد ، وإنما هي مبنية على الأثرة الخاطئة وعدم تقدير المصالح الحقيقية للقارة . وإلا فكيف يجوز أن يتصور إنسان أن استراليا لا تتسع لأكثر مما تتسع له جزيرة العرب ، على الفرق الشاسع بين الإقليمين ؟ وكذلك كندا وبعض جهات إفريقية ، والممتلكات البريطانية عامة فقيرة السكان ، لأن سياسة المستعمرات المستقلة البريطانية لا تريد أن تفتح أبواب الامبراطورية للمهاجرين من غير قيد ولا شرط

هذه حالة البلاد الفقيرة السكان ، وعلامتها — إن كان هنالك حاجة إلى علامة — أن موارد البلاد لا تستغل على الوجه الأكمل وان بها أقاليم مهملة إهمالا تاما ، وحاصلات زراعية مفتقرة إلى الأيدي العاملة لا نتاجها وحصدها ، ومشاريع كبرى للرى أو للمواصلات لا تأتي بثمرة لقلة المتفعين بها ، وغير ذلك من الأدلة

القاطعة التي يراها الناس جميعاً ماعدا سكان البلاد الذين ينجشون ،
خطأ ، من تدفق المهاجرين

أما الجهات التي تجاوزت الحد ، وأصبحت مكتظة بالسكان
(Over-Populated) . فهذا أيضاً يجب أن نفرق بين مجرد كثرة
السكان وبين اشتداد الازدحام . فإن بلدًا كمصر قد يكون
مكتظا بالسكان وعددهم لا يتجاوز الخمسة عشر مليوناً ، وبلدًا
آخر مثل فرنسا لا يعد مزدحمًا مع أن به فوق الأربعين مليوناً

وبديهى مما ذكرناه من قبل أن تجاوز الحد فى السكان
ليس أمراً مرغوباً فيه . فقد انتهى ذلك العصر الذى كان الناس
فيه يفخرون بكثرة نسلهم ، وأصبحنا فى زمن يشكو فيه الآباء
كثرة الذرية . وبعد أن كانت كثرة الأولاد باعثاً على الغبطة
أو الحسد ، أصبحت مثيرة للرئاء والعطف . ونحن فى مصر نشاهد
هذا بوضوح . فبينما يفخر شخص واحد بأن لديه مثلاً عشرة
أولاد نرى إلى جانبه مئات من الأشخاص يسترحمون
الناس لأن لديهم ذرية تبلغ ذلك العدد . من البديهى أن التسل
فى كثير من الأقطار قد أصبح عبئاً على الكاهل وليس عوناً على
الحياة . والذين يكابرون فى هذا الأمر أو يرتضون التسليم بهذه
الحقيقة ، هم إما رجل مغمض عينيه عما يحيط به ، لا يرى ،
أو لا يريد أن يرى ، ماحوله من الشقاء الضارب أطنابه ولا يزال

غارقاً في أوهام قديمة تفهمه أن الأبناء بركة وسعادة في كل حال وفي كل ظرف

أو رجل يأبى التسليم بخطر ازدياد السكان لأنه يدرك أن المشكلة عسيرة الحل وأن لها نواحي غير سائغة ولا عذبة ، وهو يفضل الطرق السهلة الهينة ، فهو يأبى أن يواجه المشكلة ؛ بل يأبى التسليم بأن هنالك مشكلة ، ويجهد نفسه في أن يعال الأمر بعلا شتى تهرباً من العلة الحقيقية التي يعتقد أنها عسيرة العلاج وثالثهم رجل يعلم أن بلاده مزدحمة بالسكان ، ولكنه يريد أن تزدحم ، ويريد العدد أن يستمر في الزيادة ، لأن له مطامع سياسية أو استعمارية تستلزم حروباً شعواء تلتهم هذا العدد الهائل من السكان . فهذا ينحى العدد من أجل تقديمهم طعاماً للرصاص وللنار . فإيطاليا مثلاً تريد أن تنمو حتى تبلغ ٦٠ مليوناً ، وألمانيا بالطبع لا تبغى التخلف لئلا تسبق . واليابان تريد أن تنمو حتى تتجاوز المائة مليون وهلم جرا

وهذا الطراز الأخير من الناس ذو سياسة مفهومة ، وإذا شاركناه في وجهة النظر فيمكننا أن نعدها سياسة حكيمة . فإن هذا النمو مصيره إلى الفناء في القتال ، فلا يخشى أن تكتظ البلاد بالسكان . حقيقة إن السكان ستنحط مرتبتهم وعقائهم ، لأن الحروب تذهب بالأحسن وتترك الأسوأ ؛ لكن على كل حال

لن تصاب البلاد من حيث الازدحام بأضرار بليغة ، لأن البلاد
كلما ازدحمت ثارت حروب فأنقصت العدد
أما الذى يحدث فى البلاد التى تتجاوز الحد وليس بها تلك
اليقظة ولا ذلك النظام الذى رأيناه فى انكاستره ، والذى كان من
نتيجته وقف النمو — ولو مؤقتاً — فالذى يحدث فى تلك الحال
أن مستوى الحياة يأخذ فى الانحطاط المطرد ، فتسوء المساكن بحيث
تعيش الأسرة فى غرفة واحدة ويحتشد عدة أشخاص فى حجرة
واحدة ليس لهم مسكن سواها . وتسوء التغذية بحيث لا يستطيع
الفرد أن يجد من القوت إلا ما يسد الرمق ، ولكنه لا يحفظ للجسم
نموه ونشاطه الطبيعى . وإذا ساءت الحال جداً أصبح عامة الناس
على شفا الجوع دائماً . وتسوء الحالة الصحية ، لأن موارد البلاد
التي لم تزد مع ازدياد السكان لا تستطيع أن تقدم الخدمة
الصحية التي تتطلبها هذه الجماهير الفقيرة من الناس . وينتشر
الجهل والامية ، لأن السكان يزدادون بدرجة هائلة بحيث يتعذر
مجاراة هذه الزيادة بزيادة المدارس . وهكذا نرى الفقر يزداد
والحالة الصحية تسوء ، ومشكلة الامية تزداد تعقيداً ، وبمضي
الزمن يزداد الإجرام أيضاً ، لأن الفقر من بواعث الإجرام التي
لا شك فيها

وهنا يعرض لنا سؤال خطير لابد من مواجهته ؛ وهو إلى أين ينتهى بالبلد هذا النمو ؟ وهل من الممكن أن يدأب سكان قطر على النمو إلى ما شاء الله ؟

إن الإجابة على هذا السؤال اليوم سهلة ، لأن أمامنا أمثلة حية لما يمكن أن يؤدي إليه نمو السكان عن غير عائق أو قيد . فإن نمو السكان من غير نمو فى موارد الثروة سيُفضى حتماً إلى انحطاط مستمر فى مستوى الحياة ، وإلى انحطاط مستمر فى الحالة الصحية ، وإلى ازدياد عدد الموتى — بقطع النظر عن أنصاف الموتى الذين يعدون فى الأحياء — ازدياداً مريعاً ، لأن كل فرد لا يستطيع أن يعيش العمر الكامل للإنسان ؛ بل تعاجل المنية أكثر السكان قبل أن يبلغوا متوسط العمر . وهكذا إذا دأب السكان على كثرة النسل كثرة فاحشة ، نقصت الأعمار نقصاً فاحشاً ، وازدادت الوفيات زيادة فاحشة ، وبعد حين يقف النمو تماماً ، لأن الوفيات قد ازدادت إلى درجة تتكافأ فيها مع عدد المواليد . وهذه الحال لم تصل إليها بلد بأسرها ، اللهم إلا بعض جهات محدودة فى الهند والصين

فمن الظواهرات المشاهدة فى البلاد المكتظة بالسكان ازدياد نسبة الوفاة ، وهذه سنشرحها فى الفصل التالى ، ونقص الأعمار بدرجة مريعة . وهانحن نسوق هنا أرقاماً لا يمكن الشك فى صحتها

ترينا صورة واضحة للحالة التي نصفها الآن . فليقارن القارىء
الأعمار فى الأقطار الآتية :

متوسط العمر	سنه	
٤٩,٣	»	إيطاليا
٥٢,٢	»	فرنسا
٥٥,٦	»	انكلترة
٥٦	»	ألمانيا
٢٤,٧	(١) »	الهند
٢٤	(٢) »	مصر للرجال
٢٧	»	» للنساء

هذه الأرقام هى الدليل الذى لا يحجد عن الحالة فى البلاد
المسكتظة والبلاد المعتدلة الازدحام . فالبلاد التى يعيش فيها من
الناس أكثر مما تتسع لهم يعاقبون أنفسهم بأن حياة اثنين من
السكان لاتعادل حياة واحد من سكان البلاد الأخرى . هذا فيما
يتعلق بطول العمر من الناحية الزمنية . والفرق من ناحية الرفاهية
والراحة والصحة والتمتع بالحياة أكبر من أن توضحه الأرقام وتبينه

(١) يراجع فى هذا فصل ١٦ من كتاب Modern India تأليف Cumming ومقالة الأستاذ موكرجى Mukerje فى أعمال مؤتمر السكان
الذى عقد بروما سنة ١٩٣١ (٢) يراجع فى هذا مقالة الأستاذين
درويش وعزمى . انظر المراجع فى الفصل الخامس بمصر

الإحصاءات . وسيقول بعض قراء هذا الفصل الذين لهم دراية بأمور السكان : إن هذا الانحطاط الكبير في متوسط الأعمار في البلاد الشديدة الازدحام يرجع إلى ارتفاع نسبة الوفيات في الأطفال . وهذا القول مقبول بالطبع إن كان يراد به بعض الإيضاح والتفسير ؛ ولكنه لا يمكن أن يقبل إذا أريد به الاعتراض أو التبرير . فإن حياة كثير من الأطفال أجل وأعلى من حياة الكثير من البالغين ، ووفاة الطفل شقاء للآم التي قاست آلام الحمل والوضع وما يعقبه من عناء وسهر ونصب . وهذا بقطع النظر عن الحزن الذي يخيم على المنزل وسكانه حين تذبل الزهرة التي أريد بها أن تكون قررة للعين وريحانة للروح

ومع ذلك فليس بصحيح أن انحطاط متوسط العمر في بلاد كالهند ومصر يرجع فقط إلى كثرة الوفيات في الأطفال وزيادتها في هذه البلاد عن الأقطار الأوربية أو الأمريكية ؛ بل إن نسبة الوفيات في جميع طبقات الأعمار أعلى في الجهات المزدحمة منها في الجهات القليلة الازدحام . وكل ما هنالك أن الظاهرة أوضح في الأطفال منها في الأحوال الأخرى ، لأن الطفل كائن حساس ، وهو لهذا أكثر تأثراً بتلك العوامل الشاقة المجهدة التي تسبب الوفاة . ونسبة الوفيات في الأطفال في القطر المصري آخذة في التحسن ، بينما نسبة الوفيات عامة ليس فيها تحسن محسوس ^(١) . حقيقة إن

(١) راجع تقرير مصلحة الصحة العمومية عن سنة ١٩٣٢ (النسخة

نسبة الوفيات في الأطفال في مصر عالية (حوالي ٢٥ ٪ من مجموع الوفيات) بينما هي لا تزيد على ٧ إلى ٨ ٪ في كل من سويسره وبلاد السويد والنرويج والدانمارقة ، وفي استراليا ٦ ٪ ، وفي زيلنده الجديدة ٤,٥ ٪ من مجموع الوفيات . ولكن هنالك أقطاراً أخرى نسبة وفيات الأطفال فيها لا تقل عنها في مصر مثل رومانيا وبلاد الحجر ومالطة وتشيلي . لكن نسبة الوفيات في مصر عامة — لافي الأطفال فقط — تعد من أكبر النسب في العالم كله والبلد الذي يكون متوسط عمر السكان فيه حوالي ٢٥ عاماً يكون أكثر سكانه عالة على الآخرين ، لأن سنى الطفولة والصبي ليست سنى إنتاج . ومعظم السكان يقضون نحبهم قبل أن تبجى البلاد ثمرة حياتهم من جد ونشاط وخدمة وإنتاج . ولهذا يكون السكان في مثل تلك البلد أقل في حقيقة الأمر مما يدل عليه عددهم

(الانكليزية ص ١) . ومنها يبدو أن وفيات الأطفال قد نقصت بالتدريج من ٢٢٩ لكل ألف مولود في متوسط الخمسة سنوات من ١٩٢١ إلى ١٩٢٥ . فأصبحت ٢٠٢ لكل ألف مولود في سنة ١٩٣٢ ، بينما نسبة الوفيات لكل ألف من السكان في المدة ذاتها هي ٣٥٣ للمدة الأولى فأصبحت ٢٧٦ في سنة ١٩٣٢ . ولهذا يتخطى كثيراً من يتوهم أن نقص الأعمار راجع إلى وفيات الأطفال

الفصل التاسع

المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية للسكان

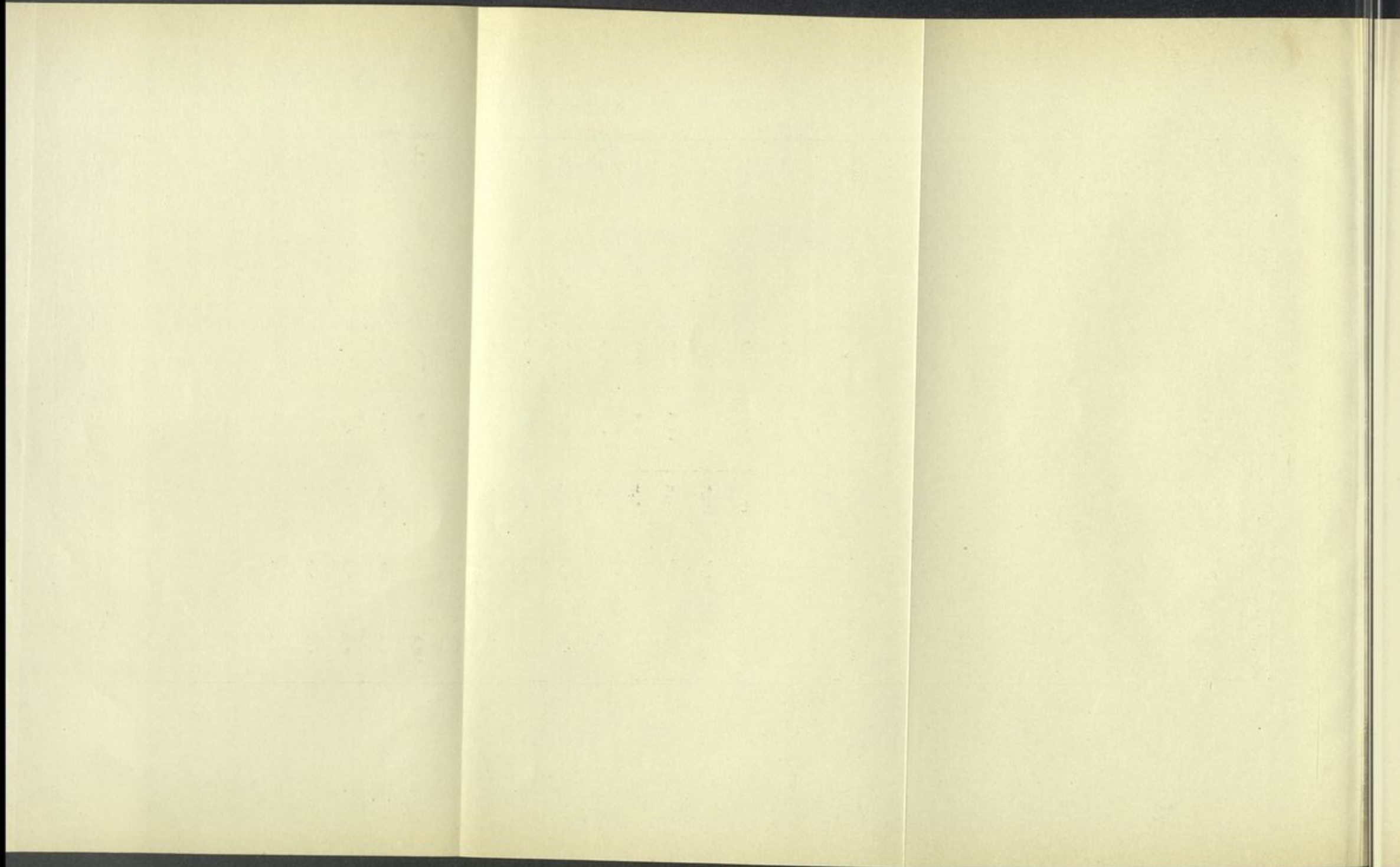
تقوم الدول التي فيها حكومات بمنظمة بعمل إحصاءات سنوية توضح عدد المواليد بها والوفيات ، وكل مايتعلق بهذا من البيانات كأسباب الوفاة ، ونسبة عدد السكان في كل مرحلة من العمر ، وعدد وفيات الأطفال ، وغير ذلك من البيانات التي يطلق عليها عامة اسم الإحصاءات الحيوية Vital Statistics . وهذه البيانات في غاية الأهمية لمن تهتم حالة البلاد الاجتماعية ، ويريد أن يراقب سيرها إلى أحسن أو إلى أسوأ التماساً لتقرير السياسة النافعة التي تتفق مع حاجة البلاد

لذلك لن نعتذر للقارئ إذا أكررنا في هذا الفصل من ذكر الأرقام والبيانات الإحصائية عن هذه الأمور الحيوية التي نخص بالذكر منها هنا أمر المواليد والوفيات

وقد جرت العادة أن تحصى المواليد والوفيات وتدرج في الجداول بالنسبة لكل ألف من السكان . فيمكن أن يقال إن نسبة المواليد في سنة ١٩٣٠ في قطر ما ٢٧,٥ لكي نفهم منه حالة المواليد في ذلك القطر ، وبالمثل بالطبع في حالة الوفيات .

فيقال إن الوفيات في القطر نفسه هي ١٧,٥ ، أى إلى كل ألف من السكان . وفي العادة بالطبع تكون المواليد أكثر من الوفيات ، وهذا ما يسمى بالزيادة الطبيعية للقطر (وهي في هذه الحالة ١٠ في الألف) تمييزاً لها عن الزيادة الغير الطبيعية التي تسببها الهجرة والغرض من إدراج الأرقام بالنسبة الألفية هو بالطبع سهولة المقارنة بين الأقطار المختلفة ، لنعرف في أى الجهات تكثر المواليد أو الوفيات ، وأى البلاد يزداد بسرعة زيادة طبيعية أو لا يزداد إلا قليلاً . ولا يفيدنا في المقارنة شيئاً أن نقول إن الذين ولدوا بألمانيا عددهم كذا ، وفي سويسره عددهم كذا ، فإن هذه الأرقام لا بد من تعديلها إلى نسبة يصطلح عليها لكي يمكن المقارنة بين البلدين

وفي الجدول المدرج في هذا الفصل سيجد القارئ إحصاء مبيناً فيه المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية لكثير من الأقطار الشهيرة . ولكل من هذه البيانات عمودان يوضح في الأول منهما الحالة في سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ ، وفي العمود الثاني تبين الحالة في آخر سنة نعلم عنها أرقاماً مؤكدة ، وهذه عادة ١٩٣٣ إن أمكن وإلا فسنة ١٩٣٢ . والغرض من العمود الثاني أن يلاحظ القارئ الاتجاه الذي تتجهه بعض البلاد من حيث النقص أو الزيادة في كل من البيانات المذكورة



القطر	المواليد		الوفيات		الزيادة الطبيعية
	١٩٣٦ — ٣٣	٣٣ أو ٣٣	١٩٣٦ — ٣٣	٣٣ أو ٣٣	
مصر	٤٤,٤	٤١,٤	٣٦,٢	٣٧,٦	١٨,٢
اتحاد جنوب إفريقية	٣٦,١	٣٣,٧	٩,٧	٩,٣	١٦,٤
كندا	٣٤,١	٣٢,٤	١١,١	٩,٩	١٣,٠
الولايات المتحدة	١٩,٧	١٧,٤	١١,٨	١٠,٩	٧,٩
بلاد المكسيك	٣٦,٧	٤٢,٧	٢٥,٦	٢٥,٢	١١,١
الأرجنتين	٣٠,٤	٣٧,٨	١٣,٥	١١,٨	١٦,٩
شيلي	٤١,٦	٣٤,٢	٢٥,٨	٢٢,٨	١٥,٨
سيلان	٤٠,٤	٣٧,٠	٢٥,١	٢٠,٥	١٥,٣
الهند	٣٣,٣	٣٤,٤	٢٤,٣	٢٤,٨	٩,٠
اليابان	٣٣,٥	٣١,٦	١٩,٣	١٧,٨	١٤,٢
فلسطين	٤٧,٣	٤٤,١	٢٣,٧	٢٢,٣	٢٣,٦
ألمانيا	١٨,٤	١٤,٧	١١,٨	١١,٢	٦,٦
النمسا	١٧,٦	١٥,٢	١٤,٤	١٣,٩	٣,٢
بليجيكا	١٨,٦	١٦,٥	١٣,٧	١٣,١	٤,٩
بلغاريا	٣٣,١	٢٨,٠	١٧,٩	١٦,٢	١٥,٢
دانمارقة	١٩,٤	١٧,٣	١١,١	١٠,٦	٨,٣
اسبانيا	٢٨,٥	٢٧,٦	١٧,٩	١٦,٣	١٠,٦
فرنسا	١٨,٢	١٦,٣	١٦,٨	١٥,٨	١,٤
البحر	٢٦,٠	٢١,٦	١٧,٠	١٤,٧	٩,٠
إيطاليا	٢٦,٨	٢٣,٥	١٦,٠	١٣,٥	١٠,٨
ترونج	١٨,٠	١٤,٩	١١,٠	١٠,٢	٧,٠
هولندا	٢٣,٢	٢٠,٨	٩,٩	٨,٨	١٣,٧
رومانيا	٣٥,٢	٣٢,٠	٢١,٢	١٨,٧	١٤,٠
بريطانيا	١٧,٢	١٤,٩	١٢,٣	١٢,٥	٤,٩
السويد	١٥,٩	١٣,٧	١٢,١	١١,٢	٣,٨
سويسرة	١٧,٦	١٦,٤	١٢,١	١١,٤	٥,٥
تشكوسلوفاكيا	٢٣,٢	١٩,٢	١٥,٣	١٣,٧	٧,٩
يوغوسلافيا	٣٤,٢	٣٣,٦	٢٠,٠	١٩,٣	١٣,٦
استراليا	٢١,٠	١٦,٨	٩,٣	٨,٩	١١,٧
زيلنده الجديدة	١٩,٧	١٦,٦	٨,٦	٨,٠	١١,١

ملاحظة : الهند لا تدخل فيها الولايات الوطنية . وبريطانيا تشمل انكثرة واسكتلندة وويلز وشمال إيرلندة . واتحاد إفريقية الجنوبية لا يدخل فيه الشعوب غير البيضاء .

وعدد المواليد قد يرتفع حتى يبلغ ٤٠ أو ٥٠ في الألف ، وقد ينقص إلى ١٤ في الألف . وليس فيما لدينا من الإحصاءات رقم أقل من هذا . وأقل رقم مدون في هذا الصدد هو عدد المواليد في أسوج فقد بلغ ١٣,٧ في سنة ١٩٣٣ . وكذلك عدد الوفيات قد يرتفع حتى يقرب من ثلاثين في الألف أو يتجاوزه ، وقد ينقص بحيث يبلغ ٨ في الألف كما هي الحال في زيلنده الجديدة وأستراليا في السنتين ١٩٣٢ و ١٩٣٣

والزيادة الطبيعية للسكان هي أيضاً بالطبع متفاوتة ، فقد تبلغ ٢٠ في الألف أو أكثر ، وقد تنقص بحيث تصل إلى واحد أو أقل من الواحد في الألف ، وفي بعض الأحيان قد تكون النتيجة بالسالب لأن المواليد أقل من الوفيات ، وهذا معناه بالطبع أن السكان لم يزدوا بل نقصوا ، وهذه الحالة نادرة جداً . وقد حدثت في فرنسا واستونيا عام ١٩٢٩ حين كانت الزيادة — ١,٠٢ في الأولى و — ١,١ في الثانية

والزيادة الطبيعية إن كبرت قد تكون بالطبع راجعة إلى كثرة المواليد ، ولسكنها أيضاً قد تكون راجعة إلى قلة الوفيات . فإذا كانت الزيادة الطبيعية مثلاً ١٠ فإن هذا قد يكون معناه أن المواليد ٢١ والوفيات ١١ ؛ وقد يكون معناه أن المواليد ٤٠

والوفيات ٣٠ ، ولنضرب مثلاً لهذا بحالة مأخوذة من الإحصاءات
الدولية فنثلاً : (١)

في اليابان سنة ١٩٢٩ كانت للمواليد ٣٢,٧ والوفيات ١٩,٩
والزيادة الطبيعية ١٢,٨ ؛ وفي هولنده سنة ١٩٢٩ كانت المواليد
٢٢,٨ والوفيات ١٠,٧ والزيادة الطبيعية ١٢,١

والقارىء يدرك بلا شك الفرق الهائل بين الحالين . فإن
الزيادة في كلا الحالين واحدة تقريباً ؛ ولكنها في الحالة الأولى
نتيجة كثرة المواليد ، وفي الحالة الثانية نتيجة قلة الوفيات . وما من
حاجة للتوسع في الشرح ، فالقارىء يرى بداهة معنى هذا للأم
وسعادتها ، فإن جهود الولادة أقل كثيراً ، وصحة الأم أحسن
كثيراً وقواها موفورة إلى أقصى درجة في المثال الثانى . كما أن
هنالك مضبعة لقوى الأم وتعطيل لحيويتها من غير فائدة عملية
في الحالة الأولى . فإذا كان هنالك خيار بين الحالين فليس من
شك في خطأ من يتردد في اختيار الحالة الثانية . والأم التى تلد
عشرة أطفال لى تشكل نصفهم حالتها شر بكثير من التى تلد

(١) معظم الأرقام والاحصاءات المدرجة في هذا الفصل مأخوذة من
الكتاب السنوى للتعداد الذى تصدره عصبة الأمم - Statistical Year-
book of the League of Nations

سته ويبقى لها أربعة ، بقطع النظر عما تكلفه الوفاة من الأحران
والنفقات المختلفة

فالذين يسرفون في تشجيع النسل بغية زيادة السكان
يخطئون الوسيلة التي توصلهم إلى غايتهم ، فإن هنالك حقيقة
طريقتين ؛ ولكن خيرا هو الذي يوصل إلى سعادة الأم وراحتها
وتوافر صحتها ، وتقليل الجهود التي تعانها والآلام التي تقاسمها ،
وفي الوقت نفسه يوصل إلى نفس الغاية المرغوب فيها . إن البلاد
التي تعبد كثرة النسل قد عميت عن هذه الحقيقة البسيطة الواضحة
كل الوضوح ، فشاع بين الناس شقاء ليس له من موجب ولا مبرر

والآن نتقل بالقارىء إلى المقارنة بين الأقطار المختلفة من
حيث المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية ، وهنا نرى اختلافاً كبيراً
بين الأقطار . فالمواليد التي تصل فيها النسبة إلى ٣٥ و إلى ٤٠ في
الألف أو أكثر قاصرة على بلاد مثل مصر وفلسطين وسيلان
وبلاد المكسيك ، وليس هنالك أى اتجاه نحو النقصان في هذه
البلاد . والذي نلاحظه أن هذه المواليد الكثيرة تصحبها نسبة
عالية في الوفيات أيضاً . فأكثر بلاد العالم في المواليد هي
بوجه عام أكثرها في الوفيات ؛ وهذا يفسره أن الازدياد
السريع في السكان يصحبه بالطبع نقص في مستوى الحياة وازدياد

في الوفيات . . والبلاد الأوربية التي تبدو فيها هذه الظاهرة (أى كثرة المواليد والوفيات) هي بلاد البلقان ؛ رومانيا وبلغاريا ؛ ويوجوسلافيا . وهي ليست في مقدمة دول أوروبا ثقافة ورقياً . فهل يمكن أن يكون هنالك علاقة بين رقى الأمة وبين قلة المواليد والوفيات فيها ؟ إن قلة الوفيات من غير شك دليل على العناية بالصحة العامة وبالطفل خاصة ، وهذا من أهم علامات الرقى ، فإذا لم يكن من الممكن ترتيب رقى الأمم حسب قلة الوفيات فيها ترتيباً محكماً ، فإنه يمكن بوجه عام على الأقل أن نقرر أن الحالة الصحية ممثلة في قلة الوفيات دليل صادق على درجة تقدم الحياة في البلاد أما من حيث الزيادة فإن فلسطين قد سبقت جميع الأقطار ، ولعل في وجود اليهود الذين يرغبون في التكاثر بسرعة شديدة ، ومجاراة العرب لهم خشية التفوق ، هذا مع الأموال الكثيرة التي تتدفق على اليهود من أنحاء العالم ما يفسر هذه الظاهرة . ومن بعد فلسطين تجيء مصر والأرجنتين وشيلي . ولولا أن نسبة الوفيات في مصر هي أعلى نسبة من أى قطر في العالم لكان لها المكان الأول في سرعة نمو السكان

وأقل أقطار العالم من حيث نمو السكان هو ، كما ينتظر ، فرنسا التي يتراوح نمو السكان فيها بين ١ و ٢ في الألف . ولكن الذى قد نطالعه بشئ من الدهشة هو أن كثيراً من الأقطار قد أخذت

تدنو من المستوى الفرنسى فى النمو، أو بعبارة أوضح عدم النمو .
فبريطانيا لم يزد نموها فى عام ١٩٣٣ عن ٢,٥ فى الألف وكذلك
بلاد السويد . والنمسا قد نقصت حتى بلغت نسبة النمو فيها ١,٣ فى
الألف . وكثير من جهات أوروبا التى بلغت فى الحضارة شأواً بعيداً ،
والتي يعيش أهلها فى شىء كثير من الراحة والرخاء مثل سويسره
ونروج وبلجيكا ، قد أصبح نمو السكان فيها بطيئاً جداً

والذى لامفر لنا من ملاحظته هو نقص المواليد و بطء نمو
السكان فى السنين الأخيرة تبعاً لاشتداد الأزمة . وليس لهذا
النقص فى المواليد إلا علاقة جزئية طفيفة بنقص الزواج . ففى بلاد
السويد لم ينقص الزواج مطلقاً بل زاد قليلاً ، وكذلك الحال فى
سويسره وألمانيا وانكلتره وغيرها ، فلا بد أن يكون نقص المواليد
راجعاً إلى عامل آخر خلاف نقص الزواج

ويمكننا إذن أن نقرر بوجه عام أن أرقى دول العالم اليوم هى
التي تجمع بين قلة المواليد وقلة الوفيات وقلة الزيادة الطبيعية ؛
وهى فى الوقت نفسه تبدى مرونة غربية فى أمر النمو فتزداد نمواً
إذا حسنت الحالة الاقتصادية ، وتنكمش فى نموها إذا ساءت

وما نشاهده من الاختلاف بين الأقطار فى هذا نشاهده
بوجه أوضح بين الطبقات فى كل أمة . فالمواليد قليلة فى الطبقات
الغنية ، كثيرة جداً فى الطبقات الفقيرة ؛ ومعنى هذا أن الأسر

ذات الذرية الكثيرة هي الأقل مقدرة على أن تعول الأطفال وترعاهم وتنفق المال في تربيتهم وتثقيفهم . وقد أورد الأستاذ كارسوندرز الأرقام الآتية لإيضاح هذه الظاهرة ، وهي تشير إلى عدد المواليد لكل ١٠٠٠ من الأزواج دون الخامسة والخمسين من العمر :

١١٩	الطبقات العليا والوسطى
١٣٢	دونهم قليلا
١٥٣	الصناعات الراقية
١٥٨	من دونهم قليلا
٢١٣	العمال في الصناعات الواطية

وهذه الحقيقة مشاهدة أيضاً في كل قطر آخر تقريباً . وبالرغم من أن نسبة الوفيات في أطفال الطبقات الفقيرة أعلى منها في سواها ، غير أن ازدياد المواليد كفيل دائماً بأن يجعل عيال الفقير أكثر عدداً عن عيال الغنى . وبهذا تتعقد مشكلة الفقر ثم تزداد تعقيداً . فإن من المؤلم دائماً أن يكون هنالك ذلك التفاوت الهائل بين الغنى والفقير . ولكن المشكلة تزداد شدة وتفاقماً حين يدأب الفقير على زيادة نسله ، فلا يساعد على حل المشكلة بالاكتفاء بعدد يسير من الذرية بالقدر الذي يستطيع أن يعوله

والتفكير في هذا الموضوع هو الذي أدى برجل مثل مالثوس

إلى أن ينصح للناس بتأخير سن الزواج ، وبأن يعيشوا عيشة
العفة والطهر ما وسعهم ذلك . والتفكير في هذا هو الذي أدى
بآخرين إلى أن يسلكوا طريقاً آخر وينصحوا بالإقلال من
المواليد بسبل أخرى . وهذا ما يسمى اليوم تحديد النسل Birth
Control . ولننتقل الآن إلى بحث هذا الموضوع في فصل
صغير تقصره عليه

الفصل العاشر

مالتوس — قديما وهدينا

إن معظم الأقطار تجتاز في الوقت الحاضر فترة انتقال من حال إلى حال ، وهي ككل فترات الانتقال تثير مشا كل عدة لابد من مواجهتها ومعالجتها ، أو على الأقل محاولة علاجها بشكل من الأشكال . أما الحالة القديمة التي بلغنا نهايتها ، فقد كانت لها مظاهر هامة سنراها بوضوح في الفصل الآتي ؛ منها ازدياد السكان في الأجيال الأخيرة ازدياداً ليس له نظير في تاريخ الإنسان ، ومنها تلك الثورة الهائلة في الإنتاج الزراعي والصناعي وفي جميع نواحي الاقتصاد البشري ، التي يسرت للناس أن يزدادوا ، وأن يجدوا مع الزيادة بسطة في الرزق فتضاعف سكان الأرض — وبنوع خاص في أوربا وأمريكا ، دون أن يلحقهم من جراء هذا النمو شقاء أو عناء . بل لقد صحبه في كثير من الأحيان تحسین في أساليب المعيشة المادية ، و بعض التقدم في الثقافة أيضاً

هذه الحال هي طور من الأطوار التي سار فيها النوع البشري ، وقد وصلنا اليوم إلى نهايتها ، فلم يبق هنالك

ذلك المجال الواسع المفتوح أمام الممالك المختلفة لتتقدم الاقتصادى
الثائر ، ولنمو الهائل فى السكان . بل نحن نشهد الآن رد فعل
خطير لذلك النمو الذى بلغ فى بعض الأقطار حداً لا يمكن أن يبقى
عنده بل لابد أن يتراجع عنه . وعلى كل حال لابد للدول اليوم
من الانتقال بسهولة أو بعنف إلى حالة جديدة فيها شىء من
الاستقرار والثبات . وليس الأمر بالطبع سهلاً لأن الإنسان إذا
اندفع فى اتجاه خاص شق عليه أن يغير هذا الاتجاه ، أو يقلل
من ذلك الاندفاع

إذن فنحن من غير شك فى نهاية فترة من فترات نمو
السكان ، وعلى عتبة فترة من فترات الثبات والاستقرار فى
السكان . ومن الواضح وضوحاً لا يدع أدنى مجال للشك أن كثيراً
من الأقطار الهامة ، قد أخذ نمو السكان فيها ينتقص نقصاً ظاهراً .
إجابة لمقتضيات الحالة الجديدة . والبلاد التى كانت فى نهاية القرن
الماضى أو أوائل القرن الحالى تسير فى النمو بنسبة ١٥ إلى ٢٠ فى
الألف أصبحت اليوم وسكانها لا يزايدون إلا بنحو ثلاثة إلى خمسة
فى الألف . والأقطار التى ثابرت على النمو رغم تغير الأحوال قد
عاقبتها الطبيعة بكثرة الوفيات وإيقاف النمو عن هذا الطريق .
والنتيجة واحدة فى كلا الحالين . لكنها فى الأولى قد أبقت
الشعوب على درجة عظيمة من الصحة والقوة والثقافة ، وفى الحالة
(١٢ — ك ب)

الثانية قد نزلت بالشعوب إلى هوة المرض والضعف والجهالة
ذلك أن خيرات العالم محدودة ، والمتمتعين بهذه الخيرات
لا بد أن يتناسب عددهم مع هذه الحدود التي فرضتها الطبيعة فرضاً
هذه هي المسألة الخطيرة التي أثارها مalthus بعنف أول القرن
الماضي ، والتي قد بلغت من الأهمية والشدة في زماننا هذا أن
اتخذت فيها الدول سياسة قومية أذاعتها ونشرتها وتمسكت بها .
وكثير من الناس الذين لم يعودوا أنفسهم مجابهة المشاكل
المعضلة الدقيقة يفضل أن يمارى في هذا الأمر الحيوى الخطير ،
ويرى أن يترك الحبل على الغارب لتحل المشكلة نفسها بنفسها .
وأصحاب هذا الرأي هم عادة من ذوى الرخاء الذين يعيشون في
كنف النعمة والصحة ولم يكفوا أنفسهم مشقة النظر والبحث فيما
يحيط بهم من الشقاء والمرض

ومنهم من يرى أن المشكلة آتية يوماً . ولكن هذا اليوم لم
يحن بعد . بل إن العالم لا يزال بعيداً جداً من أن يكون قد ازدحم
بالناس . وأنه إذا كانت هنالك أقطار قد غصت بالسكان مثل
الهند والصين فإن هنالك أقطاراً أخرى لا يزال فيها متسع ومجال
للسكان وللمهاجرين . وإن الهجرة إليها ستتنفس حتى عن الأقطار
المكتظة إلى درجة كبيرة جداً

وكذلك يحتاج أصحاب هذا الرأي بأن الانتاج العالمى قد

ازداد بل لقد فضل عن حاجة الناس ، كما هو ظاهر من وفرة
المنتجات وتكدس الغلات في وقتنا هذا . فكيف نستطيع أن
نزعم أن بالعالم فقراً في الخيرات كما زعم مالثوس قديماً ، وكما يزعم
أنصاره اليوم ؟

هذا ما قد يقال احتجاجاً بأن المشكلة ليست مستعجلة حتى
تثار حولها كل هذه الضجة . ولكن أصحاب هذه الآراء يجب
أن يذكروا أمرين هامين :

أولاً — فيما يتعلق بالمهاجرة أن العالم مقسم الآن إلى وحدات
سياسية مستقلة تتصرف في مسألة المهاجرة كما تشاء ، فلها أن تمنع
من تشاء وتقبل من تشاء . وقد اتفقت الدول في مؤتمر واشنطن
عام ١٩٢٣ أن لكل دولة الحق المطلق في تقرير السياسة التي تريد
اتباعها لتقاء المهاجرين . سواء بالحظر أو بالإباحة . وهذا مجال
تلاعب فيه العصبية دوراً خطيراً . فترى الولايات المتحدة قد
منعت بتاتاً دولا برمتها من أن يهاجر رعاياها إلى بلادها . كالصين
واليابان وغيرهما . بينما هي تبيع المهاجرة لرعايا دول مثل اسكندناوه
وبريطانيا وألمانيا ، أي التي هي أقل الأقطار حاجة إلى المهاجرة
أما البلاد التي هي في حاجة شديدة إلى أوطان جديدة ترحل إليها
فقد سدّت أمامها السبل ، وحيل بينها وبين المهاجرة ؛ والأقطار
الواسعة القليلة السكان واقعة تحت سطوة دول مثل بريطانيا

وأمریکا ، وهی لا ترغب فی أن ینهاجر إلی ممتلكاتها إلا من ترضی عنه من البیض الممتازین الذین استوفوا جمیع الشروط فالبلاد المسکتظة بالسکان هی الیوم فی عزلة تامة ، ویجب أن ینظر إلیها علی حدة ویجب أن تحل مشكلة نفسها بنفسها . وما یجدى الفقیر الذی یعیش فی حجرة ضيقة مظلمة أن تقول له لا تحزن فان فی قصر غیر بعيد منك عشرات الغرف النظيفة الجميلة وهو یعلم أن دون تلك الغرف أسواراً وحراساً وعدة وقوة لا قبل له بها .

ولیس هنالك قوة دولية تساعد علی تحویل الجماعات الزائدة من السکان عن الجهات المسکتظة إلی الجهات القلیلة السکان . وسیقئ سکان تلك الأقطار فی شقائهم حتی یتاح لهم حل آخر

ثانیاً — القول بأن الانتاج العالمی قد ازداد هو أيضاً صحیح إذا نظرنا إلی العالم جملة . ولکن یجب أن نذكر أن هذه الزیادة لیست فی الأقطار المزدحمة مثل الهند والصین ومصر ، بل هی فی جهات تعد نسبياً قلیلة السکان مثل أمریکا وأستراليا . وبعض جهات أوروبا . وهذه الزیادة هی فی الغالب نتیجة استخدام الآلات والوسائل العلمیة الحدیثة فی الإنتاج مع استخدام عدد قلیل من الأیدی العاملة . والظاهرة الأكثر وضوحاً فی زماننا

هذا خصوصاً في أثناء هذه الأزمة المالية هي ضعف الاستهلاك
لا كثرة الانتاج . لأن الدخل العام قد نقص كثيراً في مختلف
أنحاء العالم

فمن العبث إذن أن يقال للصيني مالك تموت جوعاً وفي
أمريكا أكادس المواد الغذائية ؟ من العبث أن تقول له هذا
ونحن نعلم أنه لا يملك ما يبتاع به تلك المواد

إذن فمشكلة ازدياد السكان في بلد ما يجب أن ينظر في
حلها حلاً موضعياً ، إذ لا ينفع في علاجها التطلع إلى الجهات
الخالية في أقطار أخرى ، ولا النظر إلى موارد متوافرة في جهات
ليس له سلطان عليها . فلينظر إذن كل قطر في علاج مشكلته بنفسه
ولا بد لنا وقد وصلنا من بحثنا إلى هذه المرحلة أن نتساءل
ولكن كيف السبيل إلى علاج معضلة الازدحام في بلاد محدودة
الموارد قد زاد فيها السكان إلى درجة أن الكثرة العظمى من
الأمم تعيش بالكفاف أو بما هو دون الكفاف ؟

إن السؤال بالطبع ليس جديداً . والإنسان الذي في حالة
الفطرة وفي زمن الجاهلية قد عالج المشكلة علاجاً عنيفاً بقدر ما أوتي
القدرة على التصرف في شؤونه . فلجأ الناس إلى الوأد خشية الفقر ،
وإلى الإجهاض ، وإلى الترهيب والامتناع بتاتاً عن الزواج ،
أو إلى التقليل من معاشرة الزوجة — وعند كثير من القبائل التي

تدعوها متوحشة تبقى الزوجة زمناً عند أهلها بعد كل ولادة —
أو إلى تأخير سن الزواج أو غير ذلك من الطرق التي لا نستطيع
الإشارة إليها والتي كان من نتائجها — عمداً أو بغير عمد — أن
السكان وقف نموهم

والإنسان لو ألقى الحبل على الغارب لأوصله النمو المستمر
إلى حافة الهلاك . وهي حال يستحيل معها على الشعب النهوض
والتقدم . ولهذا كان هنالك حاجة شديدة لأن يكون عدد
السكان لبلد من البلاد أقل من العدد الذي يمكن أن يبلغوه .
ومن هنا نشأت عند الناس عادات تؤدي إلى تقليل النرية .
وقد قطع الإنسان في هذه الأمور شوطاً بعيداً ، وشغل المفكرون
بهذا زمناً طويلاً . وكان التفكير في أمر السكان دائماً من نوعين :
في وقت القلة يذهب المفكرون إلى ضرورة الزيادة والنمو . وفي
وقت الازدحام يفكرون في التقليل والنقص . وفي العالم المتمدين
اليوم تيارات مختلفة تتجه اتجاهات شتى ؛ ولكن من البديهي
أن الزمن الذي كان الناس يفتخرون فيه بكثرة النسل قد
انتهى ، وأصبحت الظاهرة الشائعة في الدول المتقدمة هي إخضاع
ظاهرة النسل لإرادة الزوجين

ولقد كان لارتفاع المرأة وارتفاع منزلتها في الأزمنة الحديثة
دخل كبير في إيجاد هذه الظاهرة . فقد سار رقي المرأة مع تقليل

النسل جنباً لجنب . فان الزمن الذي تقضيه في تلقى العلم مع ممارسة الألعاب الرياضية كل هذا يؤخر زمن البلوغ ويؤخر سن الزواج . ويشغل المرأة عن مجرد الجلوس وانتظار العروس . وأصبحت للمرأة حقوق ؛ وباتت تنطلع إلى أن لها في الحياة حقاً بأن تتمتع بخيرات الحياة وأن تأخذ من نعيمها بنصيب ، وأنها ليست مجرد آلة لانتاج الأطفال ، بحيث يطفأ نورها وتذهب بهيجتها وتذوى نضرتها وهي بعد في سن الشباب ، بينما الرجل مالك تمام قواه وصحته وبهيجته . ورقى المرأة بالطبع أساس رقى الأمة ، ولهذا كانت أرقى الدول هي التي بها أرقى النساء ، وهي في الوقت نفسه قليلة المواليد حقيقة إن لكثرة السكان أهمية لاتجحد ؛ وإذا كان البلدان في حالة واحدة من حيث الرقى المادى والأدبى . فان للدولة الكبيرة العدد مثل الولايات المتحدة مزاياء على دولة صغيرة العدد مثل الدانمارقة . ولكن مع ذلك فان مجرد الكثرة لم تصبح اليوم في مثل ما كان لها من الخطر وليس في صدر أحد لأهل الولايات المتحدة احترام أو إكبار أو تقدير لمجرد عددهم ؛ وإذا قيل للانسان هل يفضل أن يكون من رعايا إيطاليا على كثرة عددها أو من رعايا سويسرة على قلة عددها فان كثيراً من الناس يفضلون الدولة الأقل عدداً والأكثر رقياً . وماينفع بلد أن يكون سكانها ثلاث مائة مليون من الناس . ثم يتحكم في مصيرهم

طائفة من المستعمرين لا يتجاوزون بضعة عشر ألفاً كلاً لقد أصبحنا في زمن لا ينظر العتلاء فيه إلى مجرد العدد ، وأصبح العقل يتطلب منا أن نزن الرجال لا أن نعددهم

لهذا نرى الدول الكبيرة أصبحت لا تتخرج اليوم من أن تعضد سياسة ترمي إلى منع نمو السكان ، ولا ترى في هذا بأساً ولا ضرراً . وباتت الأسرات في البلاد الراقية تسعى لأن تكون مخيرة في أمر النسل لا مسيرة . وذلك ما يعبر عنه بعبارة ضبط

النسل أو تحديد المواليد Birth Control

أما مalthus فكان يرى ، كما قدمنا ، ضرورة تحديد النسل بطريق العفاف وتأخير الزواج ، والامتناع عن معاشرة الزوجة . وكان مع هذا يدرك ضعف النوع البشرى وعجزه في الغالب عن اتباع تلك التعاليم الزهدية السامية . ولهذا كان مalthus يائساً ، ويعتقد أن مصير بنى وطنه ومن على شاكلتهم مخوف بالمسكاره والشقاء ، ذلك الشقاء الذي شاهده فعلاً في أوساط العمال في بلاده

لكن الحركة الجديدة التي ترمي إلى تحديد النسل تذهب مذهباً جديداً . وتتوخى السبل العملية ، حاسبة للطبع البشرى وللضعف البشرى حسابهما . فهي تنصح بالتبكير بالزواج قذ المستطاع منعاً لا انتشار الموبقات ، وبتقليل النسل باتخاذ وسائل

لمنع الحمل ، والمؤلفات اليوم كثيرة في هذا الموضوع ويتداولها الناس في أوروبا من غير أدنى حرج ، ولكن هذه الحال لم تكن دائماً بهذه السهولة

ففي عام ١٨٧٧ أراد كاتب انجليزى أن ينشر رسالة عنوانها (ثمرات الفلسفة) ضمنها مقالات عن كيفية تحديد النسل . فأبت عليه حكومة انكلترة نشر هذه الرسالة . فتطوع اثنان من كبار المصلحين في انكلترة وهما السيدة آنى بزانث وشارل برادلوا بأن طبعوا الكتاب واتخذوا دكانا في قلب العاصمة وأخذوا يبيعان الكتاب للجمهور . فاضطرت الحكومة إلى محاكمتها ؛ وكان لهذه المحاكمة دوى هائل في جميع الأوساط كان من شأنه أن انتشرت بين الناس المعلومات التي أريد منعها عنهم . وحكم القضاء على السيدة بزانث والمستر برادلوا ثم ألغى الحكم . ولكن الغرض الذي كانا ينشداه قد تحقق على كل حال ، فان الرأي العام قد اتجه فجأة إلى النظر في هذا الموضوع الخطير ، وإلى التحدث في شأنه

وعلى أثر هذا الحادث تأسست في انكلترة (جمعية ماثوس) الأولى لنشر العناية للزواج مع تقليل النسل بتقليل الحمل ، وأخذ يتكون في انكلترة عدد كبير من العاملين الذين كرسوا حياتهم — وكثير منهم من النساء — للإصلاح الاجتماعي في هذه

الناحية ، وعلى الأخص بين طبقات الفقراء . ومن انكثرة
انتشرت الدعاية الى القارة الأوربية ، وأسست جمعيات على
النمط ذاته في هولندا وبلجيكا واسكتلندا وفرنسا وألمانيا . ثم
لم يقتصر الأمر على الدعاية بل أسست المستوصفات التي يجلس فيها
أطباء أو ممرضات لإرشاد الآباء والأمهات إلى وسائل منع الحمل
ولبذل النصيحة اللازمة لهم في كل ما له علاقة بحياتهم كأُسرة .
وهذه المستوصفات تصرف للفقراء بتمن زهيد ما قد يحتاجونه من
الأدوات التي تحقق الغرض المنشود ، والذي يمر في شوارع مدينة
مثل لندن قد يندهش للعدد الهائل من لدكاكين الصغيرة التي
تبيع المؤلفات والأجهزة المتعلقة بتحديد المواليد في جميع الأحياء
من غير أدنى حرج

وقد اشتهر في انكثرة بنوع خاص عدد من النساء اللواتي
خدمن الدعوة إلى تحديد النسل خدمات كبيرة . ومن أشهرهن
الدكتور ماري ستويس والمسز مرجريت ساندروز

وبالطبع قد لقيت هذه الدعوة إلى تقليل النسل جموعاً هائلة
من المعارضين ، ولكن هؤلاء قد أخذ عددهم يقل ويضعف على
مدى السنين . والمعتضون ضروب . منهم من يعترض على وسائل
منع الحمل بأن هذا تدخلاً كريهاً مردولاً في أمور يجب أن تحاط
دائماً بسور من القداسة والسكتمان والحياء . وهؤلاء قد أصبحوا

اليوم — في أوربا على كل حال — أقلية لا تستحق الذكر ،
والحقيقة أن ليس هنالك محل للحياء ما دامت النصيحة تلمس في
حشمة وأدب وتعطى بواسطة أناس مختصين . وإذا كنا لاستجبي
أن نستشير أطباءنا في كل شأن من شئون صحتنا فمن الغلو أن نفرق
بين مثل هذه الاستشارة وغيرها . ليس في الناس من ينادى بأن
وسائل منع الحمل يجب أن تكون حديث المجالس ، ولكن
تجنب الكلام بتاتا في موضوع مرتبط أوثق الارتباط بصحة
الأم وتربية الأطفال وهناء الأسرة أمر لا يمكن أن ينصح
به منصف

ومن المعارضين على حركة تقليل النسل بمنع الحمل من يقول
إن الوسائل المتبعة في ذلك كلها أو معظمها ليست وافية بالغرض
وفاء تاماً . وليس من شك في أن هنالك محلاً للاعتراض على كل
طريقة سواء أكانت آلية أو كيمياوية أو وقائية أو امتناعية
أو جراحية أو غير ذلك . ولكن وجود محل للاعتراض على
العلاج شيء ، وتعاطى العلاج شيء آخر ؛ فمن المعلوم أن كثيراً مما
يتعاطاه الإنسان من الأدوية لا يخلو من غضاضة أو قد لا يكون
ناجعا ، ولا مؤكداً الأثر . ومع ذلك فإن طبيعة الأمر تستدعي
العلاج بجميع الوسائل الممكنة . والذي لا بد من التسليم به أن
الوسائل المختلفة التي تتبع في الإقلال من الحمل ، والتي ينصح بها

الأطباء الذين درسوا الموضوع والمرضات في المستوصفات الخاصة بذلك ، قد كان لها أثر واضح في تقليل عدد المواليد ، وتصغير حجم الأسر في بلاد مثل انكلترة وألمانيا بل وفي سائر العالم المتمدن فالمصلح الاجتماعي الذي يأبى أن يسير في هذا الطريق — مع علمه بضرورته — لأنه لم يصل بعد إلى درجة الكمال ، مثله كمثله الطبيب الذي يأبى أن يعالج مريضاً بكل الوسائل الممكنة ، لأنها ليست محققة النجاح

ومن أكبر المعارضين لفكرة الإقلال من الحمل رجال الدين من الكاثوليك . ولهم في هذا حجج مختلفة لا حاجة بنا إلى شرحها هنا . وبرغم هذا فإن فرنسا الكاثوليكية قد تعمدت الإقلال من النسل منذ زمن طويل . وإيطاليا الكاثوليكية قد أخذت تنقص من نسلها في المدة الأخيرة . برغم الدعاية العنيفة التي تقوم بها حكومتها

أما الدول البروتستانتية فلم ترق حائلاً قوياً أمام الدعوة إلى الإقلال من النسل ، باستخدام الوسائل المانعة للحمل . وانكلترة قد اتخذت في هذا الطريق سنة صريحة جريئة لم تكن تنتظر من تلك الدولة التي اشتهرت بالحفاظة وبشدة التمسك بمظاهر الحشمة . ذلك أنها أقامت لجنة تبحث الموضوع بحثاً وافياً واسعاً ، ثم نشرت نتيجة هذه البحوث في أربع مجلدات ، تعد من أهم المراجع

في موضوع تحديد النسل . ثم أدهشت العالم أجمع في صيف سنة ١٩٣٠ حين اجتمع أساقفتها برئاسة زعيمهم الأكبر ، وأصدروا للناس قراراً حاسماً بأن الدين لا يحرم الالتجاء إلى الوسائل التي تؤدي إلى الاقلال من الحمل . أما الدين الاسلامي ، فليس فيه ، فيما يبدو لنا ، ما يدل على تحريم تحديد النسل بالوسائل المذكورة . بل إن ما لدينا من الأدلة يشير صراحة إلى أن الدين يبيح الالتجاء إلى تلك الوسائل . وليس هذا مقام الإدلاء بشواهد على ما نقول ولكن ليرجع من شاء زيادة الايضاح إلى كتاب إحياء العلوم لحجة الإسلام الغزالي ، ويطالع فيه الفصل الخاص بهذا في الجزء الثاني^(١)

ظاهر إذاً مما ذكرناه في هذا الفصل وفي سابقه أن الأقطار المتمدنة من غير استثناء قد قلت من نسلها بالالتجاء إلى وسائل لمنع الحمل ، لأنه إن لم يكن هنالك بد من الالتجاء إلى طريقة لتقليل النسل ، فبديهي أن هذه الوسائل خير من سواها ، فليس فيها تلك القسوة والبشاعة التي في الاجهاض أو وأد الأطفال . وهي أفضل من أن يترك السكان ليزدادوا ازدياداً هائلاً ، ويعيشوا بسبب ذلك في فقر وضنك ومرض وإجرام . وظاهر أن الناس

(١) وي نوع خاص صفحة ٤٧ و ٤٨ من طبعة الحاي

لم يلتجئوا إلى تقليل النسل زهداً في الأطفال أو كرهاً لهم ، بل بالعكس ، حرصاً عليهم أن يحول ضيق ذات اليد دون العناية بأمرهم وتهذيبهم في زمن أصبحت فيه تكاليف التربية ثقيلة باهظة . فالأسرة قد تستطيع أن تربي ولدين وتبلغ في تربيتهما مبلغاً حسناً ، أما إذا كانوا أربعة ، فليس معنى هذا أن اثنين سيعنى بهما واثنين يهملان ، بل النتيجة أن الأربعة سسيربون تربية وسطاً لا تمكنهم من المزاومة في مضمار الحياة ، الذي اشتد فيه التنافس بازدياد السكان . وإذا أردنا أن نكون أكثر وضوحاً فلنتصور أن الأسرة تستطيع أن تربي ولدين في جميع مراحل التعليم إلى أن يتخرجوا من الجامعة ، فإن هذه الأسرة بعينها قد تعجز عن تربية أربعة أولاد إلى نهاية التعليم الثانوي . وهؤلاء قد يجدون في الحياة مجالاً ومكسباً ، ولكنه مجال أضيق ، ومكسب أقل بكثير مما يجده الأولاد

ومن الدليل على أن الفقر هو الذي بعث الناس على تقليل النسل في أوربا ما نراه من قلة المواليد قلة ظاهرة في البلاد المجردة مثل النمسا ، وفي مدة الأزمة الحالية بنوع خاص في سائر الأقطار المتعدنة . فقد كان عدد المواليد في انكلترا في المدة الأخيرة كما يأتي :

السنة	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
المواليد	١٦,٧	١٦,٨	١٦,٣	١٥,٨	١٤,٩
الوفيات	١٣,٦	١١,٧	١٢,٦	١٢,٣	١٢,٦
الزيادات الطبيعية	٣,١	٥,١	٣,٧	٣,٥	٢,٤
الزواج	٧,٧	٧,٨	٧,٦	٧,٥	٧,٧

فعدد المواليد سائر في طريق القلة ، مع أن الزواج لم يقل .
ومهما قيل في أن نقص المواليد هذا ، لعل له بالأزمة ، فإن
الأدنى إلى العقل أن يكون له علاقة وثيقة بها . وهذا أمر له
مغزاه ، وهو أن الآباء لم يقلوا من نسلهم إلا خوفاً أن يعجزوا
عن الاتفاق على تربية أولادهم والعناية التامة بشؤونهم ورفع
مستواهم في الحياة . وليس الأمر راجعاً إلى بغض النسل ، كما يعلم
كل من عاش وسط الأوربيين عن عنايتهم الشديدة ، وجههم
المفرط لأطفالهم

وصحيح أن شيئاً كثيراً من تحديد النسل يرجع إلى الرغبة
في توفير راحة الأم ، وعدم إرهاقها بمشقات الحمل الكثير وآلام
الخاص . ولا يستطيع منصف أن يعترض على هذا الأمر .
ويعزوه إلى أنانية الأم الحديثة . فليس من الأنانية في شيء أن
تكون الأمهات سلطات قويات ، قادرات على العناية بشؤون المنزل
ورعاية الأطفال ، والأخذ بنصيب من نعيم الحياة وثقافة العصر

وعلى كل حال فما يجمل بنا نحن الشرقيين أن يمنعنا التعنت من مواجهة هذه الحقيقة المرة ، وهى أن الأوروبيين قد استطاعوا بانتباههم ويقظتهم أن ينقصوا من حجم أسرهم ، وتقليل عدد الأطفال ، وتمكنت كل أسرة بذلك أن تعنى بتربية أبنائها وتنقيفهم إلى أقصى حد . وهم بذلك قد كسبوا قوة جديدة فوق قوتهم ، وتمكنوا من أن يبرزوا في ميدان جديد . وليس هذا وحده الخطر ، ولكن الخطر الحقيقي هو هذا الجود السائد في بعض بلاد الشرق التى تزداد عدداً وجهلاً ومرضاً ، ويأبى الذين في أيديهم أمرها إلا أن يعضوا النظر ، أو يكابروا ، أو يمتنعوا عن مجابهة هذه المشا كل بقوة وشجاعة

بقيت كلمة نختتم بها هذا البحث ، وهى أن كثيراً من حركة تقليل النسل مرتبط بحركة أخرى ومذهب جديد اسمه الأوجينية : Eugenics أى دراسة الوسائل المؤدية إلى تحسين السلالة . وقد أصبح هذا المذهب شائعاً حتى لقد أسس كرسى في جامعة لندن للدراسات الأوجينية . والغرض من هذه الدراسة البحث عن الوسائل التى يمكن بها ترقية الإنسان ككائن من الكائنات ، كما يعمل الناس على ترقية سلالات الخيل والماشية وغيرها ، وهنالك بحوث كثيرة في هذا الميدان ليس لذكرها مكان هنا ،

ونحن نرى أثرها في قوانين كالتى سنتها ألمانيا حديثاً لتعقيم معتادى الإجرام ، والمعتوهين ، والمصابين بأمراض وراثية ، وكذلك القوانين التى سنت فى بعض الأقطار ، وهى التى تقضى بضرورة تقديم الراغبين فى الزواج شهادة معتمدة بخلو كل منهما من الأمراض

وتقليل النسل هو من أبسط وأيسر الوسائل التى تؤدى حتماً إلى تحسين السلالة ، وذلك بأن يعطى كل مولود العناية القصوى والتربية الصالحة ؛ وهذا سيؤدى حتماً إلى تحسين النسل وترقية الجنس

فأمام هذا التقدم من كافة النواحي ، يجدر بالمفكرين فى الأقطار الشرقية أن يخرجوا من جمودهم وأن يبحثوا هذا الموضوع بكل جرأة وبكل دقة ، فما تستطيع أمة أن تتخلف عن العالم المترقى هذا الشوط البعيد إلا إذا كانت تريد أن ترد موارد الدمار

مدرسة المحبة الوطنية
عائشة بلينا

الباب الرابع

حالة السكان في بعض الأقاليم

باب الاول

في بيان بعض احوال

الفصل الحادى عشر

سكان أوروبا

الزيادة الحديثة :

لقد ازداد سكان الأرض جميعاً زيادة هائلة فى الأجيال الأخيرة . ليس فى هذا أدنى شك ، وهذه الزيادة ليس لها نظير — كما قلنا من قبل — فى تاريخ النوع البشرى . ولو كان لدينا إحصاء دقيق عن نمو السكان فى مختلف القارات ، لوجدنا أن الزيادة الطبيعية فى قارة أوروبا أكثر منها فى أية قارة أخرى . ولا يكفى لفهم هذا أن ننظر إلى نمو السكان فى أوروبا وحدها ؛ بل يجب أن نذكر إلى جانب هذا زيادة السكان فى قارة أمريكا وأستراليا وكثير من الجهات التى هاجر إليها الأوربيون . وهؤلاء المهاجرون لا يدخلون بالطبع فى إحصاء سكان أوروبا

ومع ذلك — وبقطع النظر عن المهاجرين إلى العالم الجديد — نرى نمو سكان أوروبا من أول القرن التاسع عشر إلى قبيل الحرب نمواً هائلاً كما هو ظاهر فى الجدول الآتى :

١٩١٠	١٨٠١	
٤٥ مليوناً	١٥	الجزر البريطانية
» ٦٥	٢٥	ألمانيا
» ٤٦	٢٥	النمسا والمجر
» ٣٥	١٨	إيطاليا
» ٤٠	٢٧	فرنسا
» ١٤٠	٤٠ (؟)	روسيا

وهذه الزيادة العظيمة تظهر بوضوح إذا قارناها بالزيادات التي سبقتها . فمثلاً في انكلترة وبلاد الغال يقدر السكان في القرون السالفة بالقدر الآتي :

في القرن الحادى عشر	كان السكان ١٢ مليوناً
» الخامس عشر (١٤١٥)	» ٣ ملايين
» السابع عشر (١٦٢٥)	» ٥½
» التاسع عشر (١٨٠١)	» ٩
» العشرين (١٩٠١)	» ٣٢½

فكان النمو بطيئاً جداً في القرون السالفة ، ولكنه اشتد مرة واحدة في القرن الأخير ، وفي أوائل القرن الحالى ويتألف سكان أوربا من عناصر ثلاثة رئيسية وهى :
التيوتونيون ، واللاتين ، والسلاف ، ولم يكن نمو هذه العناصر

بنسبة واحدة ؛ فكانت نسبة هذه العناصر بعضها إلى بعض كما يأتي :

١٩٠٥	١٨٥١	١٨٠١	من كل ألف من سكان أوروبا
٣٧٣	٣٦٩	٣٧٥	تيوتون
٢٥١	٣٢١	٣٥٥	لاتين
٣٧٥	٣١٠	٢٦٨	سلاف

وهذا الجدول الذي يوضح النسبة الألفية لكل عنصر من العناصر في أول القرن التاسع عشر وفي منتصفه وفي أول القرن العشرين ، يرينا بوضوح أن العناصر الثلاثة موجودة بنسب متقاربة ؛ ولكن العنصر اللاتيني أصبح أقل بالنسبة للعنصرين الآخرين ؛ والعنصر السلافي قد ازداد عدده بنسبة أكبر من العناصر الأخرى ، حتى أصبح له المكان الأول . وقد ظلت نسبة العنصر التيوتوني كما هي تقريباً

* * *

سكان بريطانيا :

يتساءل الإنسان طبعاً كيف كان ازدياد انكثارة سريعاً جداً في القرن الأخير ، بطيئاً جداً فيما سبقه من القرون : ويعزى بطلان التوفيق المسمى إلى أن الناس كانت تمارس عادات من شأنها إضعاف

النمو ، كتأخير الزواج والإجهاض . ويقال إن وأد الأطفال لم يكن مجهولاً . ومن الجائز أن كان هنالك طرق أخرى لتقليل النسل نجعلها الآن . ولابد لنا من التسليم بأن الأمراض كانت أشد فتكاً ، والحالة الصحية في درجة منخفضة . وكانت الحالة الاقتصادية إلى أول القرن التاسع عشر لا تسمح بالنمو السريع ، لأن البلاد كانت بعد معتمدة على الزراعة كمورد أساسي ، والتجارة كمورد ثان . أما الثورة الصناعية فلم تكن قد بدأت بعد

وفي أثناء القرن التاسع عشر كانت انكثارة في مأمن من الحروب التي اجتاحت أوروبا وأفتت عدداً كبيراً من سكانها فتأخر نموهم تبعاً لذلك . ولم تترك انكثارة في حرب خطيرة سوى اشتراك جزئي في حروب نابليون وفي حرب القرم ، فأمنت نقص السكان من هذه الناحية . وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر أخذت الصناعة تتقدم تقدماً هائلاً ، والحاجة إلى الأيدي العاملة تشتد ، فلم يعد هنالك حاجة إلى تقليل النسل ؛ وجعل السكان يزدادون على فطرتهم حتى وصلوا من ١٥ مليوناً في أول القرن إلى ٤٥ مليوناً في آخره . وقد كانت الثورة الصناعية في انكثارة سابقة لمثلها في ألمانيا ، أو فرنسا ، أو بلجيكا ، أو إيطاليا ، ولهذا نرى النمو السريع في سكان انكثارة ما بين عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٧٥ ، ثم أخذت نسبة النمو تقل بعد ذلك إلى قبيل الحرب .

وقد أضحى النمو بطيئاً جداً في الوقت الحاضر . ويرى كثير من الكتاب الانكليز أن النمو يجب أن يصبح بطيئاً ، لأن الأزمة الاقتصادية التي تعانيها البلاد والعدد الهائل من العمال العاطلين ، كل هذا لا يسمح ولو مؤقتاً بمتابعة النمو ، خصوصاً أن المهاجرة لا تنفس كثيراً عن هذا الازدحام ؛ لأن الدول لا ترغب في المهاجرين المغلسين

وهكذا اتخذت الحكومة الانكليزية ، بل والأمة أيضاً ، سياسة صريحة في أمر السكان تقضى بتقليل النمو إلى أقل حد ممكن

أيرلنده :

إن الزيادة المذكورة من قبل قاصرة على بريطانيا العظمى ولا تنصرف إلى أيرلنده . فإن أيرلنده مثال نادر في أوروبا لبلاد كان سكانها كثيرين ثم نقصوا . ففي عام ١٨٤٠ كان سكان أيرلنده يزيدون على ثمانية ملايين ، وسكان انكلترة و بلاد الغال ١٦ مليوناً ؛ أما اليوم فسكان أيرلنده $\frac{1}{3}$ ٤ مليوناً ، بينما سكان انكلترة وبلاد الغال اليوم ٤٠ مليوناً

ويزعم بعض الكتاب الإنكليز أن أيرلنده في ذلك الوقت (سنة ١٨٤٠) كانت قد تجاوزت الحد في السكان ؛ وكان أهم غلاتها البطاطس ، الذي هو قوام الحياة لسكانها . وليست البلاد

على جانب عظيم من الخصوبة . وفي عام ١٨٤٦ — ١٨٤٧ أصيب محصول البطاطس بنقص فظيع بسبب وباء لحق المزروعات ، ناشئ من أحوال جوية غير ملائمة (مطر غزير مع انخفاض درجة الحرارة) . فانتشرت الجماعات في البلاد ويقدر أن ربع مليون من السكان قد هلكوا جوعاً . وأخذ سيل المهاجرين يتدفق إلى الأقطار الجديدة في أمريكا والمستعمرات المستقلة ، وهبط عدد السكان باطراد إلى وقتنا هذا

ذلك ما يزعمه الكتاب الانكليز ، ولكن القارىء لهذه البيانات يجب ألا يقبلها من غير أن يصغى إلى الطرف الآخر . فالإيرلنديون بلا شك قد عانوا شداً وأهوالاً من الاستعمار الانكليزي ؛ فقد كانت أراضيهم تؤخذ منهم لكي يملكها سادة من البروتستانت ، وقد تعرضوا لأنواع غير ذلك من ضروب الاضطهاد والظلم . وقد قال الزعيم الإيرلندي جريفت إن إيرلنده لو تركت لشأنها لاستطاعت أن تسع عشرين مليوناً من السكان من غير مشقة . وبالرغم من أن هذا القول قد ينطوى على شيء من الغلو ، فإن أربعة ملايين عدد قليل جداً في بلاد مساحتها نحو تسعين ألف من الكيلو مترات . وفي القطر المصري في نحو ثلث هذه المساحة يعيش خمسة عشر مليوناً من الناس

على كل حال إن أيرلنده مثال نادر لبلاد قد تقهقرت في السكان في وقت قد اشتد فيه تقدم سكان العالم

توزيع السكان في الجزر البريطانية :

تنقسم أيرلنده — بفضل جهود انكثرة على مدى أجيال طويلة — إلى قسمين : أيرلنده الشمالية البروتستانتية ، وهي جزء من المملكة المتحدة . و أيرلنده الجنوبية الكاثوليكية التي يطلق عليها اسم دولة أيرلنده الحرة The Irish Free State . والأولى أصغر حجماً وأقل سكاناً : (مليون وربع) ؛ بينما الثانية سكانها نحو ثلاثة ملايين . وفي كلا الإقليمين يعتمد الناس على الزراعة كمورد أساسي ، وبنوع خاص على تربية الماشية وما يتبع هذا من الغلات . فالسكان موزعون لهذا بشيء من الاعتدال في سائر أنحاء الجزيرة بكثافة تتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ شخص لكل كيلو متر المربع

ولكن هنالك جهتين شديتني الازدحام بالسكان : وهما المنطقة المحيطة بمدينة بلفاست في أيرلنده الشمالية حيث توجد صناعات كثيرة أهمها المنسوجات وبخاصة الكتان ؛ وكذلك حول مدينة دبلن بعض الصناعات من هذا النوع ، وهي لذلك منطقة مزدحمة أيضاً . ومن جهة أخرى نرى جهات قليلة السكان (أقل من عشرين للكيلو متر) في الجزء الأوسط الكثير المستنقعات

النباتية من النوع الذى يسمى هنالك Peet Bogs . وطبيعته المستقيمة ترجع إلى كون الإقليم منخفض الوسط مرتفع الأطراف ، بحيث لا تتكاد الأمطار تجد سبيلا إلى الانحدار إلى البحر . وكذلك الأطراف الغربية الشمالية ، والغربية الجنوبية ذات التربة الفقيرة قليلة السكان . وهى جهات جبلية صخرية قليلة النبات .

أما اسكتلندة فأكثرها مرتفعات جبلية قليلة الخصوبة . وهذه الجبال قسمان : القسم الأكبر فى الشمال ، وفيه أعلى جبال بريطانيا كلها ؛ والقسم الثانى فى الجنوب من ناحية انكثرة . وكثير من هذه المرتفعات خلاء قفر ، أو قليل السكان جداً (أقل من عشرين شخصاً للكيلومتر المربع) . وفيما بين هذين الإقليمين الجبليين أرض سهلة منخفضة ما بين خليج الفورث وخليج الكلايد ، وعلى الأول مدينة أدنبرة العاصمة ، وعلى الكلايد مدينة جلاسجو . وفى هذا السهل المنخفض ازدحم السكان ازدهاماً هائلاً ، فهنا مقر العمران والصناعة وكثافة السكان . وليس حول أدنبرة صناعات كثيرة ؛ ولكن جلاسجو مركز لصناعات فى غاية الأهمية ، فهى أكبر مركز لصناعة السفن ؛ ومن حولها صناعات أخرى كالمنسوجات : الصوف والتيل والقطن ؛ وفى هذا السهل كثير من مناجم الفحم ، وهذا من دواعى الازدهام ، من أجل استخراج هذا المعدن

والسواحل الشرقية في اسكتلنده أكثر عمراناً من السواحل الغربية ؛ وعلى الخصوص حول مدينة أبردين وندى حيث ينسج الكتان بكثرة . والسواحل الشرقية على وجه العموم تحف بها أراض منخفضة نوعاً ومطمئنة ، بينما السواحل الغربية وعرة جبلية ، ولهذا قلت فيها المدن وقل السكان

وفي ويلز — بلاد الغال — نرى القطر الجنوبي فيها المركز حول مدينة كارديف شديد الازدحام جداً (بنسبة تزيد على ٥٠٠ للكيلومتر) ، وهذا راجع إلى أن هذا الإقليم من أهم مناطق الفحم البريطانية ، وفحمة من أجود أنواع الفحم ، والاتجار فيه عظيم ، والأيدى العاملة التى تشتغل باستخراجه كثيرة ؛ والناس مزدحمون في هذا الجزء من بلاد الغال بدرجة عالية . وهما هنا ، في هذا الركن الجنوبي الشرقى من ويلز ، يعيش نحو ثلاثة أخماس سكان ويلز ، وهما نجد أكبر مدن ويلز جميعاً : سوانزى Swansea وكارديف Cardiff ونيو پورت Newport . وأما باقى ويلز فقليل السكان صغير المدن ، لأنه إقليم جبلى أكثره مراعى للفحم ؛ والزراعة فيه قليلة ، وليس به صناعات هامة .

أما انكاثرة فهى بالطبع أكبر وأهم أقسام بريطانيا ، وهى

مزدحمة جداً بالسكان ، وتفوق جميع أقطار أوربا في هذا .
وازدحام السكان في بريطانيا لا يرجع إلى ثروتها الزراعية ، مع
أن تربتها جيدة ومناخها صالح لكثير من الغلات . ولا تتبع
كثافة السكان فيها سقوط الأمطار ، لأن كل جزء منها فيه من
المطر ما يكفي . وإنما يزدحم السكان حيث الصناعة ، وحيث
تستخرج المعادن وخاصة الفحم . وأهم الأقاليم الشديدة الازدحام
في انكلترا :

١ — إقليم نيوكاسل

على مصب نهر التين Newcastle-on-Tyne ، فهنا إقليم
يضرع في إنتاج الفحم جنوب ويلز ، ويضرع في صناعة السفن
جلاسجو ، وحركته التجارية والصناعية — وخصوصاً الصناعات
المعدنية — حركة عظيمة جداً ، والسكان هنا بالطبع شديدي
الازدحام في المنطقة التي مركزها نيوكاسل ، والتي يقع جزء منها في
مقاطعة درهام Durham جنوباً ونورثمبرلند Northumberland
شمالاً

٢ — الجزء الجنوبي من مقاطعة « يوركشير »

شديد الازدحام بالسكان ، وليس كل مقاطعة يوركشير
مزدحماً ؛ بل فيها نواح قليلة السكان في الشمال والشرق . وإنما
المزدحم حقاً هو الإقليم الجنوبي الغربي ، الذي يطلق عليه اسم وست

ريدنج West Riding . ففي هذا الإقليم مناجم عديدة للفحم ، ومدن كثيرة منهمكة في صناعة المنسوجات الصوفية المختلفة ، وهذا هو الإقليم الأكبر للصوف في انكلترة ؛ اشتهر سكانه بهذا الضرب من النسيج منذ زمن قديم . ولعل السبب الأول في ذلك كان يرجع إلى جودة الصوف في هذه الناحية ، ثم اكتسب السكان في هذا مهارة لازمتهم ؛ ولو ان معظم الصوف اليوم مستورد من الخارج وعلى الأخص من استراليا . وفي هذا الإقليم الصغير عدة مدن من أشهر وأكبر المدن الانكليزية مثل ليدز و برادفورد وغيرها وفي الطرف الجنوبي من يوركشير منطقة منفصلة عن منطقة الصوف ، وهي تحيط بمدينة شيفلد . وفيها أيضاً ازدحام للسكان من أجل صناعة اشتهرت بها هذه المنطقة من زمن قديم ، وهي صناعة السكاكين والآلات القاطعة عامة ، والأدوات والآلات المعدنية ، وعلى الأخص ما كان مصنوعاً من الصلب ، وليس لها في هذا كله في العالم ضريب .

٣ — إقليم لانكشير

تقع مقاطعة لانكشير إلى غرب يوركشير ، يفصل بينهما جبال بنين Pennine . وفي لانكشير مناجم أخرى للفحم ، وقد قامت من حولها صناعات كلها تدور حول مادة واحدة وهي القطن ؛

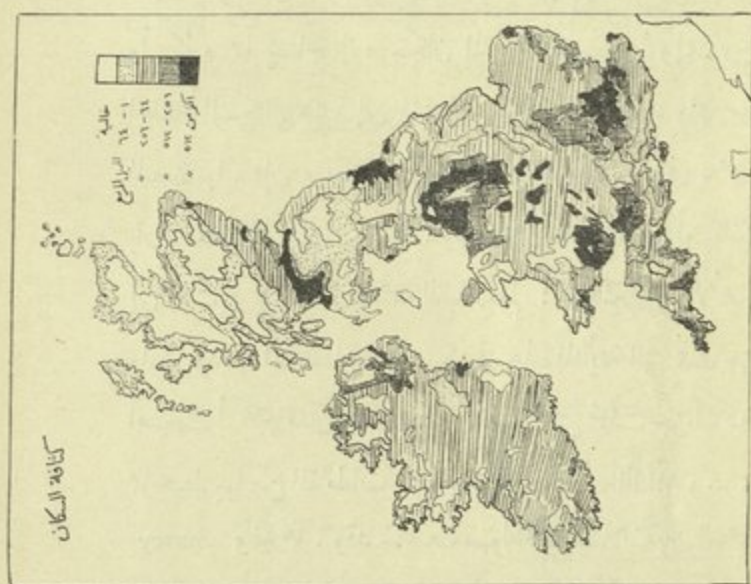
فهناك معامل عديدة لإعداد القطن ، ولغزله ، ولتبييضه ، ولصبغه
ولنسجه ، ولطبعه ، ولنسج الأصناف الدقيقة منه والأصناف
الغليظة ، ومعامل لصنع المغازل وآلات النسيج . وغيرها مما
يستخدم في الصناعات القطنية المختلفة . وهذا الإقليم هو أهم
الأقاليم الصناعية في انكاثرة كلها ، وهو مزدهم بالمدن العديدة
توسطها مدينة منشستر شرقاً ، ولقربول غرباً

فلا غرابة إذا كان هذا الإقليم هو أكثر ازدهاماً من أى
إقليم آخر في الجزر البريطانية ، والمدن في بعض أجزائه تكاد تكون
متلاصقة الواحدة تلو الأخرى

٤ — الإقليم الأوسط (Midlands)

إذا ذكرت كلمة مدلندز تبادر إلى الخاطر الإقليم الذي
مركزه مدينة برمنجهام ، وهذه ثانية مدن بريطانيا في الحجم
والسكان . وهي وسط منطقة اشتهرت بالفحم والحديد ؛ وتقدمت
فيها صناعة الآلات الحديدية من الكبير الضخم إلى الصغير
الدقيق . وحديثاً ازدادت اشتغالا بصناعات مستحدثة مثل
صناعة العجلات والسيارات والملابس وغيرها . والإقليم شديد
الازدهام جداً ، وفي الدائرة المحيطة ببرمنجهام تصل كثافة السكان
إلى درجة عشرين ألف نفس لكل ميل مربع

شكل (١٣) للفقارة بين توزيع السكان وتوزيع الفحم في الجزر البريطانية



٥ — حول مدينة برستول :

تركيز للسكان في دائرة صغيرة حيث الحركة التجارية ذات أهمية خطيرة ، وحيث قد نشأت صناعات تعتمد في مادتها الأولية على بعض الواردات وخصوصاً التبغ ، والزيت المختلفة ، وما يترتب عليها جميعاً من الصناعات

٦ — اقليم لندن :

في مدينة لندن وفيما حولها يعيش نحو ربع سكان انكلترة ، وقد احتشد الناس في هذا الاقليم احتشاداً هائلاً . وليس في مدينة لندن ولا فيما حولها صناعات هامة اللهم إلا القليل جداً ، وأكثره مما يحتاج إليه سكان المدينة أنفسهم . وإنما يرجع احتشاد السكان هنا إلى اشتداد الحركة التجارية ، والأعمال المتصلة بها ، فإن بريطانيا أكثر دول العالم تجارة ، وفي عاصمتها يتركز معظم الأعمال التجارية . ولندن هي كذلك — أو كانت إلى وقت قريب — العاصمة المالية للعالم ؛ وكثير من الأعمال والمشروعات الاقتصادية لها مركز في هذه المدينة التي تمت حتى أصبحت أكبر مدن العالم . ولم تزل تتسع حتى شملت جزءاً كبيراً مما يحيط بها من المقاطعات مثل مدلسكس Middlesex وسري Surrey وغيرهما . وقد ساعدت سهولة المواصلات بين العاصمة وما حولها من الجهات على نشر العمران في الأقطار التي حول

مدينة لندن . وقد كان نمو المدينة سريعاً جداً في أثناء القرن الأخير ، لأن سكانها في أوائل القرن الماضي لم يكادوا يتجاوزون المليون^(١) إلا قليلاً

الخلاصة أن سكان انكلترة يعيش معظمهم في مدن يزيد سكان كل منها على ٥٠,٠٠٠ نسمة . وكثافة السكان في سائر الجزر البريطانية — ما عدا مدينة لندن — تابعة لتوزيع الفحم ، حيث الفحم يزدحم السكان . وإذا قابلنا بين خريطة توضح توزيع السكان وأخرى توضح توزيع الفحم لرأينا بينهما انطباقاً عظيماً . والفحم يدعو لازدحام السكان لأمرين : أولهما أن الناس تحتشد من أجل استخراج الفحم ، والثاني أن الصناعات تنشأ عادة بالقرب من مناجم الفحم لأن نفقات نقله كثيرة وعدد سكان الجزر البريطانية هو كما يلي :

٤٠,٠٠٠,٠٠٠	انكلترة وبلاد الغال
٤,٩٠٠,٠٠٠	اسكتلنده
١,٢٧٠,٠٠٠	ايرلنده الشمالية
٤٦,٥٠٠,٠٠٠	المملكة المتحدة
٣,٠٠٠,٠٠٠	دولة ايرلنده الحرة
٤٩,٥٠٠,٠٠٠	المجموع الكلى

(١) حسب دائرة المعارف البريطانية كان سكان لندن في عام ١٨٠١ نحو ١,١١٢,٠٠٠

فرنسا :

لانشاهد في فرنسا تلك الزيادة الهائلة المطردة في القرن التاسع عشر التي شاهدناها في انكلترة . فلقد كانت فرنسا في أثناء القرن السابع عشر والثامن عشر دولة غنية بمواردها ، قوية ذات حضارة ممتازة فاقت بها جميع دول أوروبا ، بحيث كانت هي المصدر الذي أخذ عنه معظم أقطارها الثقافة والحضارة . ولم تكن قليلة السكان في أول القرن التاسع عشر ؛ بل لقد كانت في الواقع كثيرة السكان جداً إذا ذكرنا حالة أوروبا الاقتصادية في ذلك الوقت . كان بفرنسا في سنة ١٨٠١ نحو ٢٧ مليوناً من السكان ، وهو عدد كبير جداً لبلاد عمادها الأكبر الزراعة . وحين حدثت تلك الثورة الصناعية في انكلترة في أوائل القرن التاسع عشر ، لم يصل تأثيرها إلى فرنسا إلا في أواخره ، ولم تغل فرنسا في إتمام صناعاتها كما غلت بريطانيا ، ولم تهمل زراعتها . ويكاد ألا يوجد في أوروبا من أولها لآخرها قطر تتعادل فيه كفة الزراعة والصناعة كما هي الحال في فرنسا . وذلك الازدحام الهائل في أقطار صناعية ليس له نظير في فرنسا إلا في مساحات محدودة . وقد انتفعت فرنسا كثيراً بهذا الاحتفاظ بثروتها الزراعية ، وبعدم الإفراط في النمو الصناعي ؛ فعندما عصفت عاصفة الأزمة الاقتصادية كانت فرنسا أقوى دول أوروبا على مجالديتها والثبات أمامها

وإذا كانت فرنسا لم تسرف في إنماء صناعاتها إلى درجة هائلة، فهي لهذا لم يظهر فيها ذلك الازدياد الهائل للسكان الذي هو من مستلزمات التقدم الصناعي. فمن ٢٧ مليون في سنة ١٨٠١ أصبح السكان ٣٩ مليون في سنة ١٩٠١، ثم بلغوا ٤١ قبيل الحرب العظمى. واليوم بالرغم من إضافة الألزاس واللورين إلى الوطن الفرنسي، فإن السكان لا يزيدون اليوم على ٤١.٨٠٠.٠٠٠؛ وهذا بالطبع لأن الزيادة التي حدثت بسبب ضم الألزاس واللورين يقابلها ما فقد بسبب الحرب

ومن الواضح أن فرنسا لم تزد في المدة الأخيرة زيادة تستحق الذكر. ومن الحقائق التي لا تقبل الجدل أن الشعب الفرنسي ينمو ببطء شديد جداً، حتى إنه في بعض السنين قد لا يكون هنالك نمو مطلقاً بل نقص (كما حدث مثلاً في عام ١٩٢٩) وأرقام النمو في السنين الأخيرة كما يلي:

١٩٢٩ ١٩٣٠ ١٩٣١ ١٩٣٢ ١٩٣٣

الزيادة لكل ألف من السكان — ٢ ٢٤ ١١ ١٥ ٥

أي أنه يكاد ألا يكون هنالك نمو في السكان يستحق الذكر. وليس ببطء النمو هذا راجعاً إلى ضعف في صحة الشعب، أو لانتشار الأمراض كما يزعم الذين يجهلون حالة الشعب الفرنسي الصحية، التي لا تقل عن حالة كثير من شعوب أوروبا. ولا شك

في أن عدم التوزيع يرجع إلى رغبة السكان في عدم النمو ، ورغبة الوالدين في ألا يكون لهم أطفال أكثر مما يستطيعون أن يعولوا ويربوا .
وعبثاً حاولت الحكومة أن تنشر الدعوة بين الناس وتنادى بأن الوطنية تتطلب ازدياد السكان ، فقد أعارها الشعب الفرنسي أذناً صماء ؛ ولم يبد أية رغبة في الإقلاع عن هذه الطريق التي سار فيها . ويقال إن من أهم أسباب الإقلال من النسل قانون الميراث الذي يقضى بتقسيم التركة بين جميع الورثة بالتساوي . والظاهر أنه ليس من سبيل إلى تغيير هذا القانون خصوصاً في شعب يعبد المساواة عبادة كما هي حالة الشعب الفرنسي . فلم يصبح أمام الآباء مخرج من هذا المأزق إلا أن يقللوا من نسلهم بحيث يستطيعون أن يحتفظوا بحقلهم أو مزرعتهم أو دارهم سليمة دون أن يتناولها التزيق والتقسيم . ونحن في مصر نعرف ما آلت إليه مزارعنا من كثرة الورثة ؛ فقد أصبحت الأطيان مجزأة إلى أقسام تكاد تكون مكرسكوبية !

هذا العامل بالطبع لم يكن له وجود في انكلترا حيث التركة للأبن الأكبر ، وحيث للمورث حق الوصية . والحكومة الفرنسية مع ذلك أرادت معالجة الأمر بطرق أخرى ، فشرعت بعض قوانين لتشجيع النسل منها قانون بتخفيف الضرائب عن الأسرة الكثيرة الأطفال ، ومنها قانون بمنح إعانة لمن له ثلاثة أطفال

كلهم دون الاثنى عشر ربيعاً . ولم تظهر بعد نتيجة هذه القوانين ،
ولكن لعلها — وعلى الأخص الأخير منها — تأتي بالأثر المطلوب
ولاشك في أن سكان فرنسا قد أسرفوا في الامتناع عن
النمو ؛ حتى اضطرت الحكومة إلى تشجيع المهاجرة من بعض
الأقطار الصديقة مثل بلجيكا و بولنده وشبه الصديقة مثل إيطاليا .
ويفد العمال من بلجيكا إلى فرنسا ليشغلوا في معاملها في الشمال
ثم يعودوا أدراجهم آخر النهار إلى بلجيكا . وكثير من الإسبان
يذهب إلى فرنسا ليعمل وقت الحصاد ثم يعود إلى إسبانيا

ففي البلاد من غير شك متسع لعدد من السكان أكبر مما
بها . فإن فرنسا تزيد في المساحة على ألمانيا ، وترتبتا على العموم
أكثر خصوبة ، وهواؤها أكثر اعتدالاً ، ومواردها الثروة فيها
لا تقل عن ألمانيا . ومن السهل أن تسع فرنسا ستين مليوناً من
السكان من غير مشقة . فهناك محل لبعض اللوم يوجه إلى
الأسرة الفرنسية وإلى رميها بشيء من الأنانية

ومع ذلك فإن نمو السكان سيف ذو حدين . فليذكر الذين
يلومون فرنسا على عدم النمو ، أنها الدولة الوحيدة الكبيرة التي لم
تألم لهذه الأزمة القاسية ألماً شديداً ، وليس بها من العمال العاطلين
إلا القليل ، وهي حال تحسدها عليها دول كثيرة . إن البلاد التي
أسرفت في تنشيء صناعاتها ونما سكانها تبعاً لذلك تعاني اليوم أزمة

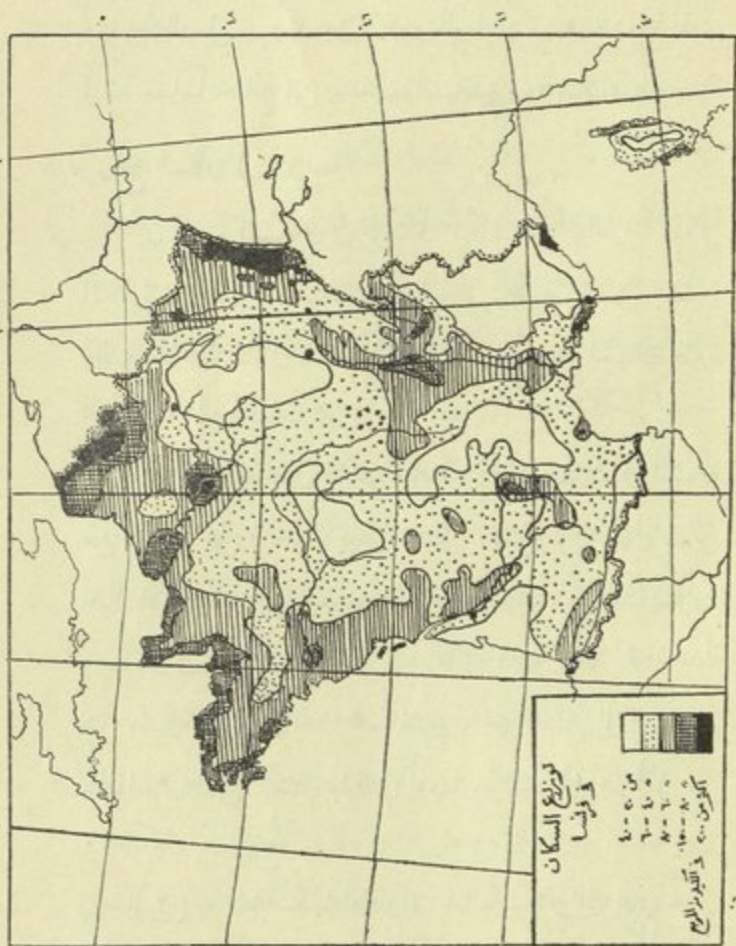
من أشد الأزمات ، لأنها لا تجد أسواقاً لبيع سلعها الكثيرة ، لأن أقطارا عديدة قد أخذت هي أيضاً تنمى صناعاتها ، وتقل مما تستورده منها . ولا يعلم أحد الاتجاه الاقتصادى الجديد للعالم على وجه التأكيد ؛ ولكن من الراجح أن هنالك اتجاهاً جديداً يرمى إلى أن تكون كل دولة مستكفية بغلاتها ، غير معتمدة كثيراً على تجارتها الخارجية . وهذه النزعة تزداد شدة فى كل عام . وبعد أن كان أنصار التجارة الدولية يحسبون أنها حدثاً طارئاً ، نرى اليوم كثيرين يظنون أنها ستثبت وتبقى . ومعنى هذا نكبة تصيب الدول التى أسرفت فى إنماء صناعاتها . ومن هذه الناحية نرى لفرنسا ميزة على سائر الدول^(١)

ولقد يقال إن فرنسا لا تستطيع أن تبقى على عددها هذا مع أن ألمانيا تفوقها عدداً بنحو ٢٤ مليوناً ، وإيطاليا منافستها الجديدة أصبحت تضارعها عدداً ولا تزال ماضية فى النمو ، والشعب الفرنسى فى الغالب لن يعير هذه الصيحات البعيدة أدنى

(١) النسبة المئوية المشتغلين بالزراعة والصناعة فى بعض الدول الكبرى
هى كما يلى :

الزراعة وصيد الأسماك	الصناعة والتعدين	
٢٢	٣١	الولايات المتحدة
٦,٨	٤٧	انكلترا وبلاد الغال
٣٠,٥	٤١,٣	ألمانيا
٣٨,٣	٣٣,٥	فرنسا

شكل (١٤) توزيع السكان في فرنسا



انتباه . فإن العوامل الأدنى والأقرب إليه مثل سعادة الأسرة والعناية بالنسل ، وتحسين مستوى المعيشة كل هذه دواع أقوى وأشدّ مساساً بحياته من صحبات السياسيين ودعوة الدعاة .

توزيع السكان في فرنسا

إن توزيع السكان في فرنسا أكثر انتظاماً واطراداً منه في انكثرة نظراً لغلبة المشتغلين بالزراعة في جميع نواحي القطر . والذي نلاحظه لأول وهلة أن هنالك كثيراً من الجهات فقيرة السكان وهذه الجهات هي :

١ — منطقة جبال الألب الواقعة في الجنوب الشرقى المشرفة من الجنوب على البحر الأبيض ، والتي تتصل من الشمال بقوس جبال الألب المار من جنوب بحيرة جنيف إلى شرقى سويسره . والسكان في هذه المنطقة قليلون جداً . ويزدادون قلة كلما ابتعدنا عن وادى الرون في اتجاه نحو الشرق ، حتى نصل إلى مرتفعات سافوا وهي أعلى كتلة جبلية في أوروبا . والسكان هنا أقل من ٢٠ للكيلومتر المربع

(٢) ويشابه هذا الإقليم في قلة السكان إقليم جبال البرانس ، التي تفصل بين فرنسا وإسبانيا ، وهي أشدّ وعورة في الناحية الإسبانية وأكثر إقفاراً من السكان . ولكنها على كل حال وفي كل جزء منها قليلة العمران جداً

(٣) إقليم لاند Les Landes الواقع على خليج غسقونية جنوب نهر الجارون ، إقليم فقير السكان لطبيعة تربته الرملية الملحة ، ولكثرة مستنقعاته

(٤) ومن الأقاليم القليلة السكان نسبياً الهضبة الوسطى : Le Massif Central ذات المسالك الوعرة ، والتربة الفقيرة . ورغم وجود نواح قليلة فيها بعض الصناعات ، فإن الهضبة بوجه عام قليلة العمران ولا تزيد كثافة السكان فيها على خمسين شخصاً لكل كيلو متر مربع

(٥) ومن الجهات القليلة السكان أيضاً إقليم شمانيا العليا التي تدعى la Champagne Pouilleuse الممتدة من جنوب ريمس إلى شمال ديجون . وفقر تربتها ذات الطبيعة السكاسيه هو السبب في قلة عدد السكان

(٦) وهناك أقاليم أخرى صغيرة محدودة قليلة السكان أيضاً أهمها منطقة جبال جورا ، على الحدود الشرقية بين فرنسا وسويسرة . وكذلك بعض نواحي اللوار الأعلى

وفما عدا هذه الجهات التي لا يزيد السكان فيها على خمسين للكيلو متر المربع ، والتي قد تكون في بعض المواضع خالية من السكان أو كالتخالية . فيما عدا هذا نرى سكان فرنسا موزعين بانتظام بنسبة تتراوح بين ٥٠ إلى ١٥٠ شخصاً للكيلو متر المربع .

ومع ذلك فهناك نواح قليلة تزيد نسبة السكان فيها على غيرها .
وهذه النواحي هي :

١ — إقليم ليون — سانت إتيان : فهنا إقليمان صناعيان أولهما حول مدينة ليون حيث صناعة الحرير الطبيعي والصناعي تشغل عدداً كبيراً من السكان ، وثانيهما حول مدينة سانت إتيان حيث قامت صناعة الحديد والصلب . ونظراً لتجاور الأقليمين قد اندمجا من حيث كثافة السكان حتى أصبحا إقليماً واحداً

٢ — في الريفيرا : وعلى الأخص الجانب الشرقي منها حول مدينة نيس ، كثر السكان بنسبة أعلى من المتوسط ، وهنا كثير من الصناعات المنتشرة على سواحل البحر الأبيض بفرنسا ، وأخصها الصناعات المرتبطة بالفلات الزراعية التي امتاز بها هذا الإقليم ، وهي الخمور واستخراج أنواع العطور والزيوت ، وصناعة الصابون ، والحرير . ولعل لازدحام هذا الإقليم بالسكان صلة بهوائه المعتدل طول السنة الذي جعل كثيراً من الناس يتخذونه مستقراً ومقاماً ، دون أن يكون لهم فيه عمل أو صناعة أو حرفة .

٣ — حول باريس : منطقة مزدحمة بالسكان إلى درجة عظيمة . وليس بمستغرب أن يكون هذا حال الأراضي المحيطة

بعاصمة دولة كبيرة . وعدا هذا فإن بقرب باريس صناعات شتى
تشغل عدداً كبيراً من الأيدي العاملة ، وإن يكن معظمها من
صناعات الترف مثل الملابس الغالية والحلى والجواهر ، والحرف
والأثاث وما شا كل ذلك

٤ — الإقليم الشمالى على حدود بلجيكا شديد الازدحام
جداً إلى درجة تعادل ازدحام السكان فى جهات انكاترة وألمانيا
الصناعية . هذا الإقليم الذى يحيط بمدينة ليل هو إقليم فرنسا
الصناعى . وهاهنا تجمعت وتزاحمت صناعات عديدة مثل صناعة
التعدين وخاصة استخراج الفحم ، وصناعات غزل ونسج الصوف
والسكتان والقطن وما يتصل بهذا من الأعمال

وهذا الإقليم متصل بإقليم بلجيكا الصناعى ، بحيث يكون
الاثنتان منطقة صناعية واحدة شديدة الازدحام

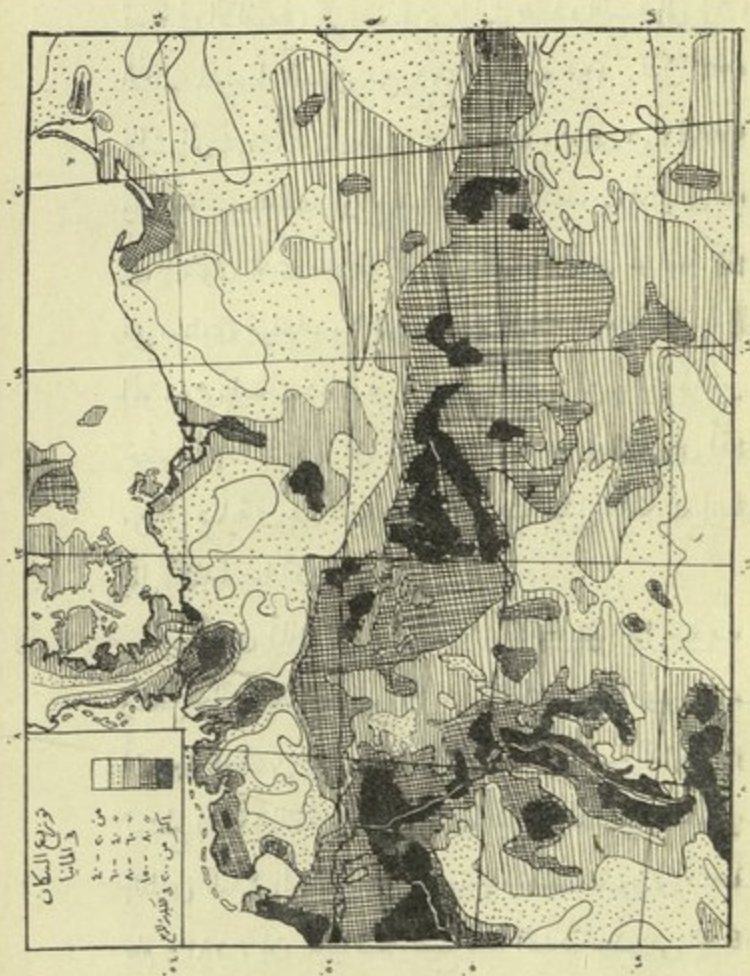
٥ — حول مدينة روان : إقليم صناعى صغير يشغل بنوع
خاص بغزل ونسج القطن لسهولة استيراده إلى هذا الميناء

٦ — سهول الألزاس واللورين أشد ازدحاماً من المعتاد فى
فرنسا نظراً لانتشار صناعة التعدين فى بعض الجهات والنسيج
فى جهات أخرى

وفى عدا هذه الجهات الممتازة ترى سكان فرنسا موزعين
بشيء كثير من الانتظام

سكان ألمانيا :

لم تحدث الثورة الصناعية في ألمانيا إلا في النصف أو الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . ولهذا كان نمو السكان فيها بطيئاً في أول القرن سريعاً جداً في آخره . وفي سنة ١٨٠١ كان سكان ألمانيا يقدرون بنحو ٢٥ مليوناً ، وقد وصلوا في عام ١٩١٤ إلى ٦٥ مليوناً . وكان معظم الزيادة في السنين الواقعة بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ أى في مدة النمو الصناعى الهائل الذى بلغت ألمانيا في عهد الامبراطورية ، بعد أن اتحدت وصارت دولة كبيرة . في تلك الفترة كانت زيادة السكان سريعة جداً ، وعدد المواليد يزيد على الأربعين في الألف . وقبل الحرب كانت هذه الزيادة آخذة في الهدوء والقلّة . وبعد الحرب كان في ألمانيا انتعاش اقتصادى قصير المدة بسبب هبوط سعر العملة ، وإقبال الناس على البضائع الألمانية التى حرمتها الأسواق عدة سنين . فكان من أثر هذا الانتعاش الوقتى أن زاد السكان بنسبة تعد عالية ، حتى أصبح سكان ألمانيا اليوم حوالى ٦٦ مليوناً (بعد إضافة إقليم السار) أى أن السكان اليوم أكثر مما كانوا عليه قبل الحرب ، بالرغم مما فنى من الألمان في الحرب ، وبالرغم من فقد الأتراض والورين وبولنده الألمانية وسيلزيا العليا ، وشانزج — هولشتين وهذه الأعجوبة قد حدثت لأن نمو السكان استمر بعد



شكل (١٥)

الحرب ، فمن عام ١٩٢١ إلى ١٩٢٥ كان متوسط نسبة النمو تسعة في الألف في كل سنة ، ثم نزلت هذه النسبة إلى $\frac{6}{1}$ في الألف لمتوسط السنين من ١٩٢٦ إلى ١٩٣٠ . وفي ١٩٣١ نزلت إلى ٦,٤ ، ثم إلى ٤,٨ ، ثم إلى ٤,٥ ، ثم إلى ٣,٥ في ١٩٣٣ وهي آخر سنة لدينا أرقام عنها . وهكذا انحدرت ألمانيا في نموها إلى المستوى الذى سارت نحوه بريطانيا ، والذى قريبهما كثيراً من مستوى فرنسا . ولا نعرف بعد نتيجة الدعاية النازية إلى النمو ، وهي ليست دعاية قوية ، وفي الغالب لن يكون لها أثر ، خصوصاً إذا ذكرنا أن الدعاية الفاشية في إيطاليا وهي أقوى من كل دعاية في هذا الصدد ، قد أخذت تفشل وأخذ نمو إيطاليا يقل كثيراً عما كان عليه

وسكان ألمانيا اليوم أكثر مما كانوا عليه قبل الحرب ، ولكن حالتها التجارية اليوم أقل مما كانت ، ولهذا ليس بغريب أن وجد فيها من العمال العاطلين ما يزيد على الخمسة ملايين ، ولم تستطع المهمة الفائقة والوسائل العنيفة التى قامت بها الحكومة إنقاص العدد إلى أقل من مليونين ونصف مليون في منتصف عام ١٩٣٤ . إن ألمانيا لى تسع لهذا العدد العظيم من السكان يجب أن تعود إليها تجارتها القديمة وأسواقها . وإلى أن يتحقق هذا فليس بمنتظر أن يزيد الشعب الألمانى كثيراً عما هو عليه اليوم

وتوزيع السكان في ألمانيا يختلف عن فرنسا ، نظراً لشدة ازدهام الأقاليم الصناعية ؛ وأشد الجهات ازدهاماً :

١ — حوض الرور ، حيث مناجم الفحم الشهيرة ، وحيث تركزت الصناعات المختلفة من منسوجات بجميع أنواعها إلى الصناعات المعدنية الضخمة والدقيقة . ويكاد ألا يكون في العالم كله إقليم صناعي مركزٌ مزدحم ، فيه المدن متلاصقة كما هي الحال في هذا الإقليم . ويلحق به في الازدهام الإقليم الواقع غربي الرين ، وفيما عدا هذا فإن وادي الرين على وجه العموم شديد الازدهام جداً لكثرة خيراته وغلاته الزراعية والصناعية . ولو أن الكثافة أعلى كثيراً في الرور منها في سائر النهر

٢ — وفي ألمانيا إقليم صناعي ثان كبير المساحة وهو إقليم سكسونيا حول خمّنس (Chemnitz) ودرزدن وليبسغ . وكثافة السكان عالية تزيد على الألف للميل ، ولو أنها بالطبع أقل من الازدهام في حوض الرور . وهنا صناعات كثيرة من نسيج وصناعات معدنية وورق وسكر وخزف وما إلى ذلك

٣ — وهنالك أقاليم مزدهمة أخرى محدودة المدى : مثل سيلزيا ، وحول مدينة برلين وهامبرج

وإلى جانب هذه الأقطار الشديدة الازدهام نرى بعض جهات فقيرة السكان . ولا ترجع قلة السكان في ألمانيا إلى انتشار (١٥ — كب)

الجبال العالية ، كما هي الحال في فرنسا . لأن جبال ألمانيا الشديدة
الوعورة قليلة ، وحيث توجد نرى قلة السكان ظاهرة : ففي بافاريا
العليا ، وفي الغابة السوداء ، وجبال هارتس ، ومرتفعات تورنجيا
يقل السكان قلة واضحة . ولكن الجهات الواسعة القليلة السكان
هي الأقطار الشمالية المحيطة بالبحر البلطى فيما بين الأنهار الشهيرة ؛
فبين الأودر والإلب من جهة ، وبين الإلب والويزر من جهة
أخرى إقليمان فسيحان لا تصل كثافة السكان فيهما إلى أكثر
من عشرين في كل كيلومتر مربع . ومثل هذه الحال نراها أيضاً
ولكن بدرجة أقل فيما بين الأودر والفتسولا من جهة ، وما بين
الويزر والإمس من جهة أخرى

وهذا كله راجع إلى عوامل جيولوجية سببت امتلاء هذه
الأقطار بالرواسب الجليدية التي لا تكون تربة صالحة . والذي
يسافر من برلين متجهاً إلى الشمال رأساً ينتقل من إقليم مكتظ
بالسكان إلى إقليم فقير السكان فقير التربة كثير المستنقعات ،
وهو الجزء الأوسط من ولاية مكلنبرج

هذه حالة السكان في ألمانيا وليس بنا حاجة إلى التوسع في الحديث
عن توزيع السكان في بقية أوروبا ، لأن هذا أمر يطول شرحه .
وحسبنا الأمثلة التي ضربناها بياناً للحالة العامة في تلك القارة

والخلاصة أن زيادة السكان في أوربا راجعة في الغالب إلى الثورة الصناعية ، وما تقتضيه من كثرة الأيدي . وبقدر النمو الصناعي كان نمو السكان . ولا يزال في أوربا ، خصوصاً في الجهات الشرقية والجنوبية مجال للزيادة ، ولكن في الجانب الغربي قد وصل السكان إلى الغاية الممكنة ، أو تجاوزوها قليلاً . غير أن حالة الازدحام في أوربا الغربية ليست — برغم هذا — حالة سيئة على كثرة العمال العاطلين ، فإن حالة السكان لا تزال في المتوسط لا بأس بها ، ومستوى الحياة على جانب عظيم من الرقي ، وقد استطاعت الحكومات المختلفة أن تنفق على العمال العاطلين مما يدل على أن في موارد البلاد فضلاً يتسع لمثل هذا الإنفاق . وهناك بعض دول في أوربا قد اتخذت حكومتها سياسة صريحة في أمر السكان ، فأنكثرة تشجع وقف النمو ، وإيطاليا تنادى بشدة بضرورة النمو لكي تبرر مطامعها الاستعمارية والحربية ، وفرنسا تشجع النمو عبثاً ، وبقية الدول لم تتخذ في هذا الأمر سياسة صريحة ، وترك الأمر تجري على طبيعتها . والنزعة السائدة هي نحو تقليل النسل . ولهذا لا ينتظر لغرب أوربا أن يستمر سكانه في الازدياد زمناً ما

الفصل الثاني عشر

ازدحام السطوح في الشرق الأقصى

في آسيا ثلاث جهات ذات أهمية وخطر ، وكلها تشكو شدة الازدحام وهذه هي : الهند والصين واليابان . ولا غنى للذين يدرسون المشاكل المتعلقة بالسكان من دراسة هذه الأقطار الواقعة في ذلك الركن البعيد من العالم ، فإن في دراستها إظهاراً لأحوال خاصة بالسكان ليس لها نظير في أي قطر من أقطار الأرض . والازدحام هنا ، على شدته وهوله ، لا يشبه الازدحام الذي رأيناه في أوربا في شيء . لأن الازدحام في الشرق الأقصى ازدحام في أقطار زراعية . وهذا القول يسرى حتى على اليابان ، فإنها برغم تقدمها الصناعي لا تزال الحرفة الأكثر انتشاراً بها هي الزراعة وما يتصل بها . ولننظر الآن في كل من هذه الأقاليم الثلاثة

الهند :

في هذه المساحة الهائلة التي تبلغ زهاء ٤,٦٧٥,٠٠٠ من الكيلو مترات المربعة تعيش أُمم وشعوب يبلغ عدد أفرادها جميعاً حسب تعداد عام ١٩٣١ نحو ٣٥٣ مليوناً من الأنفس . أي ما يقرب من ١٨ ٪ من سكان الأرض

في عام ١٨٧٠ كان سكان الهند قد بلغوا الثلاثمائة مليون . وبعد ذلك كان نموهم بطيئاً جداً ونسبة لا تزيد على ٩ في الألف في كل سنة . وما بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩٢١ كان نمو السكان أشد بطئاً بحيث لم تزد نسبته عن ١ أو ٢ في الألف ، وبعد ذلك عاد النمو إلى مثل ما كان عليه . واليوم يبلغ عدد المواليد سنوياً ٣٤ لكل ألف من السكان ، والوفيات ٢٤ ، والزيادة الطبيعية ١٠ أى أن عدد سكان الهند يزداد سنوياً بما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة على فرض بقاء هذه النسبة

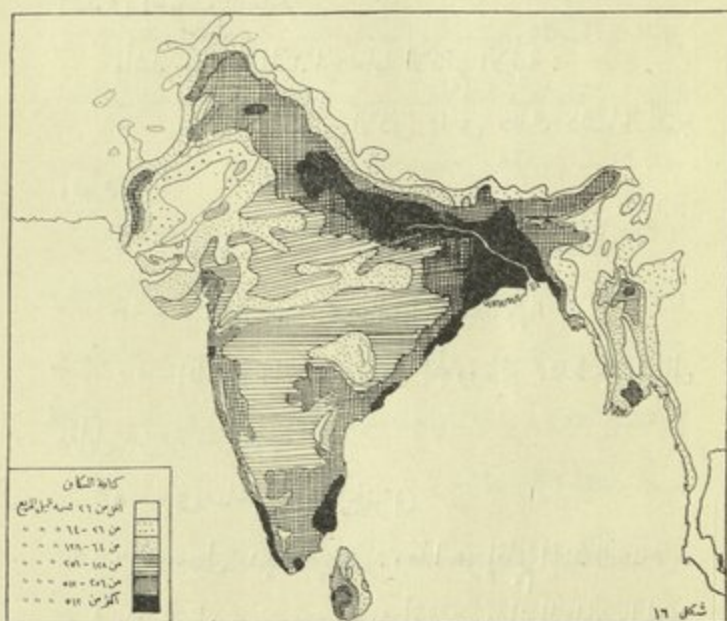
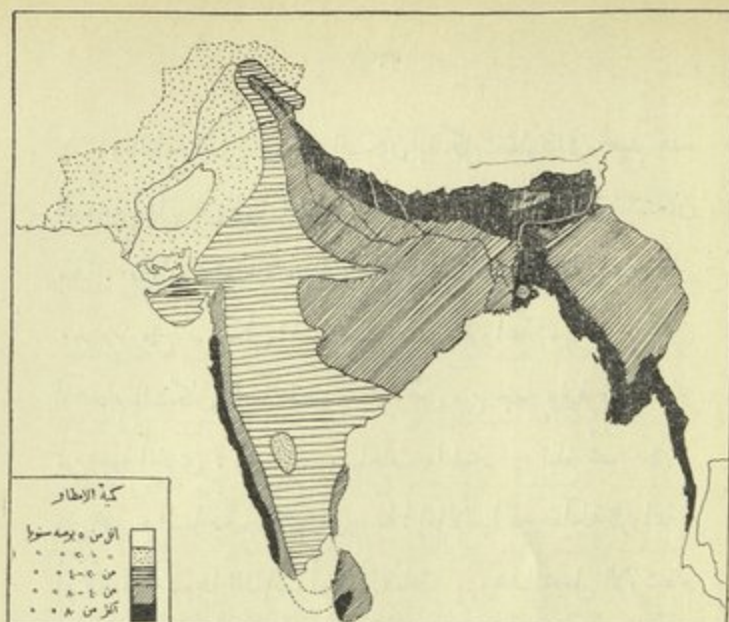
وهذا الاختلاف في درجة النمو في الهند وفي البلاد التي في مثل حالة الهند لا يرجع إلى عدد المواليد كثرة أو قلة ؛ بل يرجع دائماً إلى عدد الوفيات . فإذا ساءت الأحوال الصحية وانتشرت المجاعات والأوبئة مات الناس بكثرة وقل النمو . أما المواليد فعددهم لا يتغير كثيراً

وقبل النظر في توزيع السكان في الهند نلقي نظرة عامة على طبيعة البلاد ، فالهند تنقسم إلى قسمين عظيمين : الأول هضبة مرتفعة نوعاً في الجنوب ، يحف بها بحر العرب غرباً وخليج بنغال شرقاً ، وهي التي يطلق عليها اسم هضبة الدكن ، وتحف بها من الشرق سلسلة جبال منخفضة تدعى الغات الشرقية . ومن الغرب سلسلة أعلى من الأولى تدعى الغات الغربية . فالانحدار هنا كما

هى الحال فى جزيرة العرب من الغرب إلى الشرق . ولهذا ترى معظم أنهار الهضبة يجرى إلى الشرق . والهضبة قريبة من البحر من الناحية الغربية ، وأما من الشرق فيبينها وبين البحر سهول فسيحة تنصب فيها عدة أنهار . ولهذا ترى فى هذا الجزء الجنوبى من الهند فروقا تميز بعض نواحيه على بعض . فهناك (١) السواحل الغربية (ساحل ملبار) وما يحف بها من سهل ضيق و (٢) سهول الساحل الشرقى (ساحل كروماندل) وهى أوسع وفيها دالات أنهار مثل مهندي وجودفرى وكستنا (أو كرشنا)، وهى سهول خصبة مكون أكثرها من رواسب تلك الأنهار وغيرها . وفى داخل الهضبة نفسها يجب أن نميز أودية الأنهار من الأجزاء التى تفصلها

والإقليم الثانى من الهند هو عبارة عن السهول الشمالية التى يجرى فيها نهر الكنج والبرهماپوترا شرقا ، ونهر السند غربا . وهى منحصرة بين جبال همالايا وهضبة الدكن ، ويفصل ما بين حوضى النهرين مساحة من الأرض قليلة الارتفاع ذات طبيعة صحراوية ، وهى واقعة شرق نهر السند الأدنى . ويطلق على أكثرها اسم صحراء ثار

ويضاف إلى هذه الأقاليم جميعا المنحدرات الجنوبية لجبال همالايا وهى أيضا جزء من بلاد الهند



شكل ١٦

شكل (١٦) المقارنة بين توزيع المطر وتوزيع السكان في الهند

وبالطبع ليس توزيع السكان بشكل مطرد في جميع هذه المساحة . بل إن فيها أقطارا مكتظة ، وأقطارا فقيرة السكان جداً . والازدحام هنا هو ازدحام جماعات تشتغل بالزراعة . فإن ٨٠ ٪ من سكان الهند يعيشون من الزراعة ، ولهذا كان ازدحام السكان تابعاً لخصوبة الأرض من جهة ولوفرة الأمطار من جهة أخرى . وفي الهند مساحات واسعة — تبلغ نحو ٤٠ ٪ من مجموع المساحة — غير مزروعة ؛ إما لأنها غير صالحة للزراعة ، أو لأنها تكسوها الغابات أو المستنقعات . وهذا يجعل الازدحام أشد في الجهات الصالحة

وأشد جهات الهند ازدحاماً الأقاليم الآتية :

١ — حوض الكنج الأدنى بما في ذلك دلتا الكنج

والبرهامپوترا

٢ — مصبات ودلتا مهندي والسواحل المحاذية لها

٣ — دلتا نهر جدافرى والسهل المحيط بها

٤ — إقليم مدراس والسهول المجاورة له ممتدة جنوباً إلى

مقابل جزيرة سرنديب

٥ — في ساحل ملبار الجنوبي

٦ — حول مدينة بومباي . وهذا هو إقليم الهند الصناعي .

حيث يغزل القطن وينسج ، وحيث أقيمت مصانع للمعادن والحديد

٧ — إقليم مدينة لاهور

وأهم هذه الأقاليم جميعاً هو بلا شك حوض الكنج الأدنى ودلتاه ، ففيه احتشدت الناس احتشاداً هائلاً ؛ وفي مساحة لا تتجاوز مائة ألف ميل مربع يعيش اليوم نحو ثلث سكان الهند . وقد تصل كثافة السكان إلى ١٥٠٠ أو ٢٠٠٠ نفس للميل المربع . وقد نشأ عن هذا الازدحام في إقليم محدود أن نقص مستوى الحياة ، وانتشر الفقر بين الناس ، وأصبح أكثرهم لا يجد إلا ما يسد الرمق ؛ وأما الأمور الأولية التي لا بد منها للحياة المتوسطة البسيطة كالغذاء الكافي والسكن الكافي فليس في متناول الكثير من الناس . ولقد تنشأ المجاعات بسبب قلة الأمطار فيصيب الناس جهد شديد ، ويقضى منهم العدد الكبير ، أو ينتشر مرض أو وباء فيفتك فتكاً ذريعاً بهذه الأجسام التي أسقمها الجوع ، وشفاها السقم . وقد استفحل الأمر جداً حتى أخذ يدرك خطره المصلحون والكتاب . وهم في هذا على كل حال خير من المصالحين في مصر الذين لم يدرك واحد منهم إلى الآن أن في مصر مشكلة سكان تحتاج إلى علاج

وحكومة الهند نفسها تعترف بهذه الحال في بعض تقاريرها ؛ فقد جاء في أحد هذه التقارير ما ترجمته :

« في القرى الهندية مقدار هائل مما يمكن أن ندعوه
الفقر الشديد الخطر ؛ أى الفقر الذى يكون أصحابه
دائماً على آخر ما يسد الرمق »^(١)

وفي الهند كما في الصين يجدون النسل ، ويرغبون فيه رغبة
شديدة ، وهذا بالطبع من أجل إنجاب الأولاد لا البنات : ولكن
النسبة العالية للوفيات تحرم الأمة جهود أبنائها ، فإن متوسط
العمر في الهند حوالى ٢٤,٧ أو ٢٥ سنة . ومعنى هذا أن البلد
محروم من أعمال أبنائه في أهم جزء من حياتهم . وفي الهند اليوم
حركات مختلفة قد تؤدي إلى تحسين الحالة قليلاً ؛ فإلى جانب
الذين يعملون على تقليل النسل — وفي قطر مثل الهند لا يمكن
أن تسير هذه الحركة بسرعة — نرى هنالك نمواً تدريجياً في
الصناعات وعلى الأخص ماله صلة بالقطن ، وهذا سيجذب عدداً
من سكان الريف ، فيخفف الضغط عن الأراضي الزراعية .
وهناك بعض مشروعات للرى ، وعلى الأخص في حوض نهر
السند ستؤدي إلى إيجاد أراضٍ صالحة للزراعة . ومن الممكن
أيضاً بتحسين وسائل وطرق الزراعة أن تزداد غلة الأرض .
وهذه طرق كلها بطيئة ، خصوصاً أن الدولة صاحبة النفوذ

(١) راجع الموضوع كله في مقالة R. K. Das وعنوانها The Problem of Indian Overpopulation المنشورة في المجلد التاسع لمؤتمر السكان انعقد
بروما سنة ١٩٣١

لا تشجع نمو الصناعة في الهند ، رغبة في استبقاء هذه السوق
للمصنوعات البريطانية

أما المهاجرة إلى أقطار خارج الهند ، فليس هنالك أقطار
فسيحة مفتوحة أمام الهنود . فجميع قارة إفريقيا قد أغلقت
أبوابها في وجوههم ، بعد أن هاجر القليل منهم إليها ، وعلى
الأخص إلى شرق وجنوب إفريقيا ؛ فقد نشأت مشا كل تتعلق
بمركز الهنود بالنسبة للبيض من جهة ، وإلى السود أهل البلاد من
جهة أخرى ، وهذه المسائل لا تزال معقدة أشد التعقيد ، وثار
بسببها جدل عنيف . ولهذا لا يرغب أحد في مهاجرة الهنود إلى
إفريقية

وليس أمام الهنود المهاجرة سوى شبه جزيرة الملايو ، حيث
يذهب عدد منهم حسب الطلب للعمل في مزارع المطاط . ومع
ذلك يفضل أهل الصين عادةً في هذا على أهل الهند

وقد سنت حكومة الهند قانوناً بتحديد سن الزواج للرجل
(بثنائي عشرة سنة) والمرأة (بأربع عشرة سنة) وهذا لا ينتظر
أن يقلل من النسل ؛ لأنه في الغالب سيحسن من صحة الأطفال
فلا تبقى نسبة الوفيات عالية فيهم . وإلى جانب هذا فقد حرمت
الحكومة إعدام الأرمال ، وهنالك جمعيات لتزويج الأرمال
وإصلاح حالهن .

فليس في جميع هذه الإجراءات ما يشعر بتحسين قريب
محسوس في حالة السكان في الهند

الصين :

من المشهور الذائع أن بالصين شطرا من النوع البشري
لا يستهان به ، حتى لقد أثار هذا الأمر تلك الخرافة المشهورة
« الخطر الأصفر ! » حين توهم بعض الأوربيون البيض أن كثرة
عدد الصفر خطر يهدد أوربا وثقافتها وكيانها وشعوبها البيضاء .
وقد رأينا بأعيننا كيف يكون البيض خطراً على البيض كما حدث
في الحرب الكبرى ، وكيف يكون الصفر خطراً على الصفر كما هي
الحال بين اليابان وكوريا والصين ؛ بل وفوق كل شيء كيف
يكون البيض خطراً دائماً على الصفر والسود والسمر والبيض
إذن ما أساس ذلك الخوف من سكان الصين وعديدهم ؟
إن بلاد الصين عريقة في الحضارة ؛ كانت مهدا للعرمان منذ
ثلاثة أو أربعة آلاف من السنين . قام فيها العرمان من الناحية
الاقتصادية على أساس الزراعة ، ومن الوجهة الاجتماعية على
الأسرة ملتفة حول عميدها ؛ فكان من اللازم لتجديد الأسرة
وإعلاء شأنها أن يزداد عددها . فالإكثار من النسل — لهذا —
يوشك أن يكون ديناً وعبادة . . ونظراً لخصوبة التربة كان من
الممكن أن يعيش الناس ويتزايدوا بكثرة . وكان لا بد لهذه

الكثرة أن تؤدي إلى مشكلة اقتصادية متى بلغ الاستغلال أقصى حدوده

إن وجود الأسرة المتضامن أفرادها ، في تعاون وتوافق في جميع مناحي الحياة ، وكلهم خاضع لرئيس واحد ، أمر له خطره ، فإنه يجعل من الأمة بناءً مكوناً من أجزاء متينة لا يتسرب الوهن والضعف إلى جزء منها ؛ فإذا عصفت بالصين العاصفة ، ففككت عراها ، وزال الأمن من ربوعها ، ومزقت البلاد كل ممزق ، فإن بناء الأسرة ثابت متين لا يعتريه ضعف ولا يدركه وهن

وإلى هنا نرى أن تكوين الأسرة ذو قيمة كبرى . ولكن هذا الإخلاص العظيم للأسرة قد كانت له نتيجتان خطيرتان : إحداهما سياسية والأخرى اقتصادية . أما النتيجة السياسية فهي إضعاف الروح القومية ، فإن شدة الإخلاص للأسرة وللأقارب ، والتفاني في حب الأهل والبنين لا تزال العاطفة القوية التي تملأ كل صدر ، ولا تدع متسعاً لشعور آخر . والإخلاص للوطن ومجد الوطن — باعتبار بلاد الصين كلها وطناً واحداً — أمر لا يزال مجهولاً إلى درجة كبيرة في الصين . ولم تنبهِ العاطفة القومية إلا حديثاً في دوائر محدودة جداً . أما النتيجة الاقتصادية لحب الأسرة ، فهي أن كل أسرة تبذل أقصى ما في وسعها لكي يزداد عدد أفرادها إلى أقصى حد ممكن ، ومن غير أدنى تفكير

في العواقب ، حتى كثرت السكان كثرة هائلة تتجاوز ما في البلاد من الموارد الاقتصادية تجاوزاً هائلاً .

إن فكرة عمل تعداد للبلاد فكرة قديمة في بلاد الصين ، ولكن كل تعداد كان يعمل في العصور الأولى كان مبنياً على عدد دافعي الضرائب . وليس من الحزم الركون إلى مثل هذه الطريقة في استنباط عدد السكان . ولا تزال المراجع الرسمية في الصين عاجزة عن أن تعطينا أرقاماً دقيقة يمكن الاعتماد عليها ، اللهم إلا على وجه التقريب . وقد قامت — مع ذلك — هيئات خاصة مستقل بعضها عن بعض في عمل إحصاء لسكان الصين ، وبمقارنة النتائج التي حصل عليها كل منها ، نستطيع أن نصل إلى رقم تقريبي للسكان

في سنة ١٩١٩ قامت لجنة تابعة لجمعية من الجمعيات التبشيرية الكبرى التي تعمل في الصين ، بعمل إحصاء للسكان مستعينة بالموظفين في المراكز المختلفة . وفي عام ١٩٢٠ قامت مصلحة البريد في الصين بعمل تعداد للسكان ؛ فكان التقدير الذي أظهرته الهيئة الأولى عبارة عن ٤٤٠ مليون نسمة وتقدير مصلحة البريد ٤٢٧ مليون نسمة . وفي ١٩٢٨ و ١٩٢٩ قدر حكام المديرية سكان بلاد الصين بنحو ٤٥٠ مليوناً

هذه التقديرات كلها لا تسرى على جميع امبراطورية الصين ،
فإن هذه تشتمل على بلاد الصين الأصلية ، ومنشوريا والتبت
والمغول والتركستان الصينى . والأرقام المذكورة قاصرة على بلاد
الصين الأصلية — أى على الثمانى عشرة مديرية أو ولاية ، التى
تتألف منها الصين ، مضافاً إليها منشوريا .

وسكان منشوريا وحدهم لا يتجاوزون ٢٥ مليوناً من الأنفس
فيصبح الرقم التقريبى لسكان بلاد الصين من ٤٠٠ إلى ٤٢٥
مليوناً ، وهذا يعادل ٢٠ ٪ من سكان الأرض . وهو رقم يمكننا
أن نقبله على أنه قريب من الحقيقة ، خصوصاً أننا قد وصلنا إليه
بمقارنة تقديرات مختلفة كانت تقوم بها هيئات تعمل كل منها
مستقلة عن الأخرى

وببلاد الصين إذا أخرجنا منها منشوريا — تبلغ مساحتها
مليوناً ونصف مليون من الأميال المربعة (٥ مليون من الكيلو
مترات المربعة) فيصبح توزيع السكان فيها على هذا القياس نحو
٢٥٠ للميل المربع . غير أن هذه النسبة — وإن كانت عالية —
فإنها لا ترينا حقيقة الحال ، لأن فى الصين أقطاراً جبلية فقيرة
السكان ، وأخرى قليلة الماء والزرع ، وفيها كذلك أقطار زراعية
ليس لازدهام السكان فيها نظير فى العالم
ولا بد لفهم حالة السكان فى الصين من وصف عام لطبيعة

البلاد والأقاليم المختلفة فيها . ويمكننا أن نقسم بلاد الصين إلى الأقسام الطبيعية الآتية ^(١) : —

١ — السهل الشمالى : الممتد من حدود منشوريا شمالاً ، على طول الساحل الشرقى ، ومنبسطاً إلى الداخل حتى هضبة اللوس الشمالية . ويمجرى فيه النهر الأصفر (هوانج هو) وبي هو وهوى هو . وفى امتداد هذا السهل إلى الجنوب يصبح ملاصقاً لسهول نهر اليانجسى

٢ — مرتفعات شان تنج : تعترض امتداد السهل الشمالى ؛ فى شكل شبه جزيرة بارز فى البحر الأصفر ؛ وارتفاع هذا الأقليم ليس عظيماً ، فقد يبلغ فى بعض المواضع نحو ١٥٠٠ متراً ، ولكن أكثره دون هذا الارتفاع بكثير ، ولهذا فإن ازدحام السكان لم يتأثر كثيراً بهذه المرتفعات

٣ — وادى وى هو : يجرى نهر وى هو من الجبال الغربية فى آخر الصين من جهة الغرب ، ثم يجرى نحو الشرق حتى يصب فى هوانج هو . وهذا الوادى المطمئن وسط الهضاب والجبال يكون وحدة جغرافية مستقلة

(١) الأقسام الطبيعية للصين قد يشمل كل قسم منها عدة مديريات . وكذلك قد تكون المديرية الواحدة شطرين : شطر فى السهول وشرط فى الجبال ، وليست المديريات دائماً منطبقة على التقسيم الطبيعى للبلاد . ولكن الأقسام الطبيعية أضع لنا فى دراسة ازدحام السكان من الأقسام السياسية

٤ — الهضبة الشمالية : شمال نهر وى هو تمتد هضبة متوسطة الارتفاع يخترقها نهر هوانج وروافده ؛ وهى مركبة من تربة اللويس (Loess) المشهورة وهى تنتهى فى الشرق إلى السهل الشمالى ، وفى الغرب إلى الحدود الغربية للصين

٥ — الجبال الشمالية : جنوب نهر وى هو تمتد جبال تسن لينج ، وإلى جنوبها جبال طيشان حتى تصل غرباً إلى محاذة جبال آسيا الوسطى

٦ — حوض نهر اليانجتسى : الذى ينقسم بسهولة إلى ثلاثة أقسام : الدلتا والجزء الأدنى ثم الحوض الأوسط ، ويسمى حوض هوپه Hu-Peh . فالحوض الأعلى ويسمى باسم المديرية الكبيرة التى يشملها حوض ستشوان Se-chwan

٧ — الجبال الغربية : وتسمى أحياناً الألب الصينية ، وهى شديدة الارتفاع والوعورة

٨ — الهضبة الجنوبية : وهى متوسطة الارتفاع ، عظيمة المساحة

٩ — السواحل الجنوبية الشرقية : ما بين مصب اليانجتسى ، وبين كانتون . وهى فيما بين الهضبة الجنوبية وساحل المحيط الهادى . وتتألف من أراض منخفضة ولكنها ضيقة

١٠ — دلتا كانتون والجزء الأدنى لنهر سى كيانج (١٦ — ك)

١١ — هضبة ينان : في آخر الصين من جهة الجنوب الغربى ؛

وهى هضبة عالية تتدرج في الارتفاع من الشرق إلى الغرب حتى
تتصل بجبال برما وهضبة التبت

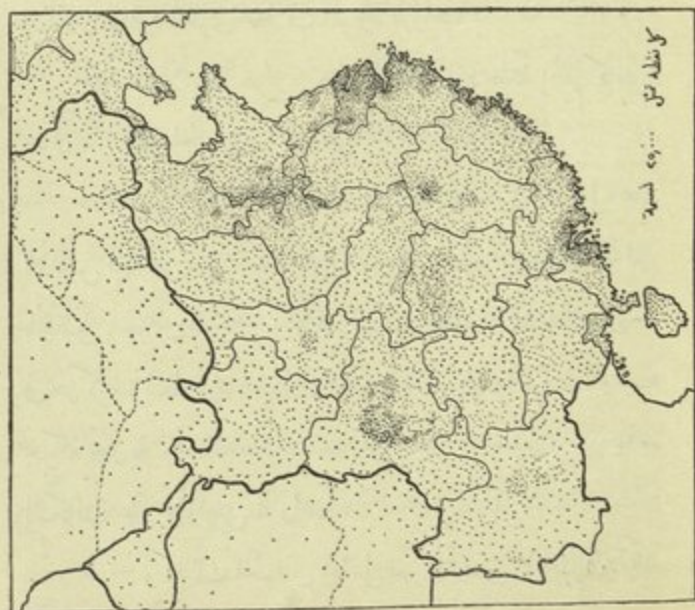
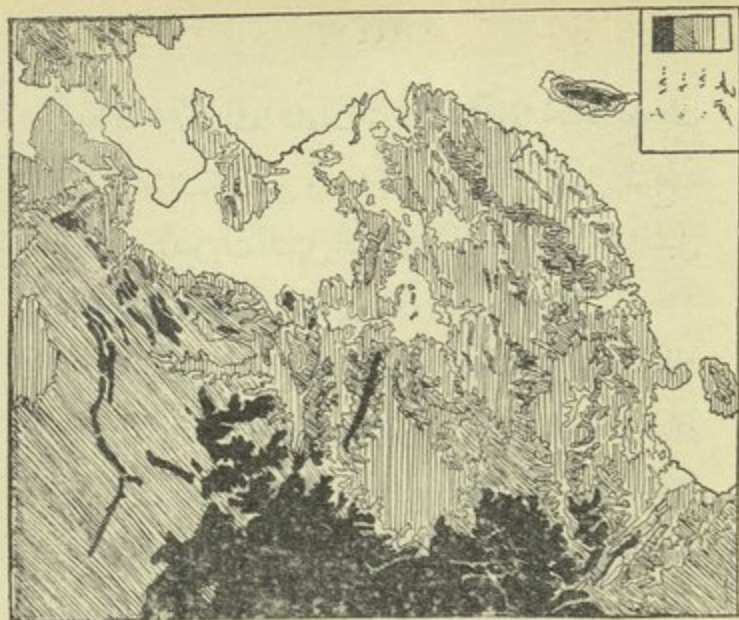
فإذا نظرنا إلى بلاد الصين من حيث أقسامها الطبيعية نرى
أن هنالك اختلافاً كبيراً في توزيع السكان بين أجزائها المختلفة .

ولابد لنا الآن أن نتناول بالوصف بعض النواحي الشديدة الازدحام
١ — أشد أقاليم الصين ازدحاماً هو من غير شك الجهات

الواقعة شمال وجنوب دلتا نهر اليانجتسى . فبقطع النظر عن
المستغلين من السكان بالصناعات ، في إقليم يعد أهم الجهات
الصناعية في الصين ، نرى أن الجهات الريفية البحتة من شدة
الازدحام في حالة ليس لها نظير في العالم ، بل ليس هنالك مساحة
تدانيها في هذا بين جميع الأقطار الزراعية . فهنا تتراوح كثافة
السكان بين ٦٨٨٠ ٦٩٨٠ للميل المربع . وهذا في جهات عمادها
الاقتصادي الوحيد هو ما تقله الأرض من النبات

وهذه الحقيقة قد ظهرت عند دراسة حالة السكان في أثناء
المجاعات التي حدثت في عام ١٩٢١ — ١٩٢٤ . وهي التي فصلها
الأستاذ مالورى في كتابه عن الصين ^(١)

(١) كتاب Mallory المسمى China the Land of Famine



شكل (١٧) للمقارنة بين خريطة تضاريس الصين (البي) وخريطة توزيع السكان

ب — ومن أشد الجهات ازدهاماً أيضاً ولاية شانتونج حيث تبلغ كثافة السكان من ١٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ نفس للميل المربع . وفي بعض مديريات السهل الشمالى التى تزرع القمح مثل تشهلى Chihli قد تصل الكثافة إلى ٢٠٠٠ نفس للميل المربع . وهذه الأرقام ليس لها نظير فى أى قطر زراعى آخر فى العالم . فى أشد الجهات ازدهاماً فى حوض نهر الكنج بالهند من النادر جداً أن تصل النسبة إلى أكثر من ١٥٠٠ نفس للميل المربع . وفى اليابان قد تصل النسبة إلى أكثر من ألفين للميل . غير أن الرقم يشتمل على كثيرين ممن يشتغلون بصناعات صغيرة ، أى أن للسكان موارد أخرى خلاف الموارد الزراعية

ح — ولا يقل عن هذه الأقطار ازدهاماً إقليم كاتون حول دلتا النهر الجنوبى : نهر سى كيانج

د — وبلى هذه الأقاليم فى الازدهام ، بحيث لا يقل عدد الأنفس فيها عن نحو ٧٥٠ للميل المربع ، الحوض الأوسط لنهر يانجتسى ، حوض هوپه — الإقليم المركزى بالنسبة لبلاد الصين — فى مركز متوسط بين الشمال والجنوب والشرق والغرب . وفيه حركة تجارية وصناعية تساعد نوعاً على التخفيف من شدة التكالب على الأراضى الزراعية

ه — وكذلك الحوض الأعلى لنهر يانجتسى : إقليم دوتربة

خصبة ومزدهم بالسكان ولكنه يعد معتدلاً في كثافته إذا قورن بالجزء الأدنى من النهر

و — ومن الجهات الشديدة الازدحام الساحل الضيق ما بين مصب اليانجتسى إلى دلتا كانتون ، فها هنا أراض سهلة خصبة منحصرة بين البحر من الشرق والمضاب من الغرب ، وفي الجهات الشمالية من هذا الإقليم يشتد ازدحام السكان جداً بدرجة تعادل الازدحام عند مصب اليانجتسى . غير أن السكان هنا لقربهم من البحر ، كثيراً ما يهاجرون ليعملوا في جزر الهند الشرقية أو في سيام وبلاد الملايو

تلك هي الجهات المكتظة بالسكان في الصين ، وفيها يعيش الشطر الأكبر من تلك الملايين العديدة التي أشرنا إليها . أما باقى البلاد فمنها الجهات المتوسطة الازدحام — أى متوسطة بالنسبة للصين — مثل الهضبة الجنوبية حيث التربة أقل جودة ، اللهم إلا في المنخفضات وفي أودية الأنهار . وكذلك في هضبة اللوس الشمالية وحوض وى هو نرى ازدحاماً معتدلاً للسكان ، نظراً لأن تربة اللوس المنتشرة ، على غناها وخصوبتها ، تحتاج ماءً كثير ؛ وهذه المنطقة ليست غزيرة المطر ، وقد يستعين الناس على الزراعة بالرى بواسطة الآبار ، وهذا كله يجعل توزيع السكان متمشياً مع وفرة المياه

أما الجبال والجهات الشديدة الارتفاع فقيرة السكان ،
وكذلك المستنقعات الواقعة حول نهر هواي

يبدو لنا من هذا أن بلاد الصين قد غصت بالسكان إلى
درجة هائلة ، والازدحام فيها هو في أقاليم زراعية ؛ فلا وجه
للمقارنة بينها وبين الازدحام في أوروبا أو أمريكا . ومع التسليم
بأننا ليس لدينا إحصاءات دقيقة عن كل ما يتعلق بالصين ، فإن
شهادة كثير من الكتاب الذين درسوا مشا كل الصين عن
كثب تدلنا أن ٨٠ ٪ من سكانها يعيشون من إنتاج الأرض
ومعظمهم يشتغلون في قرى صغيرة يتراوح عدد السكان فيها بين
٢٥٠ و ٢٥٠٠ نسمة . أو في كفور أصغر حجماً لا يزيد سكان
الكفر منها عن ٢٥٠ نسمة وهؤلاء هم الأكثر

والصيني مزارعٌ مُجد ، قد مارس الفلاحة منذ آلاف السنين ،
وبلغ فيها درجة عظيمة من المهارة والحذق ، ولم يترك شبراً
واحداً من الأرض يستطيع زرعها إلا استغله إلى أقصى درجات
الاستغلال ؛ وقد زرع السهول والأودية ومنحدرات التلال
والجبال ، حتى يصل إلى التعم أحياناً . وهو يجهد نفسه في فلاحة
الأرض ، ويعانى من النصب والعناء ما لا يعانى به فلاح في أى قطر
من الأقطار ؛ حتى لقد يحمل الماء على كتفيه من قناة أو بئر لى

يسقى بها أرضاً عالية لا يصل إليها الماء إلا رفعا . ولكنه برغم خصوبة الأرض والجهود التي تبذل ، والجلد على العمل ، لا يجد في الحياة إلا رزقا طفيفا ؛ فغذاء الكثرة من سكان الصين غذاء ضئيل لا يكاد يسد الرمق ولباسهم قليل ، ومسكنهم حقير . وهم مع هذا عرضة أبداً لأخطار قاسية تُفنى من عديدتهم وتزيد في مستوى حياتهم انحطاطاً وبؤساً . وأول هذه الأخطار وأكبرها خطر المجاعات التي تنشأ عن تاف المحصول الزراعى . وهذا يرجع إلى سببين كبيرين : الأول الجفاف وقلة الأمطار ، فإن الأمطار الموسمية ليست مطردة في سقوطها ، ولا منتظمة ، وكثيراً ما تصاب أقطار فسيحة بسنة أو بسنين متتالية يقل فيها المطر جداً حتى يجف الزرع ويحجف كثير من الآبار . فلا تخرج الأرض إلا القليل من النبات . وهذه الحال تحدث بنوع خاص في الجهات الداخلية البعيدة عن البحر في النصف الشمالى لبلاد الصين

والسبب الثانى للمجاعات هو فيضان الأنهار ، ففي الحالة الأولى يهلك الزرع جفافا ، وفي الثانية يهلك الزرع من غزارة الماء . وبعض أنهار الصين وعلى الأخص نهر هوانج هو قد ترتفع مياهه فجأة وتقطع الجسور وتغمر مساحات هائلة من الأراضي وتهلك كثيراً من الناس والدواب . وبالطبع تتلف جميع المزروعات ، وقد بلغ عدد الذين هلكوا في فيضان نهر هوانج هو

سنة ١٨٨٧ نحو مليونين من السكان . وليس الطوفان دائماً بمثل هذه الشدة ، ولكنه على كل حال إحدى الظواهر الخطيرة في حياة الفلاحين في الصين

وقد يحسن هنا أن نأتى على وصف مختصر لما يحدث في مجاعة ، كالتى حدثت في عام ١٩٢١ في شمال الصين حين قل المطر جداً ، وجف الزرع واشتد الضنك وانتشرت الفاقة بين الناس . وقد اشتركت هيئات دولية معظمها أمريكية في مكافحة هذه المجاعة . التى هلك فيها مالا يقل عن ٥٠٠,٠٠٠ من السكان ، وفي أشد أوقات الجفاف ، بلغ عدد المعوزين عشرين مليوناً من الأنفس ، وفي أثناء تلك الكارثة جعل الناس يأكلون مالدتهم من مدخر الزاد — وهو قليل جداً لأن الصينى ليس لديه مايدخره — ثم جعل الناس يتناولون كل مايجدونه نابتاً في الأرض من عشب أو حشائش ، وقد كانت غداء بعض الناس حسب التحريات التى قام بها الباحثون ، مؤلفاً في كثير من الأحيان : من طحين أوراق الشجر المجففة ، ومن بذور القطن ، ومن دريس القمح ، ومن نجارة الخشب ولحاء الشجر . وبذور من أشجار تضر الجسم . وما شا كل ذلك من المواد التى تعافها أى نفس ، ولقد كان هذا الطعام في بعض الأحيان كريها إلى درجة أن أطفالاً عديدين هلكوا جوعاً لأنهم لم يستطيعوا أن يتناولوه

وفي أثناء تلك المجاعة باع الفقراء كل مالههم مما يمكن أن يباع حتى أخشاب السقوف ، وازداد الربا ازدياداً هائلاً حتى لم يَرِ الناس من الإرهاق أن يتعهدوا بدفع ربا قدره ١٠٠ ٪ . وقد هاجر كل من استطاع المهاجرة من الناس ، وفي الأوقات العادية قد يبيع الناس بناتهم ليستعينوا بثمنها على الحياة ، ولكن في وقت هذه المجاعة ازداد بيع البنات والنساء إلى درجة مريعة ، وانحط الثمن جداً حتى كان سعر البنت يتراوح بين ثلاثة ريالات صينية ومائة وخمسين ريالاً . (٣٠ قرشاً إلى ١٥ جنياً) . وفي الصين كما هي الحال في سائر البلاد المتأخرة لا يرغب الناس في البنات ، ولهذا يجوز للوالد أن يبيع ابنته ، كما تباع السلعة ، والعادة أن تباع البنت صغيرة (دون العاشرة) . وبهذه الطريقة تستطيع الأسرة أن تشتري ثمن ابنة أو اثنتين ما يكفيها مؤونة بضعة أشهر في أثناء المجاعة

وبديهي أن ازدحام السكان في الصين — وإن لم يكن السبب المباشر في إحداث المجاعات — فإنه هو السبب في أن المجاعات تبلغ هذه الشدة الفظيعة ، وتلك القسوة المريعة ، فلو أن السكان في حالة من اليسار لاستطاعوا أن يدخروا شيئاً لسنى المجاعات ، وهي تحدث عادة مرة في كل سبع أو عشرين سنة . ولو كان الناس في يسار لاستطاعوا أن ينفقوا المال في أعمال

هندسية كبيرة لإصلاح جسور الأنهار واتقاء أخطار الفيضان ،
 لكن معظم سكان الريف في فقر مدقع ، ويعيشون دائماً في حاجة .
 فإذا جاءت أعوام بشىء من الرخاء ، أمكن الناس أن يحسنوا
 غذاءهم قليلاً ، ويتداركوا قليلاً من الكثير الذى ينقصهم ،
 ولكنهم سيقبضون في حاجة إلى كثير من الضروريات . فالادخار
 أو الاقتصاد مستحيل ، إذ ليس هنالك ما يقتصد . وفى الصين
 أغنياء مفرطو الغنى — وهى ظاهرة للأسف تبدو واضحة فى كل
 بلد فى أشد حالات الفقر — ولكن عامة الناس معوزون جداً^(١)

إن حياة الضنك والضيقة التى يعيشها الصينى قد علمته القناعة
 والرضى بما هو أقل من القليل ولقد درس كاتب أمريكى طرق
 معيشة أهل الصين ، لكى يستطيع أن يقدر الميزانية اللازمة لأسرة
 مكونة من خمسة أفراد . فرأى أن أقل ما يلزم لأسرة تعيش عيشة
 فى غاية البساطة مبلغ يقدر بمائة وخمسين دولاراً صينياً (أى نحو ١٥

(١) قدر بعض كتاب اليابان متوسط الثروة لكل فرد من السكان فى
 بعض الدول كما يأتى :

الولايات المتحدة	٦٦٠٧	ين	اليابان	١٧١٠	ين
بريطانيا	٥٢٤٧	»	إيطاليا	١١١٧	»
فرنسا	٢٥٥٠	»	الصين	١٠١	»
ألمانيا	١٤٤٠	»			

وبالتبع هذا مجرد تقدير ؛ راجع الجزء التاسع من أعمال مؤتمر
 السكان بروما سنة ١٩٣١

جنياً) في السنة . وبمقتضى هذه الميزانية تستطيع الأسرة أن تجد حاجتها من الغذاء البسيط ، الذى ليس فيه لحوم ولا بيض ولا غلات حيوانية مطلقاً ، بل حبوب وخضروات وزيت نباتية ، وبهذا تكفى نفسها شر الحاجة ، والثياب والمسكن كلاهما متواضع بالدرجة ذاتها

هذا ما يحتاجه الأسرة لكي تعيش بما دون الكفاف ، ولكن بعض أفراد الهيئة الدولية التى كانت تشتغل في إعانة ضحايا المجاعات ، قام بإحصاء بين كثير من الأسرات في ولايات السهل الشمالى ، فوجد أن ٦٠٪ من السكان في بعض الجهات و ٨٠٪ في جهات أخرى لا يصل إلى أيديهم حتى ذلك الدخل المتواضع وليس تأثير هذه المجاعات قاصراً على فناء عدد من الناس جوعاً ، بل إن الذين يعيشون هم أسوأ حالا ، لأن آثار تلك المجاعات تتركهم ضعافاً مرضى ، وليس لدينا إحصاءات عن الوفيات في الصين ، ولكن النسبة لا بد أن تكون عالية جداً ولا بد لنا أن نكرر أن الصين ليست البلد الوحيد في العالم المعرض للفيضانات ، وللجفاف ؛ فإن هذا أمر يحدث في كثير من بقاع العالم . ولكن في الأقطار المتقدمة في الثروة مثل الولايات المتحدة ، يجد الناس من المذخر لديهم ما يستطيعون به تحمل خسارة عام أو عامين . ولكن الجهات الزراعية في الصين

غاصة بالسكان إلى درجة مريعة . وحب الأهل والأقارب يجعل الكثير من الناس يعيشون مع أقاربهم ، وان لم يكن لهم في الريف عمل يعملونه . وبالرغم من كثرة ماتتطلبه الزراعة في الصين من الأيدي . فإن الأعمال الزراعية ليست في حاجة إلى كل سكان الريف . وهذا الازدحام الهائل هو الذي يجعل المجاعات مريعة فظيعة إلى هذا الحد . بل لانبالغ إذا قلنا إنه هو السبب الحقيقي في إيجاد المجاعات

وقد كان من نتائج هذا التكالب على الثرى ؛ وهذا الفقر القتال ، أن ازدحمت البلاد بكثير ممن ليس لهم مرتزق . وهؤلاء قد يحترفون الشحادة ، وفي الصين جيش من الشحاذين ليس له نظير ، أو يحترفون أعمالاً مجهدة شاقة كحمل الأثقال ، وجر المركبات الخفيفة (Rickshaw) ، ينقلون بها الناس من مكان إلى مكان . فيؤدون بذلك وظيفة الدواب ، ومنهم من يحترف مهنة أخرى ، وهي مهنة المحارب . وذلك أن في الصين أفراداً ذوى يسار ، يجمعون من حولهم جماعات من المرتزقين يطعمونهم ويكسونهم ، ويسلحونهم بأنواع خفيفة من السلاح ، ويتخذون منهم ما يسمونه جيشاً ، لا يقودونه لمحاربة عدو مغير على البلاد بل على حاكم وطني ضعيف في بندر أو مركز صغير ، فاذا وفقوا ذهبوا لمحاربة حاكم أكبر فأكثر . وقد يصبح هؤلاء القادة

مركز فيه شيء من القوة ولو مؤقتاً إلى أن يغتصبه منهم غاصب .
وليس أسهل على هؤلاء القواد من جمع الجيوش ، من العاطلين
الجانعين الذين يملأون أنحاء الريف . والذين يرجون بهذه
الفرصة السانحة لكي يملأوا بطونها بعهدا بالشعب بعيد

وليس من شك في أن هؤلاء أسعد حالا من الفلاح العامل
الدائب . ولكن الأثر المحتوم لهذه الحالة هو أن البلاد قد امتلأت
بهذه العصابات ، وضربت الفوضى أطنابها في أنحاء الدولة ، ولم
يصبح لسلطة الحكومة المركزية أثر في معظم البلاد . وليست
هنالك قوة تحمي المزارع والتاجر من غارات هذه العصابات
النهمة . وأى حال شر من أن تصبح البلاد وقاطع الطريق فيها
هو المتع السعيد ، والفلاح الدائب هو المعذب الشقي ؟ !

إن هذه الحالة قد قعدت بالصين عن النهوض ، وقتلت
روح الوطنية في النفوس . وجعلت من السهل على بلاد عريقة
في الحضارة والمجد أن تصبح فريسة لمطامع الطامعين وجشع
المستعمرين . وليس هنالك أدنى ريب في أن الازدحام الهائل ،
والكثرة الزائدة في السكان ، هي السبب المباشر لكل هذه العال
الفتاكة التي تنتاب الدولة . فكثرة السكان هي سبب انتشار
الجماعات ، وسبب كثرة الشحاذين والمتسولين ، وانحطاط العامل
الصيني إلى مرتبة الدواب ، وهي السبب في اختلال الأمة وقد

النظام والتفكك السياسى ، الذى يجعل من الصين على ضخامتها وغناها ، دولة مستضعفة عاجزة . والصينى برغم هذا كله — أو بسبب هذا كله — لا يزال يحب النسل ، لأن عبادة النسل مغروسة فى الطبع وهى الدين الذى علمه كنفوشيوس . وهذا الإكثار من النسل هو علة الملل فى الصين حسب شهادة جميع الأساتذة الذين درسوا مشا كل الصين دراسة منظوية على الحب والعطف . ولنورد هنا شهادتين مترجمتين من اللغة الانكليزية :

« إن أهم الأسباب العميقة لما فى الصين من الاضطراب السياسى والاجتماعى هو ذلك التهاك المفرط على كثرة النسل ، ذلك الجنون الأعمى باخراج النرية ، الذى ولدّه مذهب كنفوشيوس وعبادة الأجداد ، والذى لا يزال — رغم ما يحتاج البلاد من طاعون ، ووباء ومجاعات ومذابح ، ورغم الموت المفاجئ — دائباً على زيادة السكان إلى أقصى ما تستطيع البلاد أن تحمله ، بل وإلى أبعد مما تتحمله موارد البلاد »

« إن الهواء نفسه فى بلاد الصين مشبع بحب النرية . ومن زمن قديم لا نذكر أوله ، كانت أحب الأمور إلى الناس دائماً النرية والعلم والمال على هذا الترتيب . وهكذابقى الحكم الذى صدر فى زمن قديم جداً — حين كان هنالك مكان لكل إنسان —

إلى زمن أصبحت فيه الأرض تن من عبء السكان التى تنوء به^(٢)»

وفى الصين كما فى الهند قد يمكن التنفيس عن السكان وقتياً ، بواسطة الهجرة الداخلية إلى أماكن قليلة السكان نسبياً ، فهناك أراض حول نهر هواى Hwai ونهر هوانج الأدنى قد تتسع لعدد من الناس إذا أصلحت وقلت فيها أخطار الفيضان ، وكذلك من الممكن لأهل الصين أن يهاجروا إلى بلاد المغول إن أمكن التفاوض مع روسيا ، وإلى منشوريا إذا أمكن الاتفاق مع اليابان . وهذا فى الوقت الحاضر ليس بالأمر السهل . وهنالك أيضاً مجال ضيق للمهاجرة إلى الخارج ؛ إلى بلاد الهند الصينية وإلى جزر الهند الشرقية وبعض جزر المحيط الهادى . ولكن معظم الجهات الخالية التى فيها مكان واسع للمهاجرة مغلقة أمام الصينى ، وأمام الجنس المغولى عامة . فهو لا يستطيع المهاجرة لا إلى أستراليا ولا إلى زيلندة الجديدة ولا إلى أى قطر فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية . ولا يستطيع المنصف أن يلوم أهل أستراليا وأمريكا على إغلاق أبوابهم فى وجوه أهل الصين . لأن الصينى إذا نزل بينهم ، وهو الذى يجترىء بالقليل من الزاد ، ويعيش عيشة فى غاية البساطة

(١) و(٢) للكتابين J. P. Bland و F. A. Ross نقل عن رسالة الأستاذ ركسي عن الشرق الأقصى

والتقشف ويرضى بأحقر الأجور فإنه سيكون سبباً في تخفيض مستوى الحياة ، ولا يعقل أن أهل بلد من البلاد يقبلون أن تنحط أجورهم بمزاحمة أجنبي يفتحون له أبوابهم بأنفسهم والصيني عاجز بالطبع عن أن يتملك لنفسه مستعمرة ينتشر فيها ، فإن الشعب برغم كثرة عدده — بل بسبب كثرة عدده — في حالة من العجز والضعف والتفكك بحيث أخذ يفقد البلاد التي كانت من قبل ملكاً له بصرف النظر عن امتلاك أقطار جديدة ! ومن الممكن أيضاً إصلاح الحالة قليلاً ؛ بإصلاح وسائل الزراعة ، واتخاذ آلات حديثة ووسائل علمية مستحدثة . والصعوبة التي تعترض هذا الاقتراح هي كيف يتاح للفلاح المعوز أن يقتني هذه الآلات الحديثة ، اللهم إلا إذا غرق في الديون ، فيصبح العلاج أشد فتكاً من المرض . وكذلك قد تتحسن الحال بإنشاء صناعات جديدة . ولكن هذا الحل أيضاً — عدا أنه حل مؤقت — فإنه شديد الخطر على الصين ، لأن هذه الصناعات الجديدة ستقوم برأس مال الأجنبي ، الطامع في البلاد الذي لا يزال يبذل ما في وسعه لزيادة تفكيكها وإضعاف شوكتها والصين مثل قائم ناطق ، فيه غظة وعبرة ، لأولئك الذين يمجدون الكثرة أياً كانت وكيفما كانت ، ويقدرون أهمية الدول بعدد سكانها

سطح اليابان

نسمع كثيراً عن ازدهام السكان في اليابان ، أكثر مما نسمع بالازدهام في الصين . وليس هذا لأن الحالة في اليابان أسوأ ، بل لأن اليابان دولة تحس وتتكلم ، وتجار بالشكوى من هذا الازدهام ، مبررة به بعض الأعمال السياسية ، والنزعات الاستعمارية وهكذا يسمع كثير من عامة الناس حديث اليابان ، ولم يسمع حديث الصين إلا الخاصة ، مع أن اليابان بالنسبة إلى الصين تعد في رخاء وسعة .

تتألف امبراطورية اليابان من عدة جزر أهمها الجزيرة الكبرى هندو Hondo : وإلى شمالها جزيرة أصغر منها وهي يزو Yezo . وفي الجنوب جزر صغيرة عامرة ملاصقة لسواحل الجزيرة الكبرى . هذه هي بلاد اليابان الأصلية ، ولكن لها فوق هذا ممتلكات منها جزيرة فرموزا ومعظم سكانها من أهل الصين ولها كوريا وهي أكبر الممتلكات اليابانية . وكذلك أصبحت اليابان ذات الكلمة العليا في منشوريا . كما أن لها الشطر الجنوبي من جزيرة سخالين . ولها في المحيط الهادى جزائر صغيرة ورثتها عن ألمانيا بعد الحرب . والأصل أنها تحكمها بطريق الانتداب نيابة عن عصبة الأمم ، ولكن اليابان خرجت من العصبة ولا

(١٧ — ك)

تزال مع ذلك تحكم هذه الجزر (جزر مارشال و كارولينا و ماريان)
فالإمبراطورية اليابانية إذن مترامية الأطراف جداً ممتدة من
شمال الاستواء بقليل (حيث جزر كارولينا) إلى عرض ٥٠ شمالاً ،
(حيث جزيرة سخالين) . وبعض الإمبراطورية جزر . والبعض
في القارة مثل منشوريا وكوريا . ولكننا إذا تحدثنا عن بلاد
اليابان فإنما نقصد البلاد التي سكانها من اليابان ؛ وهي تلك الجزر
الأصلية : هندو وما حولها . أما الأقطار الأخرى فتسكنها شعوب
غير يابانية . وإنما تحكمها أو تسيطر عليها اليابان

كان سكان اليابان في سنة ١٨٧٥ لا يزيدون على ٣٤
مليوناً ثم بلغوا في عام ١٩٠٩ نحو ٤٤ مليوناً . وفي عام ١٩٢٥
وصلوا إلى ستين مليوناً . واليوم يبلغون ستة وستين مليوناً ، وهكذا
تضاعف عددهم في نحو ستين عاماً . وهي عهد التقدم الصناعي
والحربي في اليابان . وقبل ذلك العهد كان السكان في حالة
ركود ، والزيادة فيهم ضئيلة جداً ، لا تنتشر الحروب بين الرؤساء
الصغار في العهد الإقطاعي ، ولا تشار الأوبئة والجاعات . وبعض
العادات المانعة للنمو مثل الوأد الذي كان كثير الشيوع في أوائل
القرن التاسع عشر

هذه الحال كلها قد تغيرت ، فإن العهد الإقطاعي قد انتهى
واتحدت البلاد كلها ، وتحسنت الحالة الصحية وأصبح الوأد

جريمة يعاقب عليها العقاب الصارم . وفي اليابان — التي استمدت حضارتها الأولى من الصين — حب النسل جزء من الدين . وإذا كانت الحالة الاقتصادية لم تسمح لهذا الحب أن يؤتي ثمرته الكاملة في العهد القديم ، فإن الثورة الصناعية والرقى الحديث ، أوجدا عملاً للملايين من الناس

والقارىء يلاحظ أن نمو اليابان في السكان مشابه كثيراً لنمو ألمانيا . ولكن الفارق الكبير فيما بينهما أن اليابان لم يقف نموها إلى اليوم بل لا يزال هذا النمو مستمراً . هذا بالرغم من أن ألمانيا قطر أوسع ومواردها الاقتصادية أوفر . وقد ارتفع مستوى الحياة في ألمانيا كثيراً ، ولكنه لم يتقدم في اليابان تقدماً يذكر بسبب الثورة الصناعية . وعدد الوفيات في ألمانيا قليل (١٠ لكل ألف من السكان) وهو ضعف هذا تقريباً في اليابان

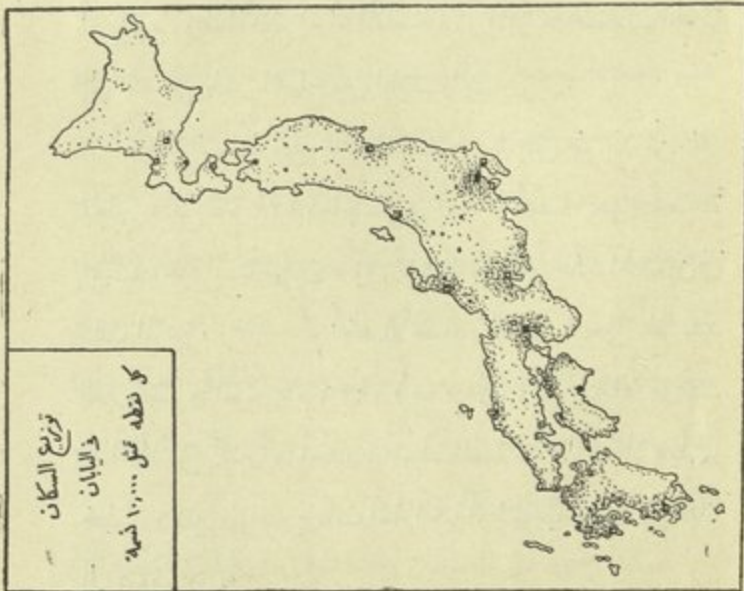
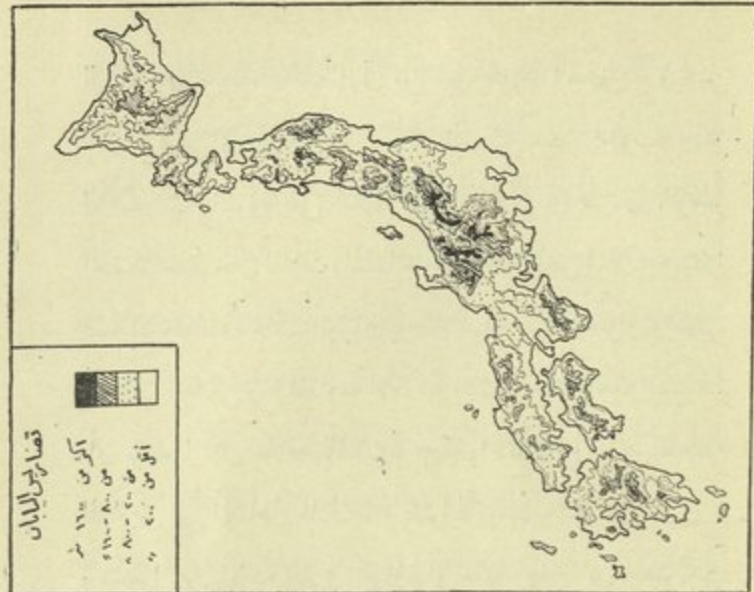
وتتألف جزر اليابان من أقاليم جبلية تتخللها سهول وأودية ضيقة ، ومعظم الأراضي غير صالح للزراعة . فالبلاد تشتمل على ٩٦ مليوناً من الأفدنة . ولكن لا يزرع منها سوى ١٤ مليوناً . ومن الجائز إصلاح ثلاثة ملايين أخرى . ولكن ما عدا ذلك جبال ومستنقعات غير صالحة ، ومعظم الجهات المزروعة هي في الأطراف الجنوبية ذات التربة الخصبة والمناخ البديع ، وكذلك السهول الساحلية

وقد اشتد الزحام في هذه الجهات المحدودة ، وبلاد اليابان لا تزال قطراً زراعياً قبل كل شيء . واشتدت رغبة الناس في امتلاك الأرض . فارتفعت الأثمان ارتفاعاً هائلاً . واكتفى الكثير من الناس بقطعة صغيرة ، يحرثها بقوة ، ويسمدها بعناية ، ويزرعها بمجد ليس له نظير . ولا يترك الزارع ركناً أو قطعة من الأرض بحجم المائدة ، بين الصخور في منحدرات الجبال ، إلا واعتنى بزراعتها كل الاعتناء ، والذي يمشى في الريف الياباني لا يرى مساحة واسعة من الأراضي تزرع ؛ بل قطعاً صغيرة كالحدائق يتوسط كلا منها دار صغيرة ، وقد احتشد من حولها الناس وامتلات بهم الحقول والطرق . وجميع الفلاحين يعملون بأيديهم . فإن صغر الأراضي يجعل من المستحيل استخدام آلات حديثة . وأكثر المزارعين (٧٥٪) لا يزرع أكثر من فدانين ، ومنهم خمسون في المائة لا يزرعون أكثر من فدان واحد . وقد يضطر الكثيرون إلى استئجار قطعة أرض أخرى بثمن باهظ . فقد أصبحت قيمة الإيجارات بسبب شدة الطلب ، أكثر من غلة الأرض في معظم جهات اليابان ^(١)

وكان لابد لهذه الحال من أن تحدث أثرها بين الناس . لأن

(١) راجع الفصل الأول من كتاب دنرى Asia's Teeming Millions : Dennery

شكل (١٨) المقارنة بين الضاريس وتوزيع السكان و اليابان



الياباني يحيا حياة مادية أرقى من التي يحياها الصيني ، ويحس الظلم ويسعى في مقاومته . وقد ظهرت بعد الحرب بوادر الاضطراب والثورة على الملاك بين الفلاحين في اليابان . وظهر انحصام العنيف بين الملاك والمستأجرين . فإذا رفض الملاك تخفيض قيمة الإيجارات قام المستأجرون بأعمال عنيفة منها الإحراق والنهب والسلب . ولكن نوع المقاومة الأكثر انتشاراً هو المقاومة السلمية . بأن يقطعوا كل علاقة بالملاك ، فيرفضوا دفع الديون ، ويقاطعوا المدارس التي أنشأها الملاك ، ويبنوا لأبنائهم مدارس أخرى ، ويمتنعوا عن الاشتراك في جنازة أو حفلة زواج أى عضو من أسراتهم . وهذا أفضع أنواع المقاطعة . . وكثيراً ما اضطرت المحاكم إلى التدخل لحسم النزاع بين الملاك والمستأجرين

وهذا السخط من جانب الفلاحين لم يبق طويلاً من غير تنظيم ، ففي عام ١٩٢٢ اجتمع في أوزاكا أعضاء هيئة جديدة سميت باتحاد المستأجرين . وفي تلك السنة كان عدد المجتمعين في ذلك المؤتمر ٣٠٠ — ثم أخذ الأعضاء يزدادون ، حتى بلغ عدد الذين حضروا المؤتمر عام ١٩٢٦ (٦٠,٠٠٠) ، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل كثيراً ما أخذت جمعيات المستأجرين شكلاً سياسياً خطراً ، وكثير منها ذو نزعات اشتراكية أو شيوعية ، تنقلب أحياناً إلى صورة ثورية

والقارىء الذى يدرس مشكلة الفلاحين فى اليابان ، يرى من غير شك أنها تشابه كثيراً حالة الفلاحين فى مصر كما نشرحها فى الفصل التالى ، فالأوصاف متقابلة تماماً . وإذا كانت الفلاح المصرى لم يذهب مذاهب سياسية متطرفة ، فهذا أمر يحمد الله عليه . ولكن يجب ألا يطمئن إلى هذه الحال كل من يهمنه أمر الإصلاح فى مصر ، ولينظر فى الوسائل المانعة بدلا من التفكير فى الطرق الرادعة . ومثال اليابان حتى قوى

والذين يظنون أن مجرد نمو الصناعة علاج شاف لنمو السكان ، سيجدون شيئاً من خيبة الظن فى حالة اليابان . فهذه بلاد قد بذلت كل جهد عنيف من أجل إخماء صناعاتها ، وقد تقدمت هذه الصناعات فعلاً تقدماً بهر العالم كله ، وكانت سبباً فى امتصاص عدد كبير من الأيدي العاملة ، التى لولا الصناعة لكانت عالة على الريف . ولكن هذا كله لم يؤثر أثراً ظاهراً فى تخفيف ازدحام السكان فى الريف . وذلك لأن نمو الصناعة حقيقة يتطلب نمو السكان ، ولكنه لا يحتاج إلى كل هذا النمو الهائل . خصوصاً وقد أصبحنا فى زمن أخذت بهظم الأقطار تصنع سلعها بنفسها ، فكثر البائعون وقل المشترون . ولقد نما سكان اليابان نمواً يفوق حاجة الصناعة بمراحل

ولقد رأى كبار المصلحين وقادة الرأى فى اليابان المشكلة التى

تواجهها البلاد ، وأذركوا أن نمو السكان بهذا القدر الهائل قد نشأت عنه مشكلة عنيفة تحتاج إلى حل سريع . وفي أثناء الانتخابات عام ١٩٢٨ كان هذا هو موضوع المناظر الانتخابية في كل مكان ، وكذلك أقامت الحكومة لجنة لبحث الموضوع من جميع نواحيه

وفي بلد مثل اليابان ، يدين بعبادة النسل ، لابد أن يكون العلاج عسيراً جداً . ولكن اليابان بلد آخذ بأسباب الرقي ، له صلات بالمفكرين في أنحاء العالم . ولابد أن يكون كثير من أهله قد سمعوا باحتمال تحديد نمو السكان وما يجره هذا من الخير على البلاد . وقد وجد فعلا في اليابان من ينادى بهذه الدعاية جهاراً . ويجب علينا أن نقدر ما رزقه هؤلاء الأبطال من جرأة وإقدام حين ينادون بتحديد النسل في بلاد تعبد النسل . حقيقة أن هذه الصيحة لم تسمع إلا أخيراً ولكنها سمعت بقوة حتى وصلت في عام ١٩٢٩ إلى حظيرة البرلمان نفسه ! وبالطبع في هذه المحاولة الأولى — في بلاد عبادة الذرية — لم ينجح المشروع . ولكن حسب تلك البلاد فخراً أن أصبح الموضوع يتكلم فيه جهاراً ، وتتناوله الصحف والمجلات بالبحث والمناقشة . وفي أثناء هذا الجدل ظهرت النزعات المختلفة ، التي لابد من ظهورها عند ما يشتد الحوار بين الناس في موضوع كهذا الموضوع في بلد مثل اليابان . ففريق

يرى ضرورة تحديد النسل وهو يتألف من العلماء ورجال الاقتصاد وأيضاً — وهذا مهم جداً — من رؤساء نقابات العمال . وهذا الفريق ، الذى لابد أن ينتصر أخيراً — كان الأقلية . وهناك الفريق الذى يرى أن حيوية الأمة فى كثرة نسلها . وأن اليابان لابد أن تزداد حتى تصل سكانها إلى مائة مليون . وفريق يرى أن فى تحديد النمو إضعافاً للروح الوطنية (!) . ويزعم أن القول بتحديد السكان دسيسة روسية أو أمريكية . وفريق ، وهم رجال الدين — يزعمون أن تحديد النسل من الكبائر لأن للآباء الحق فى الخيرات الكثيرة التى يقوم بها الأحفاد . وهكذا لا يزال أكثر المتكلمين معارضاً لتحديد النسل . ويرون ضرورة البحث عن وسيلة أخرى لمعالجة المشكلة

والذى قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن فى وسع سكان اليابان أن تنفس عن نفسها بالمهاجرة ولأول وهلة يجد الإنسان أمام سكان اليابان مجالا واسعا للمهاجرة تحسد اليابان عليه . فنشوريا التى وقعت تحت نفوذ اليابان منذ زمن بعيد قليلة السكان بالنسبة لمساحتها . وبلاد كوريا قد تتسع لقليل من المهاجرين . بل وفى جزر اليابان نفسها نجد جزيرة يوزو الشمالية قليلة السكان بينما سواحل هندو غاصة بهم . وكذلك جزيرة فرموزا قد تقبل عدداً منهم

فالذى ينظر إلى هذه الحالة يتوقع بلا شك أن يهرع اليابانيون إلى هذه الجهات المختلفة فتمتلىء بهم سهول منشوريا وفرموزا وكوريا، ومنحدرات يزو. ولهذا نندش جداً حين نرى الياباني قد لزم بلده، ولم يهاجر منه برغم كل هذه المشوقات الظاهرة. فنشوريا التي كان لليابان فيها منذ ثلاثين عاماً الكلمة العليا. لم يهاجر إليها من اليابانيين سوى مائة ألف! وسكان كوريا الذين هم من أصل ياباني لا يتجاوزون $2\frac{1}{4}\%$ وفي فرموزا $4\frac{1}{2}\%$. وفوق هذا كله لا ينزح الياباني إلا بكل بطء حتى إلى جزيرة يزو التي تعد جزءاً من بلاده ووطنه. والحكومة تبذل مساعدات كبيرة للمهاجرين إلى هذه الجزيرة. والنجاح هنا على كل حال أكثر منه في أى بقعة أخرى. وهو نجاح يتناول بضعة آلاف من السكان في كل سنة، أى قطرة من بحر خضم...

وكذلك لم تكن الهجرة إلى أمريكا أمراً شائعاً للياباني حتى في العهد السابق، يوم لم يكن هنالك عوائق أو موانع أقامتها أمريكا دون مهاجرة الآسيويين. والياباني شديد السخط على حكومة الولايات المتحدة لتفضيلها الأوربيين على الآسيويين في المهاجرة. ولكنه في الوقت الذي كانت الأبواب فيه مفتحة على مصارعها لم ينتفع بالفرصة. فلم يهاجر من اليابان إلى أمريكا

أكثر من ١٤٠,٠٠٠ ؛ ولا يزيد عدد اليابانيين الذين يعيشون
في الخارج على ٦٠٠,٠٠٠

ينتشر الياباني من المهاجرة إلفه بلادته ذات الهواء البديع ،
والمناخ الدافئ اللطيف الذي قل أن يوجد له نظير في العالم . وقد
لزم هذه السواحل والأودية دهرًا لا يبرحها ، فتشرب روحها
وهواءها وشمسها ، ومنظرها الساحر ، واعتدالها الباهر . وهو يألم
أشد الألم لتركها أو الابتعاد عنها . وهو يحتقر الآسيويين من أهل
كوريا أو الصين أو منشوريا ، ولا يستطيع منافستهم في أعمالهم .
لأنهم أكثر منه رضى بالقليل ، وصبراً على مكاره العيش ، وهو
يرى نفسه فوقهم ، فلا يقنع بأجورهم وحياتهم وأعمالهم . ومثل هذه
الحال لا تساعد الياباني على المهاجرة اللهم إلا إذا كانت وظيفته
الإشراف أو الرقابة أو عملاً سامياً فوق مستوى أهل البلاد .
وليس هذا خلق المهاجر . وما هذه الحال بالتى تبعث على كثرة
المهاجرة ، أو تجعلها أمراً ممكنًا

لهذه الأسباب كلها لم ينترب الياباني ولم يقبل على المهاجرة ،
بالرغم من جميع المشوقات التى تبذلها الحكومة ، والدعاية الطويلة
العريضة التى تشترك فيها الحكومة والصحافة والمنابر والسينما ، ومهما
كان من أثر هذه الدعاية ، فانه سيكون بطيئاً على كل حال ،
وان يحل مشكلة السكان فى اليابان

الفصل الثالث عشر

مشكلة السطوة في مصر

بين أيدينا اليوم تقديرات لسكان مصر في مختلف العصور ؛ في زمن الفراعنة والبطالسة ، وفي العهد العربي . ولعل أكثر هذه التقديرات أدنى إلى الخطأ منها إلى الصواب . فبعضها كان مبنياً على الظن . والبعض على تقدير الخراج . وأحياناً يكون التقدير بحسب عدد الجنود المصرية (بافتراض نسبة خاصة بين عدد الجيش والسكان عموماً) . وأحياناً على ما تنتجه البلاد من القمح والغلات الأخرى . ومع أن هذه الأسس التي بنى عليها التقدير موضع لكثير من الشك ، وعرضة لمبالغة المؤرخين ؛ ورغم أن ما قد يبنى عليها من التقديرات لا يمكن الركون إليه بصفة قاطعة ، إذ من البديهي أن الذي يريد أن يقيس سكان مصر اليوم بعدد جنودها سيصل إلى نتيجة بعيدة كل البعد عن الحقيقة . ورغم هذا كله يحسن بنا أن نذكر هذه التقديرات على علاتها كتمهيد للكلام عن سكان مصر في الوقت الحاضر . ولأننا سنجد فيها برغم قصورها درساً

لا بد أن نتعلمه وحقيقة لا مندوحة لنا عن التسليم بها ، وهى أن
سكان مصر قد تقلبوا بين الزيادة والنقص فى أدوار خطيرة
لا نبالغ إذا عددناها منقطعة النظير بين أمم العالم
تكلم بعض الكتاب على حالة السكان فى زمن «الفراعنة»
على الإطلاق . ولكن عصر الفراعنة كلمة واسعة تشمل على نحو
ثلاثة آلاف من السنين . ولا شك فى أن سكان مصر قد تقلبوا
فى ذلك العهد تقلبات كثيرة بين الشدة والضعف ، وبين الرخاء
والسعادة ؛ وقد نقص عددهم من غير شك وزاد تبعاً لهذه الحال . فمن
أزمة الرخاء التى نستطيع أن نقرر أن عدد السكان فيها كان فاتحاً
للأزمة الأخرى عهد الأسرة الثانية عشرة ، وعهد الإمبراطورية ،
وعهد البطالسة . ويمكننا أيضاً أن نقرر أن زمن الفوضى الذى
جاء على أثر عهد بناء الأهرام ، وفى زمن الهكسوس ، والفرس ؛
قياساً على ما نعرفه فى أزمة الفوضى القريبة من عصرنا نستطيع
أن نقرر أن السكان قد نقصوا فيها نقصاً فاحشاً
وإذا طالعنا فى بعض المؤلفات تقديرًا لسكان مصر الفرعونية ،
فإن هذا يشير فى الغالب — بل على وجه التأكيد — إلى أزمة
الرخاء ؛ لأن هذه العهود هى التى لدينا عنها أخبار مفصلة يمكن
أن يبنى عليها تقدير للسكان
ولقد كان القيام بشئ يقرب من « التعداد » شائعاً عند

المصريين الفراعنة . لإحصاء ثروة البيت الحاكم ، وثروة السكهنة ورجال الدين خاصة والثروة العقارية عامة . حتى كانت سنة التعداد هذه هي التي يؤرخ بها فيقال حدث ذلك الحادث في التعداد الأول أو الثاني أو بعده بسنة . وهلم جرا .^(١) وليس من شك في أن تعداداً يشمل سائر القطر على هذه الصورة كان يصحبه تعداد — ولو تقريبي — للسكان ؛ وللأسف لم تصل إلينا نتيجة أحد هذه التعدادات في وثيقة ترجع إلى الزمن الفرعوني . وكل ما نستطيع أن نقطع به هو أن عدد سكان مصر كان معروفاً لحكام مصر في ذلك العهد

وقد أراد جومارد أن يقدر سكان مصر في زمن الفراعنة ، فأخذ يقارن بين ما تنتجه مصر من الغلات الزراعية (وعلى الأخص القمح) في عصره وبين ما كانت تغله البلاد من القمح في الزمن القديم . فتوصل بهذه المقارنة إلى أن سكان مصر في العهد المصري القديم كانوا من خمسة إلى ستة ملايين . . والأستاذ برستد الذي لا يجمد فضله كعالم بالتاريخ المصري يشير عرضاً في كتابه عن تاريخ مصر إلى أن سكان القطر المصري في آخر زمن الأباطورية حوالي سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد كان يتراوح عددهم بين ستة وثمانية

(١) راجع كتاب برستد في تاريخ مصر من ٤٤ و ١٦٥ ، ١٦٦

و ٤٩١ وما بعدها

ملايين ونصف : ويقول إن الرقم الأول هو الأرجح ^(١)

وقدر ديودور الصقلي سكان مصر بسبعة ملايين ؛ وهو بلا شك قد بنى تقديره هذا على معلومات استقاها أثناء زيارته لمصر من عام ٦٠ إلى ٥٧ قبل الميلاد . ^(٢) والمؤرخ اليهودي يوسيفوس ذكر في بعض مؤلفاته أن سكان مصر في عصره (منتصف القرن الأول بعد الميلاد) يقدرون بنحو ٧,٨٠٠,٠٠٠ نسمة . وكان في متناول كل من هذين الكاتبين مؤلفات قديمة عن تاريخ مصر ليس بين أيدينا منها شيء يستحق الذكر

هؤلاء الكتاب جميعاً قد ذكروا تقديرات متواضعة لسكان مصر . وهي أدنى إلى الصواب واقرب إلى العقل من تقديرات المسرفين الذين زعموا أن سكان مصر في العصور القديمة كانوا ثمانية وعشرين مليوناً أو أربعين مليوناً . ومع أنه ليس من الصعب أن نجد في بعض الأخبار القديمة ما قد يستند إليه في مثل هذا التقدير ، فإن تلك الأخبار من الطراز الذي تكثر فيه المبالغة ولا ينبغي الاعتماد عليها في تقدير السكان . والذين يقولون بأن سكان مصر في ذلك العهد بلغوا ذلك الرقم الضخم لم يفكروا

(١) راجع ص ٤٩١ وما بعدها من الكتاب المذكور (طبع لندن

سنة ١٩٢٠)

(٢) راجع الكتاب الأول من تاريخ ديودور (فصل ٢١) من ترجمة

الأستاذ وادل المنشورة في مجلة كلية الآداب

في مساحة الأراضي الزراعية وفي موارد الثروة التي لا بد منها لإطعام أربعين مليوناً من الناس في مساحة لا تتجاوز عشرة آلاف من الأميال المربعة. فتصبح كثافة السكان بنسبة عشرة آلاف للميل المربع في أرض تزرع في العام زراعة واحدة . . . فالرأى الذي ينجح إلى المحافظة في تقدير سكان مصر هو أدنى إلى الصواب . وكذلك نجد شيئاً من المبالغة في تقدير سكان مصر في العهد العربي . وهذا الاسراف يرجع إلى الغلو في تقدير خراج مصر أحياناً وإلى الخلط بين الجزية التي يدفعها الرجل البالغ من غير المسلمين ، وبين خراج الأرض الذي يجبي عن الأراضي الزراعية ، ومن أهم هذه التقديرات ما يروى من أن أحد حكام مصر في القرن الثاني للهجرة وهو الوليد بن رفاعة الفهمي طاف بآحاء مصر تسعة أشهر ومعه الكتاب والموظفون فأخذ يحصى سكان كل قرية . فبلغ عدد قرى مصر عشرة آلاف قرية لا يقل من بها من دافعي الجزية عن خمسمائة نفس . وبمقتضى هذا الخبر لا يمكن أن يقل سكان القطر عن ستة ملايين من الرجال البالغين من غير المسلمين — والمسلمون أقلية في ذلك الوقت ؛ وهذا معناه أن سكان القطر جميعاً من أربعة عشر إلى ثمانية عشر مليوناً . على أن هذا التقدير لا يخلو من المبالغة . فإن هنالك روايات أخرى بأن الجزية لم تكن تتجاوز ثمانية ملايين من الدنانير

(أى أن دافعيها لا يتجاوزون أربعة ملايين من السكان) وفي رواية العقوبى أنها في عام ٦٧٠ ميلادية لم تتجاوز الخمسة الملايين من الدنانير (ودافعوها مليونان ونصف مليون من الناس). فهذا التناقض الكثير في هذه التقديرات المختلفة يجعل من الصعب الوصول إلى رأى قاطع عن سكان مصر في صدر الإسلام أو في الأزمنة التي بعده، والراجح أن انفتح العربى لم يؤخر شيئاً في رخاء مصر، وأن عدد السكان قد زاد زيادة مطردة من عهد البطالسة إلى عهد الرومان إلى العصر العربى، الذى يجوز بل يرجح أن السكان فيه تجاوزوا العشرة الملايين

وهذا النمو المطرد في عدد السكان في عصر العرب لم يكن بدرجة واحدة في الأزمنة المختلفة التي جاءت بعده. ولكن من الراجح أنه كان هنالك تقدم محسوس في عدد السكان في العصور الوسطى، في الوقت الذى كانت مصر فيه واسطة المتاجرة بين بلاد الشرق والغرب

وكذلك ليس هنالك محل للشك في أن مصر بعد القرن الخامس عشر قد أخذت في التدهور تدريجياً، وأخذ سكانها يتناقص عددهم تناقصاً هائلاً. وقد اتفق عهد التدهور هذا مع عهد الحكم التركى، وفقدان تلك الموارد التجارية، بحيث أخذ عدد سكان مصر ينقص بين سنة ١٥١٧ وسنة ١٨٠٠ حتى وصل

إلى الرقم الذى قدره جومارد بمليونين ونصف مليون فى أول القرن التاسع عشر

هذا التقلب الهائل فى حالة مصر ، من حيث عدد السكان ظاهرة قل أن يوجد لها نظير فى العالم . فالمعقول فى حالة كل دولة أن يكون عدد سكانها قليلا ، ثم يأخذ فى الزيادة تدريجياً . أما أن يزداد عدد سكان قطر من الأقطار حتى يتجاوز العشرة الملايين ، ثم ينقص بعد ذلك إلى أقل من ثلاثة . فحالة شاذة تحتاج إلى تفسير

وتفسيرها بالطبع أن مصر بلد زراعى يعتمد فى زراعته على الرى . وقوام هذا الرى المشروعات العظيمة التى تمتد من أول القطر إلى آخره ، والتى تحتاج أبداً إلى عناية مستمرة ، وسهر دائم . ولا بد لضمان نظام الرى ، أو نظام حياة السكان من قيام حكومة قوية تعنى بشئون البلاد وتعطف على سكانها . فإذا ضعفت الحكومة المركزية أو ساءت اختل نظام الحياة فى القطر كله . ويوشك ألا يكون فى العالم كله قطر تضره الحكومة الفاسدة ، وترقى به الحكومة الصالحة ، كالقطر المصرى . وهذه الحال ليس لها نظير اللهم إلا فى سهول دجلة والفرات . أما الأقطار التى يروىها المطر ، فمن الممكن أن يدوم لها رخاؤها الزراعى رغم ضعف الحكومة المركزية ، كما هى الحال مثلاً فى الصين

ننتقل بعد هذا إلى العصور الحديثة ، التي لدينا عنها معلومات أدق وأوثق . وأول تقدير حديث لسكان مصر هو تقدير جومارد ، أحد علماء البعثة الفرنسية التي صاحبت نابليون إلى مصر . وقد قدر هذا الباحث سكان مصر بمليونين ونصف مليون في أول القرن التاسع عشر . وقبل أن ننقد تقدير جومارد هذا ، يجب علينا أن نذكر بانير ذلك الرجل الذي قام بهذا العمل الخطير بمفرده ، وبطريقة ابتدعها ، ونفذها بدقة تستحق الإعجاب

رأى جومارد أنه يستحيل عليه أن يقوم باحصاء لسكان جميع القرى والمدن في القطر كله . فقرر أن يختار ناحية بالذات من نواحي القطر ويحصى عدد السكان فيها ثم يستدل بها على سكان القطر كله قياساً على عدد السكان في البقعة التي اختارها . وهذه الطريقة يتوقف نجاحها على أمر له شيء كثير من الأهمية وهو اختيار جهة تمثل القطر كله . وقد هداه تفكيره إلى أن مديرية المنيا تمثل حالة وسطاً بين الجهات الشديدة الازدحام والجهات القليلة السكان . بحيث تصاح لأن تكون مثالا يقاس عليه سكان القطر كله . والذي يبدو لنا الآن أن اختيار المسيو جومارد هذا كان اختياراً موفقاً جداً . بالقياس إلى ما نشاهده في الوقت الحاضر . فإن كثافة السكان في القطر المصري كله في الوقت الحاضر هي نحو ٤٠٣- للكيلو متر المربع والمديرية التي تقرب من

هذا هي الدقهلية (٤٠٨) ثم المنيا (٤١٣) أما بقية المديريات فتختلف عن هذا اختلافاً كثيراً سواء من ناحية القلة أو الكثرة . فتوسط كثافة السكان في الشرقية مثلاً ٢٠٣ وفي المنوفية ٦٨٦ . وعلى افتراض أن نمو السكان في جميع أنحاء القطر كان متساوياً ومطرداً ، فلا بأس أن تكون مديرية المنيا مقياساً لتقدير السكان في القطر كله . ولهذا لا بد لنا من الاعتراف بأن اختيار جومارد لمديرية المنيا كان اختياراً موفقاً

وكانت طريقته في إحصاء سكان المنيا أن يطوف بكل قرية ويسأل أهلها أو الأذكياء منهم عن عدد السكان ؛ وفي حالة الشك كان يتأكد بنفسه فيقوم بإحصاء كل منزل . وهو يخبرنا أنه واثق من أن أرقامه قريبة من الصواب ؛ وإن يكن من شيء ، فإنها أقل وليست أكثر من الحقيقة

غير أن الخطر في تقديرات جومارد هذه أن الغلطة الصغيرة في تقدير سكان المديرية تتضاعف عدة مرار عند اتخاذها أساساً لتقدير سكان القطر . على كل حال إن ما قام به جومارد هو أقصى ما يستطيع عمله في زمنه بواسطة شخص واحد . وقد استطاع أن يقدر سكان الريف بنحو ٢,٠٧٦,٠٠٠ نسمة فإذا أضيف إلى هذا الرقم سكان القاهرة الذين قدرهم بنحو ٢٧٠,٠٠٠ نسمة وسكان الإسكندرية وقدرهم بنحو ١٥٥,٠٠٠ نسمة . والتقدير في كلا

الحالين لا يمكن أن يكون بعيداً عن الصواب بعداً عظيماً ، فأصبح سكان القطر كله حسب تقدير جومارد مليونين ونصف مليون من الأنفس

والراجع أن تقدير جومارد أقل نوعاً من الواقع ؛ وقد يكون دون الحقيقة بنحو نصف مليون من الأنفس . برغم أنه يطابق التقدير الذى عمل فى عصر محمد على سنة ١٨٢١ وكان أساسه إحصاء المنازل ؛ وتقدير السكان تبعاً لعدد المنازل . فقد كان من نتائجه أن سكان مصر فى تلك السنة يبلغون ٢,٥٤٠,٠٠٠ نسمة . وقد عمل إحصاء آخر فى عام ١٨٤٦ بالطريقة نفسها ، وكانت نتيجةه أن السكان بلغوا ٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة وليس بمستحيل أن يتضاعف عدد السكان فى بلد من البلاد فى بحر عشرين عاماً . ولكنه أمر نادر الحدوث جداً ، خصوصاً فى بلد ليست حالتها الصحية فى مستوى عال كمصر . والأقرب إلى المعقول أن يكون التقدير الأول دون الحقيقة نوعاً والأخير فوق الحقيقة قليلاً

وفى الشطر الأخير من عهد اسماعيل كان سكان مصر نحو ستة ملايين من الأنفس . ومن بعد ذلك بدأ عهد التعدادات الرسمية ، وفى عام ١٨٨٢ عمل أول تعداد حديث ؛ فدل على أن سكان مصر قد بلغوا ٦,٨٢٩,٦٠٠ نسمة ؛ وهذا التعداد الأول لم يكن بالطبع دقيقاً الدقة الكافية فقد عمل على عجل ، والبلاد فى حالة

اضطراب شديد والنظام غير مستتب . ولهذا يرى الأستاذ كريج
أن هذا التقدير كان دون الواقع . ومنذ سنة ١٨٩٧ كان التعداد
يعمل بدقة ونظام مرة في كل عشر سنوات والجدول الآتي يرينا
نتيجة هذه التعدادات جميعاً

السنة	السكان
١٨٨٢	٦,٨٢٩,٦٠٠
١٨٩٧	٩,٧١٤,٥٢٥
١٩٠٧	١١,٢٨٧,٣٥٠
١٩١٧	١٢,٧٥٠,٩١٨
١٩٢٧	١٤,١٧٧,٨٦٤
١٩٣٤ تقدير	١٥,٦٢٦,٠٠٠

وهكذا نرى كيف نما عدد السكان في مصر نمواً رائعاً في
العهد الحديث . وليس من شك في أن هذا النمو حقيقي ، مهما
قل طعننا في التقديرات الأولى . فما لا يقبل الجدل أن هذا النمو
كان مطرداً مستمراً منذ أوائل القرن التاسع عشر . فلا يقلل من
صحة هذه الظاهرة ما قد يقال من أن تقديرات جومارد خاطئة
أو أن الأرقام التي ترجع إلى عهد محمد علي لا تعبر عن الحقيقة .
فإن تلك التقديرات وإن لم يكن لها من الصحة مثل ما للتعدادات
التي عملت فيما بعد ، فإنها ليست من عدم الدقة بحيث لا يقام

لها وزن . وإذا كان عدد السكان قد نما بين عام ١٨٨٢ و ١٩٢٧ إلى نحو الضعف . فليس بمستغرب أن يكون قد نما مثل هذا النمو في المدة السابقة لتلك الفترة

وهذا النمو في العدد هو بالطبع مما يغتبط له قلب المصري الذي يسره بلا شك أن يكون عدد مواطنيه بضعة عشر مليوناً بدلاً من أن يكونوا بضعة ملايين . فما يزال الناس إلى يومنا هذا تروعهام المقادير الجسيمة ، والأعداد الضخمة . وهذا شعور بشري طبيعي . ألم يفخر الشاعر العربي بأن قومه لهم عديد الحصى ؟ ولم يقف هذا الشاعر برهة ليسأل نفسه ما قيمة عديد الحصى هذا إن لم يكن لقومه من الشأن أكثر مما للحصى وكذلك لا يزال في مصر أفراد يفخرون بأن في مصر خمسة عشر مليوناً من الأنفس دون أن يسألوا أنفسهم ما قيمة هذا العدد الهائل إذا كان جله رهين الفاقة والذل والأمراض ؟ إذا جاز للعامة ولندوى التفكير السطحي أن يعجبوا بهذا النمو الهائل ، فالأجدر بالمفكرين أن يسألوا ويلجوا في السؤال ، عما إذا كان هذا النمو قد صحبه تحسّن في معيشة الناس ، وهل المصريون اليوم عامة أرغد عيشاً مما كانوا في الأزمنة السالفة . و بوجه عام يجب أن يبحث قادة الرأي في مصر عما إذا كانت مساكن المصريين وما كلهم ومشاربهم وحالتهم الصحية وثقافتهم مما يجعلنا نفخر باتماننا لهذا الشعب ...

من الممكن جداً أن فريقاً من المصريين قد تحسنت حالهم كثيراً وازدادت ثروتهم في الأزمنة الأخيرة . وهؤلاء عادة من سكان المدن ومن التجار ورجال المال وكبار أصحاب المناصب . وهؤلاء بلا شك مستوى حياتهم عال جداً حتى لو قيسوا إلى نظرائهم في الممالك الأخرى . ولكن هؤلاء عددهم قليل جداً بالنسبة لسائر السكان ، والمهم دراسة حياة هؤلاء وعلى الأخص سكان الريف ، في قطر عماد الثروة والحياة فيه الثروة الزراعية . والمصريون المثقفون ينقسمون من حيث علاقتهم بسكان الريف خاصة والفقراء عامة إلى قسمين : قسم يجهل حالة سكان القرى جهلاً تاماً ؛ وكذلك لا يدري عن حالة العامل المصري في المدن سوى الشيء القليل . فإذا بلغ سمعه بمحض الصدفة بعض أنباء عما يعانيه أولئك وهؤلاء دهش لهذه الأنباء وظنها من قبيل الغلو والإسراف . وهذا الفريق يقضى حياته في جهل تام بحالة سكان مصر ، ويبدو في حركاته وسكناته وكأن ليس بينه وبينهم صلة ولا رابطة ، وهنالك الفريق الثاني من المصريين المثقفين المضطربين بحكم « وظيفتهم » إلى الاتصال بأهل الريف من أطباء ؛ يعملون في المستشفيات ، أو مهندسين ، أو رجال الزراعة أو الإدارة ، وهؤلاء جميعاً في الغالب سرعان ما يعتادون الحالة الفظيعة التي يتصلون بها أو يعيشون بالقرب منها . وكأن أكثرهم يرى أن

هذه الحالة أمر لا مندوحة عنه . أو أن إصلاحها ليس من شأنه وأن ليس عليه سوى واجباته الملقاة رسمياً على عاتقه . فكثير من الأطباء الذين يعملون في مستشفيات الريف قد شاهد بعينه منظر الفاقة البشع يطالعه في كل نهار وفي كل ساعة من النهار . ورأى بنفسه المهزلة الأليمة التي يُراد بها علاج قوم مرضهم الحقيقي هو الفقر المدقع ؛ ورأى كيف يطلب منه أن يشترك في تلك المهزلة بأن يصرف الأدوية والعقاقير لمن يجب أن يكون علاجهم الأول هو الطعام والشراب والمسكن الطاهر . . .

إن عامة هؤلاء المثقفين الذين يضطرون بحكم عملهم إلى الاتصال بالريف ليسوا من الهمة بحيث يستطيعون أن ينظروا في احتمال إصلاح هذه الحال ، وأكثرهم لا يعنيه إلا أن يبذل جهده لكي يرجع بأسرع ما يمكن إلى المدن وإلى العواصم . . . ولكن لا يخلو الأمر من وجود عدد قد لا يكون صغيراً بين هؤلاء المثقفين قد آلمه ما يشاهده من مناظر الفاقة والشقاء ؛ ولا تعوزه الرغبة في الإصلاح ، وهؤلاء لا ينقصهم سوى أن يدرسوا الحالة دراسة عميقة ، ثم يسعوا إلى إصلاحها سواء أكان هذا الإصلاح مما يدخل في عملهم العادي أو كان خارجاً عنه ، فما يكفي للنهوض ببلد أن يقصر أبناؤه نشاطهم على الواجبات التي يؤجرون من أجلها بل يجب أن يكون هنالك أعمال

أخرى يقومون بها بغية الإصلاح ، لا يجنون من أجلها فائدة مادية مباشرة ، بل فائدة أدبية هائلة ، وهى محاولة رفع العار المحيق بنا جميعاً وهو أننا أبناء أمة تعيش فى شقاء مدقع . . . ولن يتسع المجال هنا لدراسة تفصيلية لحالة السكان فى مصر ، ولكننا سنجمل الكلام على النواحي المختلفة التى يجب أن تتجه إليها أنظار الباحثين والمصلحين

كثافة السكان :

ليس نمو السكان فى مصر راجعاً إلى مهاجرة الناس إليها . بالرغم مما هو ظاهر من وفود كثير من الأفراد الصالحين وغير الصالحين من مختلف الأقطار . وإذا كان عدد سكان مصر حسب تعداد عام ١٩٢٧ يزيد على الأربعة عشر مليوناً ، فإن غير المصريين منهم لا يتجاوزون ربع المليون . منهم نحو مائة ألف بالأسكندرية وحدها و ٧٦,٠٠٠ بالقاهرة . حقيقة إن الذين أطلق عليهم فى ذلك التعداد اسم مصريين يشتملون على كثير من الذين قد اتخذوا الجنسية المصرية حديثاً لأسباب خاصة . ولا تعطفهم على مصر عاطفة ، والكثرة العظمى منهم حرب على مصر ووبال على المصريين ، كما يرى ذلك فى وضوح من يطلع على تقارير البوليس ومكتب الخدشات . ومن الأسف أن فى نظام

التعداد في مصر نقصاً خطيراً يجب الالتفات إليه وهو أنه لا يفرق بين المصريين الذين ولدوا مصريين والذين اعتنقوا الجنسية المصرية

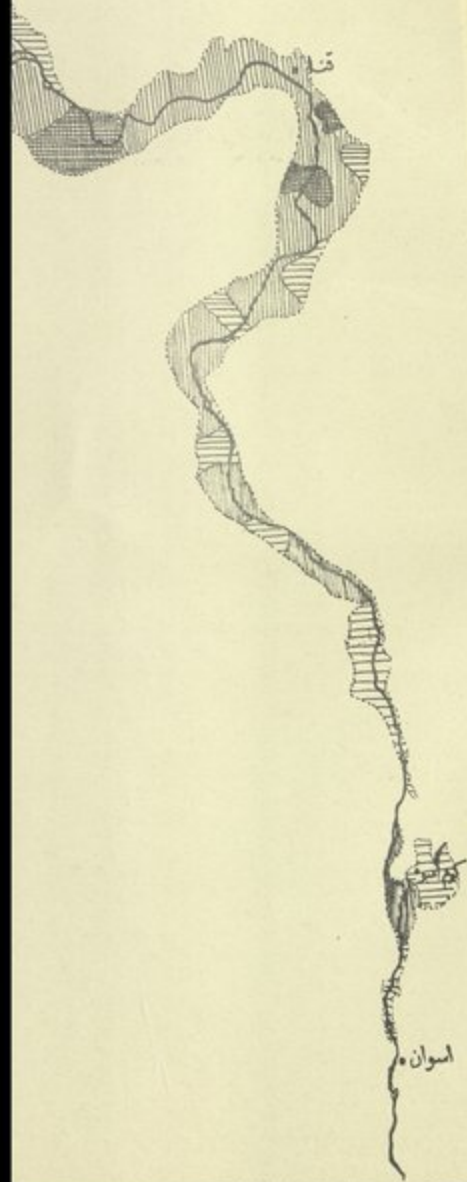
وهناك أمر آخر يجب التنبه له ، وهو أن هؤلاء الأجانب الذين لا يزيدون على ربع المليون ، لهم من الخطر في حياة مصر الاقتصادية مكان أكبر بكثير من مجرد عددهم . فإن حالتهم الاجتماعية ونفوذهم في الميدان التجارى والصناعى والمالى . كل هذا يجعل مجرد العدد غير معبر عن حقيقة مركزهم في البلاد

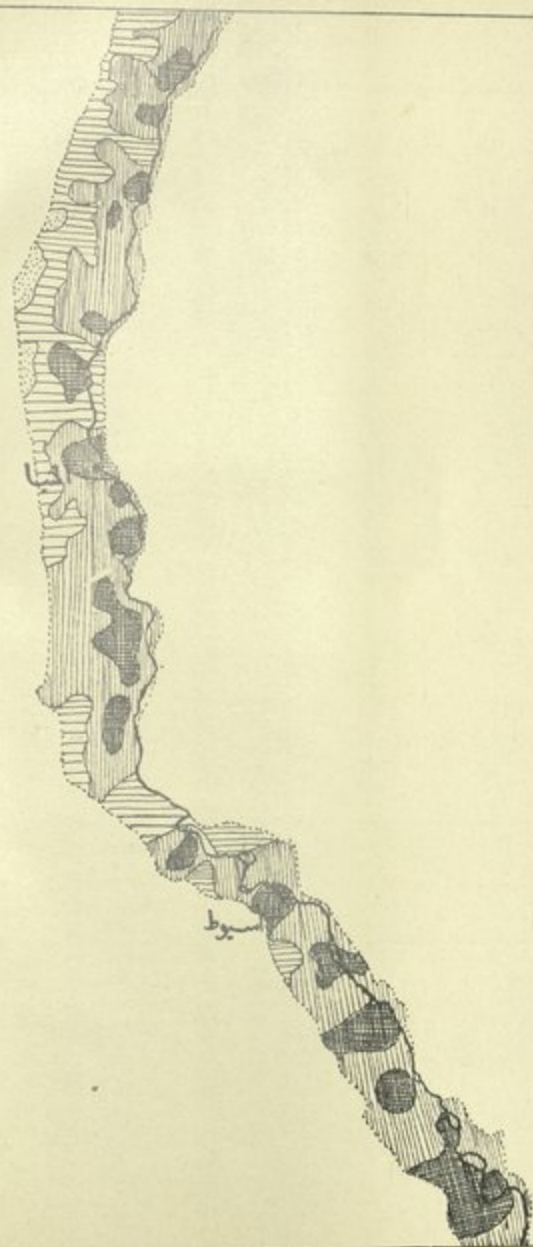
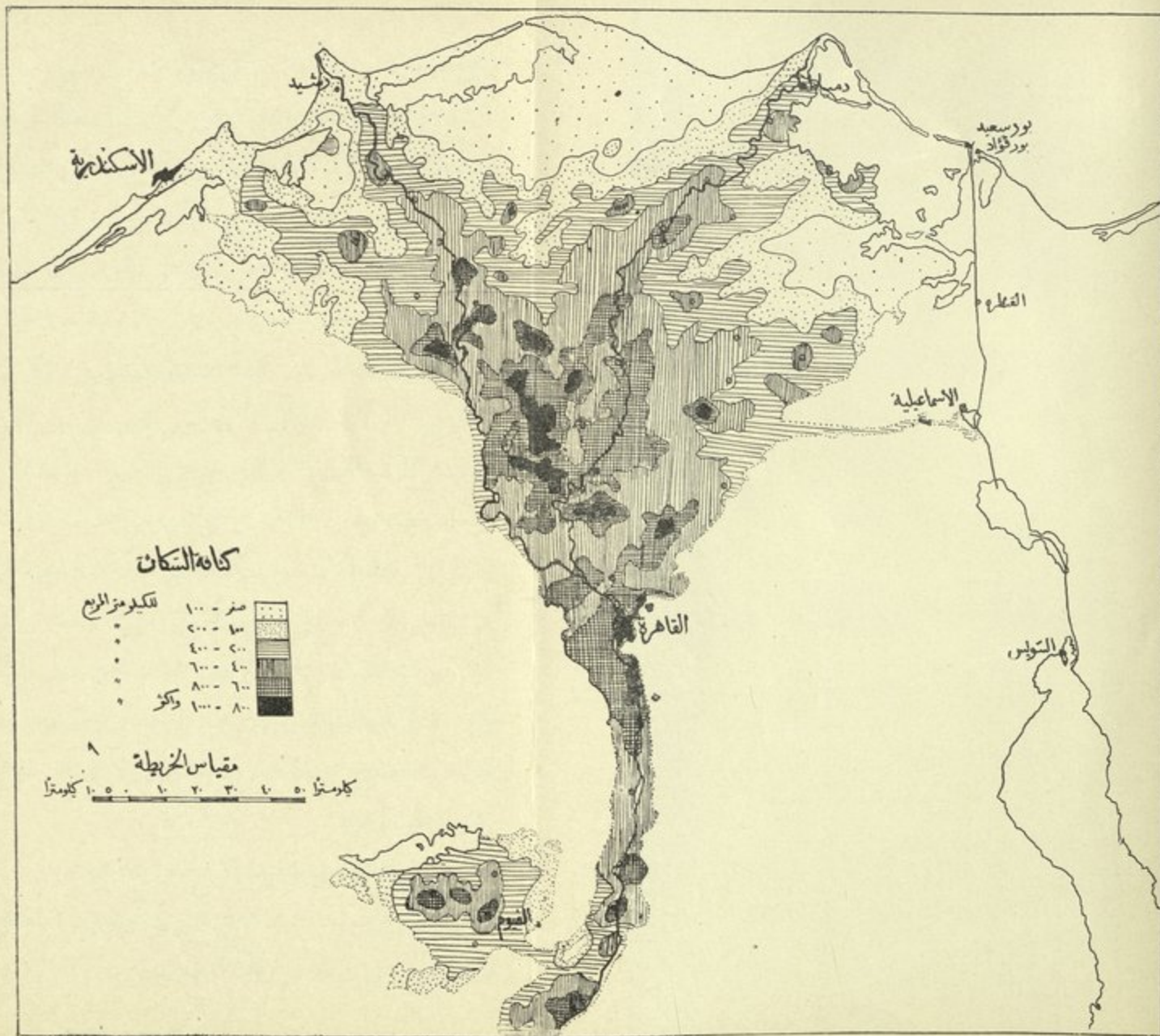
على كل حال إن مصر ليست بلداً يهاجر إليه كثيراً . فإن فرص العمل فيها — وعلى الأخص في الوقت الحاضر — لا ترغب الأجنبي في العمل بها حيث يستطيع المصرى بأجره الزهيد وجلده على العمل أن يتغلب على الأجنبي من غير مشقة في ميدان المنافسة . فازدياد سكان مصر في العهد الأخير هو زيادة طبيعية . وهذه الملايين الأربعة عشر تعيش في واد مساحته تقرب من ٣٥٠٠٠ كيلومتر مربع . فمتوسط كثافة السكان إذن يبلغ نحو ٤٠٣^(١) للكيلومتر المربع (فوق الألف للميل المربع) . وهذه الكثافة بالطبع تفوق كثافة السكان في أية مملكة أوربية .

(١) المعتمد عليه هنا دائماً هو تعداد سنة ١٩٢٧ لأن التقديرات السنوية التى جاءت بعد ذلك لا يمكن الركون إليها لأنها أقل دقة

حتى انكثرة أو بلجيكا . ولكن ليس هذا كل شيء . بل المهم أن نذكر أن الازدحام هنا في أرض زراعية ؛ وهناك في أقطار صناعية . وقد سبق لنا أن ذكرنا الفرق الهائل بين هذين الاعتبارين وليس توزيع السكان في مصر مطرداً ، بل نرى اختلافاً واضحاً بين نواحي القطر . كما هو ظاهر من خريطة التوزيع المدرجة هنا . وأشد الجهات ازدحاماً هو مديرية المنوفية حيث نجد أن متوسط الكثافة نحو ٦٨٦ نفساً للكيلومتر المربع ، وهي نسبة لا نجد لها نظيراً في قطر زراعي في العالم اللهم إلا بعض الجهات الشديدة الازدحام في الصين وفي حوض الكنجج . وأشد الجهات ازدحاماً بعد مديرية المنوفية هي التي تليها من الغربية شمالاً مثل إقليم زفتى والسنبطة ثم تقل الكثافة تدريجياً كلما اتجهنا شمالاً حتى نصل إلى سواحل البحر الأبيض حيث السكان قليلون جداً . وذلك بسبب رداءة الأراضي الواقعة في شمال الدلتا ، ولأن كثيراً منها منخفض عن سطح البحر أو أن ارتفاعه قليل جداً بحيث تصبح عملية الصرف مستحيلة إلا بوسائل خاصة كالتي اتبعت أخيراً

ومديرية القليوبية شديدة الازدحام أيضاً بحيث تجيء بعد المنوفية مباشرة بمتوسط قدره ٥٨٦ نفس للكيلومتر . والجهات القريبة من النيل في باقي مديريات الوجه البحري أكثر ازدحاماً





من الجهات البعيدة عنه . ولا حاجة بنا إلى الإسهاب في شرح هذه الظاهرة فهي واضحة كل الوضوح من الخريطة . وفي الوجه القبلي نرى السكان موزعين بشيء كثير من النظام والاطراد من الجيزة إلى أسوان ، وإن كانت الكثافة في أسوان وفي بعض نواحي القيوم أقل تبعاً لطبيعة التربة . والأراضي البعيدة عن النيل التي تروى بالحياض هي بالطبع أقل كثافة من الجهات القريبة من النيل

درجۃ نمو السكان :

نمو السكان في مصر ، إذن نمو طبيعي ؛ أى نتيجة زيادة المواليد على الوفيات . وبالرغم من أننا أشرنا إلى هذه الظاهرة إشارة مقتضبة من قبل فن الواجب أن نفردها الآن ذكرًا خاصاً . إن عدد المواليد في مصر يزيد على جميع بلاد العالم ، إذا استثنينا بعض جهات صغيرة مثل فلسطين . ومصر لا تمتاز على سائر بلاد العالم بكثرة المواليد فقط بل بكثرة الوفيات أيضاً . فليس في العالم كله قطر يموت سكانه بالكثرة التي يموت بها سكان مصر . ولا يكاد يستثنى من هذه القاعدة قطر واحد ، حتى ولا الهند البريطانية . وهذه الأرقام المأخوذة من تقرير مصلحة الصحة المنشور في أوائل العام الماضى ترينا هذه الحالة بوضوح ؛ والأرقام هي بالنسبة لكل ألف من السكان :

السنة	عدد المواليد	عدد الوفيات	الزيادة الطبيعية
١٩٢٠ — ١٩١٦	٤٠	٣١,٧	٨,٣
١٩٢١ — ١٩٢٥	٤٢,٩	٢٥,٣	١٧,٦
١٩٢٦	٤٣,٢	٢٦,٢	١٧,٠
١٩٢٧	٤٤,٠	٢٥,٢	١٨,٨
١٩٢٨	٤٣,٣	٢٦,٢	١٧,١
١٩٢٩	٤٣,٧	٢٧,٣	١٦,٠
١٩٣٠	٤٤,٦	٢٤,٤	٢٠,٢
١٩٣١	٤٣,٢	٢٥,٩	١٨,٣
١٩٣٢	٤١,١	٢٧,٦	١٣,٥

وهذه الأرقام ترينا بوضوح أن ليس هنالك نقص محسوس في عدد المواليد ، ولا تحسن ظاهر في الصحة العامة يؤدي إلى نقص الوفيات . بالرغم من الأموال الهائلة التي تنفق في مصر من أجل تحسين الصحة العامة . وبالرغم من المشاريع الكثيرة التي تنفذ في كل حين

ولابد للمصري الذي يهيمه أمر وطنه أن يقارن بين عدد الوفيات في مصر وبين البلاد التي لاتنكب في سكانها بهذه الدرجة الفظيعة . فإذا كانت الوفيات في مصر تتراوح بين ٢٥ و ٣٠ في الألف ، فإنها في زيلنده الجديدة — أسعد جهات العالم من هذه الناحية — لا تكاد تتجاوز ثمانية في الألف ^(١) وفي هولنده

(١) راجع الكتاب الاحصائي الذي تصدره عصبة الأمم

لا تتجاوز تسعة في الألف ، وكذلك الحال في أستراليا وكثير من الكتاب الذين لم يهتموا بفحص الوثائق الرسمية في هذا الموضوع يتوهمون أن هذه الظاهرة الفظيعة ترجع إلى كثرة وفيات الأطفال . وهذا الزعم خطأ محض . حقيقة أن وفيات الأطفال في مصر بنسبة عالية . ولكنها ليست هي السبب في الظاهرة التي نشكو منها وهي كثرة الوفيات عامة : وليست مصر في طليعة الأمم من حيث كثرة وفيات الأطفال كما يظهر من الجدول الآتي لسنة ١٩٣١

الدولة	وفيات الأطفال لكل ألف طفل يولد	الوفيات بالنسبة لكل ألف من السكان
مصر	١٦٠	٢٥,٩
ش. لي	٢٣٢	٢٢,٠
بلاد المغرب	١٦٢	١٦,٦
رومانيا	١٨٠	٢٠,٨
يوغوسلافيا	١٦٥	١٩,٨

فهذه أقطار وفيات السكان فيها أقل من مصر ، ومع ذلك فنسبة الأطفال فيها أعلى بكثير منه في مصر . والطفل الوارد ذكره في هذه الاحصاءات هو دائماً الذي لا تزيد سنه على العام . والنسبة في وفاته أقل على كل حال من النسبة في الذين تجاوزوا هذه السن ، ويظهر أن الطفل المصري في السنة الأولى ، برغم

رداءة الحالة الصحية عامة كثير المقاومة ، مما يدل على قوة العنصر . وأن التغذية التي يتناولها في سنه الأولى — أى لبن الأم — هى تغذية لا بأس بها . فمن الجائز أن يقال عن بلاد شيلي ورومانيا إن ازدياد الوفيات فيها يرجع إلى كثرة وفيات الأطفال — فى العام الأول . أما فى مصر فإن كثرة الوفيات يرجع معظمها إلى ما بعد تلك السن . أى إلى السن التى لا يكتفى فيها الطفل بلبن الأم بل يتطلب غذاء آخر يتزايد تدريجياً كلما تقدم فى السن . أى أن كثرة الوفيات ترجع من غير شك إلى الفقر المنتشر ، الذى بات من مظاهره أن يحرم القوت الضرورى الكثيرة العظمى من سكان البلاد أطفالا كانوا أو بالغين كما شهد بذلك النائب الانكليزى رايز ديفس بأن الفقراء فى مصر يعيشون فى مستوى لم يرأذى منه فى أى بلد آخر^(١) وكما يستطيع أن يشهد بذلك كثير من المصريين الذين راقبوا « حياة » الطبقات الفقيرة عن كثب . وليس القطر المصرى بلداً كثير الأمراض رغم وقوعه على حافة المنطقة الحارة . وليس به من الأمراض المتوطنة سوى البلهارسيا والانكلوستوما وكلاهما ليس خطراً على الحياة . بخلاف الهند البريطانية فإن فيها من الأمراض المتوطنة

(١) راجع الأهرام بتاريخ ١٩ مارس سنة ١٩٣٤ . وقد رجع النائب عن بعض أقواله بعد مؤاخذه عليها

الملاريا والهواء الأصفر ، وأنواع أخرى من الحمى . مع تعرضها لخطر
المجاعات في كل بضعة سنوات . ومع هذا كله فإن وفاة السكان
في الهند نسبتها — بوجه عام — أقل نوعاً مما هي في مصر .
ففقر السكان قد كان له من الأثر في الوفيات أكثر مما للأمراض
الوبائية . والمجاعات المتكررة . وليس من شك في أن الإسراف
في المواليد يسبب زيادة الوفيات ، فإن الأم إذا « رزقت » طفلاً
جديداً ، والأول ما يرح وليداً يحبب فانها مضطرة إلى إهماله بحكم
ما تتطلبه الولادة من الانقطاع للجنين ، وتعطيل نشاطها زمنياً
يقصر أو يطول حسب قوة الأم وضعفها . وكل طفل جديد
يسبب إهمالاً جديداً للأطفال السابقين ؛ وتوزيعاً لا يتباه الأم
وعنايتها ؛ ومتى كثر عدد هؤلاء مع قلة موارد الرزق ، فإنهم
جميعاً ينشأون وسط الحرمان والفاقة . ويقضى أكثرهم نحبه
لا في المهد كما قد يظن ، بل بعد أن يعيش في هذا الكفاح الشديد
عدداً من السنين ، ثم يموت قبل أن ينتفع أبواه أو بلده بمجهده
وعمله . ومن الواضح أنه إذا كان مصير هؤلاء الأطفال إلى الموت
تخيراً للآباء أن يتوفى أبناؤهم وهم في عامهم الأول . لكن الحال
في مصر ليست كذلك . بل الكثير من الأطفال ينمو ويتقدم
في السن ثم تدركه الوفاة قبل أن يصل إلى سن العمل المثمر .
وقد كان من نتيجة الوفاة العاجلة للكثرة العظمى من سكان

مصر أن متوسط عمر المصريين قليل جداً . وقد قدر الأستاذان
 البرويش وعزمى أن متوسط طول العمر في مصر لا يتجاوز ٢٧
 عاماً للأناث و ٢٤ عاماً للذكور . وإذا افترضنا أن السن التي يبدأ
 عندها الفرد أن يعمل عملاً مجدياً لبيئته ووطنه هي السن الثامنة عشرة
 فإن المصريين العاملين لا يعطون وطنهم من الجهود سوى ستة
 أعوام في المتوسط . وإذا قارنا هذه الحال بما نصادفه في بلاد
 مثل إيطاليا (حيث متوسط العمر ٤٩ عاماً) أو فرنسا (ومتوسط
 العمر بها ٥٢ عاماً) وانكلترة وألمانيا (حيث المتوسط حوالى
 ٥٥ عاماً) . يبدو لنا جلياً أن تلك الأقطار تنتفع بحياة أبنائها
 أضعاف ما تنتفع بها نحن في بلادنا . بقطع النظر عن أن سكان
 تلك البلاد في كثير من الأحيان يؤدي فيها كل من الرجال
 والنساء عملاً إنتاجياً . بينما في مصر لا يقوم النساء إلا بعمل قليل .
 فنحن في مصر ننفق الجهود الكثيرة — مهما كانت قاصرة —
 في تعهد أبنائنا وتنشئتهم في مدى ثمانية عشر ربيعاً . ثم نفوز منهم
 بعد ذلك وفي مقابل كل هذا العناء والتعب بستة أعوام من الجهد
 المثر بينا في فرنسا مثلاً يتعهدون الأبناء في مدى ثمانية عشر عاماً ثم
 يفوز بلدهم منهم بعد ذلك بستة وثلاثين عاماً من الجهد المثر الناضج
 فإذا كان الشطر الإنتاجي للحياة هناك يعادل ستة أمثال نظيره في
 مصر ، فمن العبث أن نقارن بين عدد السكان هنا وهناك وأن
 نجعل النفس هنا في مقابل النفس هناك . فإن حياة خمسة ملايين

من سكان فرنسا أجدى وأنفع من حياة خمسة عشر مليوناً من
سكان هذا القطر

أعمال السطاح في مصر

من المهم الآن أن ننظر في الأعمال التي يقوم بها سكان هذا
القطر لكي يستطيعوا أن يعيشوا بعددهم العظيم في مساحته
الضئيلة . فإذا رجعنا إلى تعداد عام ١٩٢٧ نرى المصريين الذين
يقومون بعمل منتج يبلغون نحو ٥,٩٠٠,٠٠٠ نسمة . ويبقى
لدينا بعد هذا زهاء مليونين من الأطفال الذين لم يتجاوزوا الخامسة
ونحو ستة ملايين ، أكثرهم بلا شك من الإناث ، ممن لا يعملون
عملاً . والأطفال منهم لا يذهبون إلى مدرسة أو كتاب . وهنا
نرى فرقاً آخر واضحاً بين الحالة في مصر وفي غيرها من الأقطار
المتقدمة . وذلك أن الإناث يقمن عادة بعمل من الأعمال . وعلى
الأخص قبل الزواج . ومعنى هذا أن الجزء العاقل من السكان
أقل بكثير في تلك الأقطار منه في مصر

ولنعد إلى هذه الخمسة ملايين وتسعة آلاف نسمة فإننا نراهم
مقسمين على الصورة الآتية : وسنحتفظ في الجدول الآتي
باصطلاحات التعداد :

٣,٥٠٠,٠٠٠

المشتغلون باستثمار اليابسة والماء

٥٠٠,٠٠٠	الصناعات التحويلية
٢٠٠,٠٠٠	النقل
٥٠٠,٠٠٠	التجارة
٣٠٠,٠٠٠	الخدمة العامة والخدمات الحرة
٢٠٠,٠٠٠	خدمة الأشخاص
٥٠٠,٠٠٠	التلمذة

وهناك أعمال أخرى ليست بذات أهمية تضرب عن ذكرها صفحا . ويمكن الرجوع إلى التعداد نفسه للوصول إلى بيانات أدق لأننا اكتفينا هنا بتبسيط الأرقام . وخلاصة ما تنطوى عليه هذه البيانات أن الكثرة العظمى ممن يقومون بعمل في مصر هم المشتغلون بالزراعة ، واعتماد الأمة المصرية على غلات الأرض هو الحقيقة الاقتصادية الكبرى في هذه البلاد . ولا يكفي لفهم هذا أن ننظر إلى أصحاب الحرف وعددهم (إذا استثنينا حرفة التلمذة) فوق الخمسة الملايين بقليل : ثم نقول إن المشتغلين باستثمار اليابسة والماء يبلغون نحو ٦٥ في المائة من المشتغلين بالأعمال جميعاً في مصر . هذه العبارة لا تؤدي حقيقة المعنى اللهم إلا إذا ذكرنا إلى جانبها أن المشتغلين بغير الزراعة إنما يخدمون بأعمالهم النشاط الزراعي ويعتمدون عليه كل الاعتماد . فالتجار يشتغل أكثرهم بالتجار بغلات الأرض ، والمشتغلون

بالصناعات التحويلية يقوم أكثرهم بصناعات متصلة بالغلات الزراعية اتصالاً وثيقاً وكذلك أصحاب النقل وغير ذلك من الصناعات ، وليس من شك في أن هؤلاء الثلاثة الملايين ونصف المليون من المشتغلين باستثمار اليابس والماء هم عماد حياة مصر الاقتصادية ؛ والمرأة التي تنعكس فيها سعادتها أو شقاؤها . لهذا يجدر بنا أن ننظر عن كثبٍ إلى حالة هؤلاء المشتغلين باستثمار اليابس

إن مساحة الأراضي التي يعيش فيها سكان مصر تبلغ نحو ثمانية مليون وربع مليون من الأفدنة . ولكن جزءاً عظيماً من هذه الأرض يزيد على المليون فدان لا يزال بوراً ؛ وهناك جزء آخر يزيد على النصف مليون لا يستخدم في الزراعة مما يطلق عليه عادة اسم « منافع عمومية » وهذا كله يترك الأرض المنزرعة بحيث لا تتجاوز ستة ملايين وستمائة ألف فدان . والقطار المصري بطبيعته إقليم محدود ضيق المدى ، غير قابل للتوسع الكثير . لهذا لم يكن من السهل أن تتسع مساحة الأراضي المنزرعة اتساعاً يتشى ولو قليلاً مع نمو السكان . ففي عصر اسماعيل كان سكان مصر نحو ستة ملايين من الناس ، والأراضي تبلغ زهاء ستة ملايين من الأفدنة . واليوم قد وصل السكان إلى خمسة عشر مليوناً ، ولم تزد الأراضي على الثمانية ملايين وربع

المليون . حقيقة أن أكثر الأراضي أُنحِت تزرع مرتين في كل عام ، بدلا من زراعة واحدة . ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن غلة الأرض قد نقصت نقصاناً محسوساً عما كانت عليه في عهد رى الحياض . ولا بد من الاعتراف بأن سكان مصر قد زادوا زيادة تفوق بمراحل كل تحسين في الثروة الزراعية . كذلك قد ارتفعت أثمان الأراضي ارتفاعاً هائلاً . وهذا ينقص من القيمة الفعلية لما يجنيه الفلاح منها بعد أن يودع فيها رأس مال ضخم ومن البديهي أن أولئك الثلاثة ملايين ونصف المليون الذين يشتغلون باستثمار اليابس والماء ليسوا جميعاً ملاكاً للأراضي فإن عدد أصحاب المزارع صغيرة كانت أو كبيرة لا يتجاوز ١,٢١٤,٠٠٠^(١) أما الآخرون وهم الكتلة العظمى من المستثمرين لليابس فانهم يعملون بثابة أجراء . ومتوسط أجرهم يتراوح بين قرشين وثلاثة قروش ولا يزيد على هذا القدر إلا نادراً وفي ظروف شاذة . وأصحاب المزارع أنفسهم وإن كانوا أحسن حالا ، فإن أمورهم قد ساءت كثيراً في العهد الأخير ولا تزال آخذة في التدهور . فإن عدد المزارع آخذ في الازدياد وحجمها آخذ في النقص والانكماش بصورة تبعث على الانزعاج ويبدو الاردحام الشديد بنوع خاص في مديرية المنوفية ؟

(١) راجع التعداد الزراعى (١٩٢٩) ص ٦ و ١٢

وحالتها اليوم ترينا بلا شك المصير الذى ستؤول إليه الحال فى سائر المديرىات بمضى الزمن . فقد أدى ازدياد السكان إلى تجزئة الأطنان أجزاء صغيرة تافهة ؛ وأصبحت الكثرة العظمى من الملاك ، وكل ما يمتلكون لا يتجاوز الغدان الواحد وفى أحوال كثيرة جداً قد لا يعدو بضعة قراريط . حقيقة لا يزال هنالك ملاك كبار . ولكن عددهم ضئيل جداً إذا قورن إلى الجيش الهائل من صغار الملاك

والذى يطالع التعداد الزراعى لعام ١٩٢٩ يرى هذه الحقيقة واضحة كل الوضوح . مثال هذا أننا نقرأ أن قرى كثيرة زمامها بضع مئات من الأفدنة والملاك لهذا الزمام يبلغون نحو ضعف ذلك العدد ، فإذا علمنا أن هنالك عدداً من كبار الملاك فى تلك القرى ففى وسعنا أن نتصور إلى أية درجة قد جرئت الأرض وصغرت الملكيات الزراعية . والذين يعرفون الحال فى مديرية المنوفية قد لاحظوا هذه الظاهرة ، ورأوا الملكيات فى كثير من الأحيان قد لا تتجاوز قيراطين يعيش من ريعهما أسرة كاملة العدد ، فأى غرابة فى أن تكون هذه الحياة فى درجة هائلة من الانحطاط ، مع هذا فإن هؤلاء الملاك الصغار يعدون سعداء إذا قيسوا إلى طبقة الأجراء ، الذين لا ينالون سوى أجر زهيد لا يتجاوز الثلاثة القروش ولا يحصلون عليه إلا فى مواسم خاصة

وقد سرت عدوى الأجور المنحطة من الريف إلى المدن .
فإن كثيراً من أهل الريف يحتشدون إلى العواصم سعياً وراء الرزق
وكثير منهم يرضى أن يعمل النهار كله تلقاء أجر قد لا يتجاوز
الأربعة قروش . وفي القاهرة آلاف من العمال لا يتجاوز أجرهم
هذا القدر الزهيد الذي لا يحفظ جسماً ولا روحاً

وبرغم هذا كله فإن سكان مصر لا يزالون يتزايدون بنسبة
تقرب من ربع مليون نسمة في كل عام . وجلهم من أبناء الطبقات
الفقيرة التي هي الكثرة العظمى للأمة . فهم لا يزيدون في
العناصر المثقفة المتبصرة ، بل في العناصر الجاهلة الفقيرة . ولهذا
أصبحت مشكلة الفقر في مصر ومشكلة الجهل — وهما أعقد
وأهم المشاكل الاجتماعية في مصر — بدلا من أن تسيرا تدريجياً
نحو الحل فإنهما تزدادان على الأيام تعقيداً وإشكالا . فلقد ترسم
الخطط الدقيقة لتعليم الأميين وتنقيف الجاهلين . ولكن هؤلاء
يزداد عددهم سنوياً بمقدار ربع مليون ، وموارد الدولة التي لا بد
لها أن تعالج هذه المشاكل لا تزداد شيئاً يستحق الذكر

حقيقة إن هنالك مشاريع بإصلاح الأراضي البور ؛ وهنالك
نشاط صناعي آخذ في النمو تدريجياً ، ولكن للأسف أن نمو السكان
أسرع وأشد بكثير من نمو هذه الموارد الجديدة
وقد قيل في علاج ازدحام السكان في مصر إن أمام

المصريين بلاد الله واسعة فليهاجروا إليها . وليس من شك في أن الذين يقولون هذا لا يحسبون لهذا الأمر حسابه . فإن المصرى لم يكن في تاريخه الطويل بالشخص الذى يحب النزوح عن وطنه . وعلى فرض أن الأحوال القاسية هنا ستضطره أن يختار بين الرحيل أو حياة الفاقة الشديدة ، فمن المشاهد للأسف أن الكثيرين قد آثروا البقاء مع الفاقة على طلب الغنى فى أرض غير هذه . وفى العادة أن المهاجرين — إذا كانت هنالك مهاجرة — هم عادة أصلب السكان عوداً وأكثرهم جرأة وإقداماً . ومن الخسارة الفادحة فقدان هؤلاء . وعدا هذا كله فإن المهاجرة فى زماننا هذا لا يمكن أن تحل مشكلة الازدحام ؛ لقلة الأقطار التى يمكن المهاجرة إليها ، ولتشدد الدول فى قبول المهاجرين . وإلا فكيف عجزت انكثارة صاحبة المستعمرات الواسعة عن أن تفسح مجال المهاجرة أمام عمالها العاطلين ، واضطرت لأن تتبع فى أمر السكان سياسة تقضى بالإقلال من النمو ؟

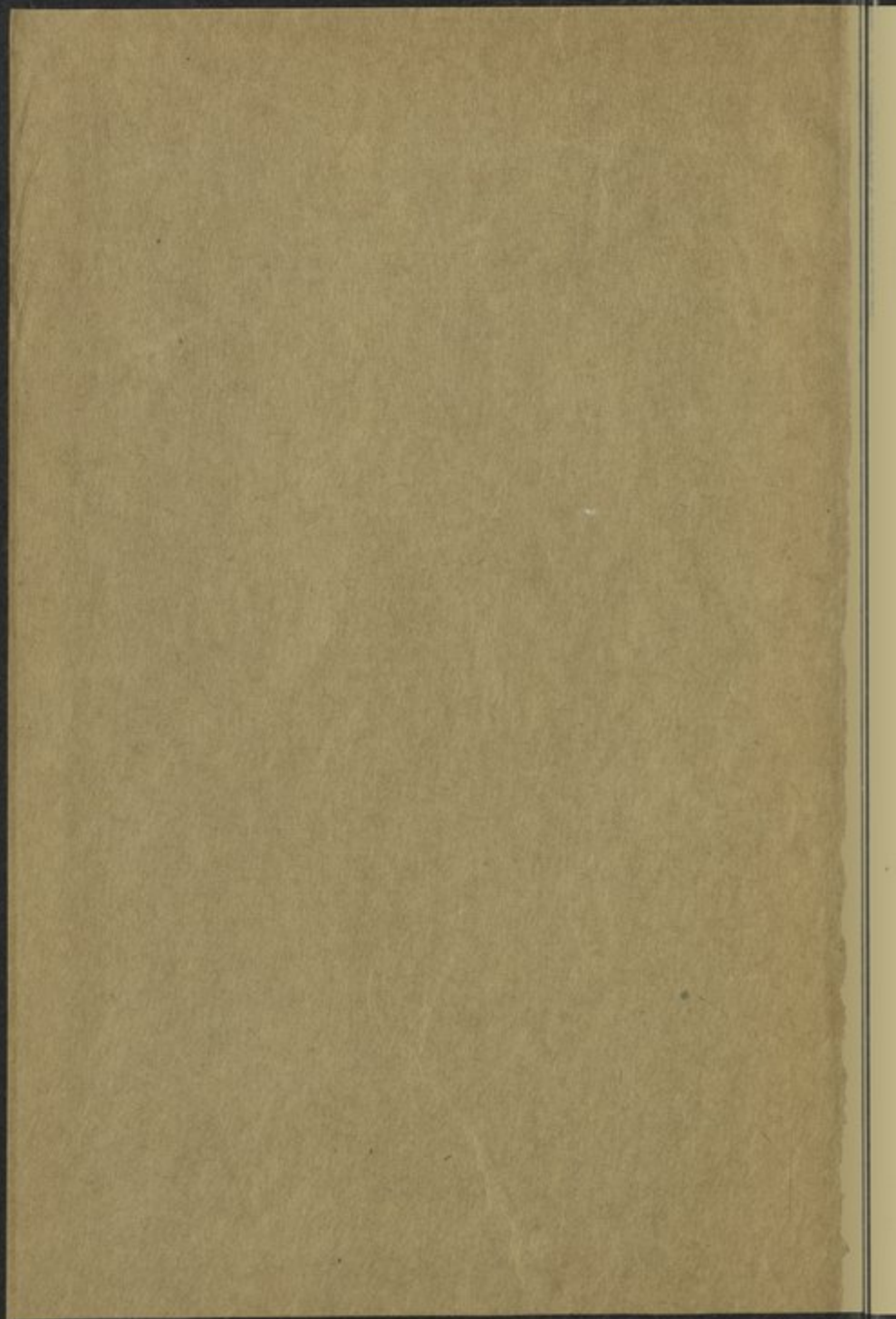
إن الذين يفكرون فى الإصلاح الاجتماعى فى مصر لن يؤدوا لوطنهم أية خدمة تستحق الذكر ما لم يبادروا بدراسة مشكلة السكان دراسة جدية عملية ومعالجتها معالجة جريئة ناجعة فهى بلا شك أكبر المشكلات خطراً وأبعدها أثراً ...

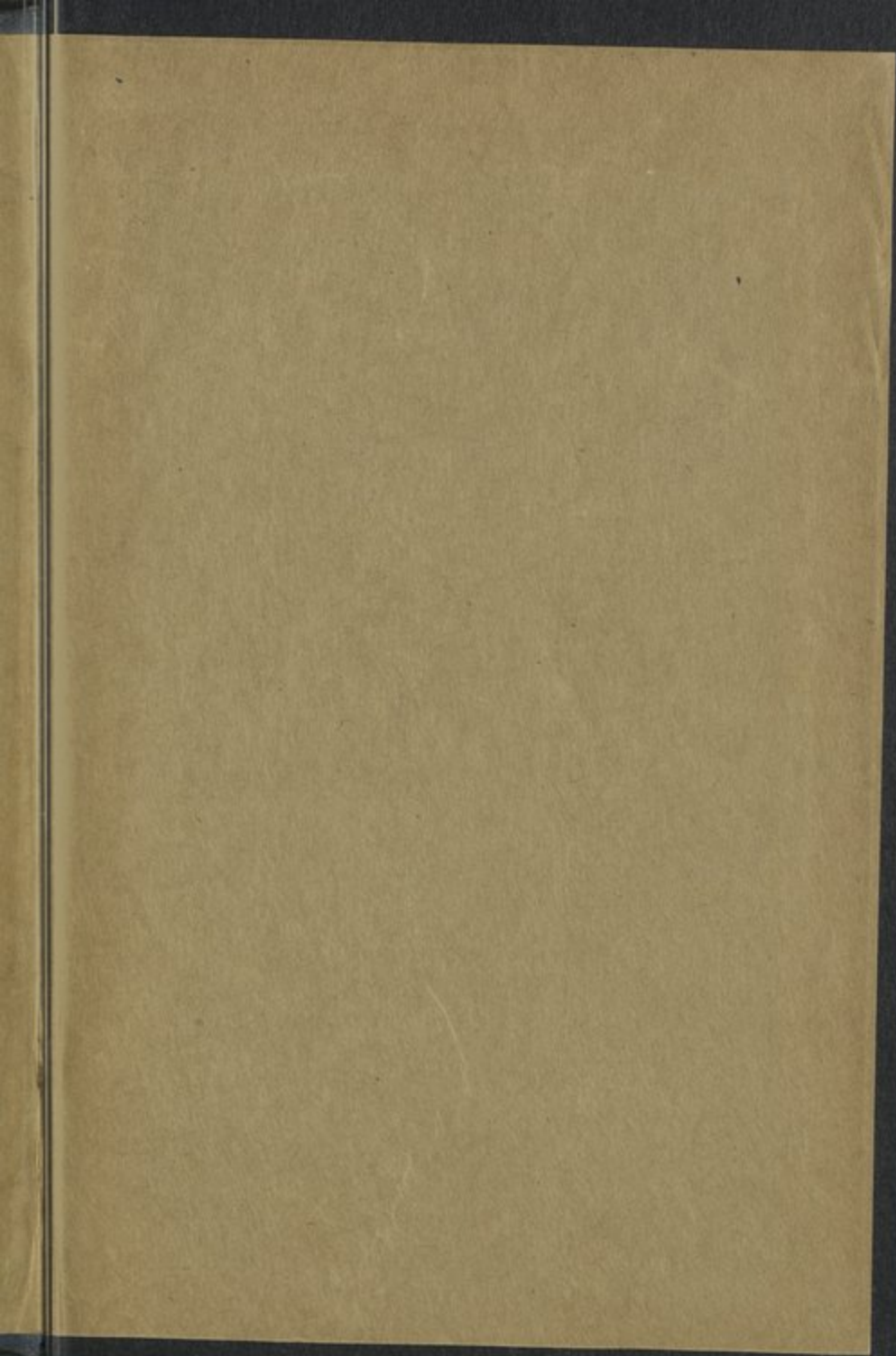
ملحق بالفصل السابق

بعض المراجع الخاصة بسلطان مصر

- E. Jomard,
— Memoire sur la population comparée de l'Egypte
ancienne et moderne. (Description de l'Egypte, IX)
Cavaignac,
— Population et Cspital dans le monde mediter-
ranean antique (Paris 1923)
Amer, Mustafa,
— Some Problems of the Population of Egypt
(Cairo 1932)
El Darwish, M. M.
— Analysis of some Estimates of the Population of
Egypt before the XIX th Century. (l'Egypte Contem-
poraine March, 1929)
El Darwish and Azmi,
— A Note on the Population of Egypt
في مجلة Population العدد الثاني نوفمبر سنة ١٩٣٤
Craig, J. I
— The Population of Egypt (Population Congress,
Rome, 1931.)
تعداد القطر المصري ، جزء أول وثان ١٩٣١
التعداد الزراعى لعام ١٩٢٩
التقرير السنوى لمصلحة الصحة ١٩٣٢
كتاب مالية مصر من عهد الفراغة إلى الآن لسمو الأمير عمر طوسون
أطلس مصر لمصلحة المساحة
ديودور الصقلي الجزء الأول الخامس بمصر في أبحاث كلية الآداب







312:M95sA:c.1

محمد، محمد عوض

سكان هذا الكوكب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01012916

American University of Beirut



312

M 95sA

General Library

